الأنوار القدسية في بيان

آداب العبودية

وَيليه

الأنوار في

آداب الصحبة

وكلاهما

للعارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني

حققهما

رشاد الخطيب

دار التقوى
سورية. دمشق

الأنوار القدسية في بيان
آداب العبودية
ويليه
الأنوار في
آداب الصحبة
وكلاهما
للعارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني
حققهما
رشاد الخطيب
دار التقوى
سورية . دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : آداب العبودية

المؤلف : الإمام الشعراني

المحقق: رشاد الخطيب

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م

دار التقوى

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا . دمشق . حلبوني . ص.ب: ٣٠٧٢١

هاتف: ٢٢١٥٤٦٤ - ٢٢٤٩١٠٧ - ٠٩٣ ٢٠٦٠٠٧

فاكس: ٠٩٦٣ ١١ ٥٩٢١٨٨٠+

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله ﷺ.

وبعد:

فهذا كتاب «**الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية**» بيَّن فيه مؤلفه - رحمه الله - جملة من آداب العبودية؛ وجملة من آداب طلب العلم النافع؛ وجملة من آداب الفقراء عموماً وخصوصاً وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم، وختم الكتاب بجملة من مقامات السالكين التي سقطت بمقام العبودية لله تعالى؛ مبيناً أنها أخص مراتب الأنبياء والصديقين، وهي عمدة الرسالة وسبب وضعها.

وتمتاز هذه الطبعة عن مثيلاتها بأنها مقابلة على نسخة خطية تتألف من (١١٠) ورقة تتصف بخط واضح ومقروء؛ وكتبت فيها بعض الكلمات باللون الأحمر، وفي كل صفحة (٢١) سطر.

كما أتبعنا رسالة «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» برسالة:

«الأنوار القدسية في بيان آداب الصحبة»

تحدث فيها الإمام الشعراني عن الصحبة وآدابها وفضائلها؛ ورصعها بذكر

بعض من آداب القوم رضي الله تعالى عنهم؛ وذيلها بخاتمة بيَّنَ فيها آداب ذكر الله تعالى.

وإن كان الإمام الشعراني قد سمّاها بـ«رسالة الأنوار» كما قال في خاتمة الرسالة، إلا أننا وجدنا مخطوطة لها محفوظة بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق تحت اسم «آداب الصحبة» برقم (١٤١١٦ - تصوف) وقد كتبت بخط واضح بلونين أسود أحمر؛ كتب على الصفحة الأولى منها: «آداب الصحبة تأليف سيدي عبد الوهاب الشعراوي رحمة الله عليه آمين».

فاعتمدنا هذه المخطوطة أصلاً في إخراج هذا السِّفر الجليل.

وفي الختام:

أسأل الله تعالى أن يتقبل عملنا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويجعله في صحيفتي وصحيفة والديَّ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه:

عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمد بن الحنفية، الشعراني أبو محمد.

ولادته ونشأته:

ولد في قلقشندة بمصر سنة ثمانٍ وتسعين وثمانمائة هجري، ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية وإليها نسبته: الشعراني؛ ويقال الشعراوي.

حياته العلمية:

قال ابن العماد الحنبلي نقلاً عن الحافظ المناوي في طبقاته وهو يذكر الشيخ بقوله: هو شيخنا الإمام، العالم، العابد، الزاهد، الفقيه، المحدث، الأصولي، الصوفي، المربي، المسلك، مات والده وهو طفل ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة، ومخايل الرياسة والولاية، فحفظ القرآن، وأبا شجاع، والآجرومية، وهو ابن نحو سبع أو ثمانٍ، ثم انتقل إلى مصر سنة إحدى عشرة وتسعمائة هجرية وهو مراهق، فقطن بجامع الغمري وجدّ واجتهد فحفظ عدة متون منها المنهاج، والألفية، والتوضيح، والتلخيص، والشاطبية، وقواعد ابن هشام، بل حفظ الروض إلى القضاء وذلك من كراماته. وعرض ما حفظ على علماء عصره.

ثم شرع في القراءة فأخذ عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري قرأ عليه ما لا يحصى كثرة؛ منها الكتب الستة.

وقرأ على الشيخ الشمس الدواخلي، والنور المحلي، والنور الجارحي،

ومنلا علي العجمي، وعلي القسطلاني، والأشموني، والقاضي زكريا، والشهاب الرملي، وما لا يحصى أيضاً.

وحبب إليه الحديث، فلزم الاشتغال به والأخذ عن أهله، ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين، ولا لدونة النقلة، بل هو فقيه النظر صوفي الخبر له دربة بأقوال السلف ومذاهب الخلف، وكان ينهى عن الحط على الفلاسفة، وتنقيصهم، وينفر ممن يذمهم، ويقول هؤلاء عقلاء، ثم أقبل على الاشتغال بالطريق، فجاهد نفسه مدة وقطع العلائق الدنيوية، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض ليلاً ولا نهاراً، بل اتخذ له حبلاً بسقف خلوته يجعله في عنقه ليلاً حتى لا يسقط، وكان يطوي الأيام المتوالية، ويديم الصوم، ويفطر على أوقية من الخبز، ويجمع الخروق من الكيمان، فيجعلها مرقعة يستتر بها. وكانت عمامته من شراطيط الكيمان وقصاصة الجلود، واستمر كذلك حتى قويت روحانيته فصار يطير من صحن الجامع الغمري إلى سطحه، وكان يفتتح مجلس الذكر عقب العشاء فلا يختمه إلا عند الفجر، ثم أخذ عن مشايخ الطريق. صحب الخواص، والمرصفي، والشناوي فتسلك بهم ثم تصدى للتصنيف وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع، وعقائد زائغة، ومسائل تخالف الإجماع، وأقاموا عليه القيامة، وشنعوا وسبوا ورموه بكل عظيمة، فخذلهم الله، وأظهره عليهم، وكان مواظباً على السنة، مبالغاً في الورع، مؤثراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه متحملاً للأذى موزعاً أوقاته على العبادة ما بين تصنيف وتسليك وإفادة.

كان عظيم الهيبة وافر الجاه والحرمة، تأتي إلى بابه الأمراء، وكان يسمع لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً.

كان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ.

مؤلفاته :

له مصنفات كثيرة، منها المخطوط ومنها المطبوع نذكر منها:

١- «لطائف المنن» ويعرف بالمنن الكبرى.

٢- «القواعد الكشفية في الصفات الإلهية» مخطوط.

٣- «أدب القضاة» مخطوط.

٤- «البحر المورود في المواثيق والعقود» مطبوع.

٥- «بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق» مخطوط بخطه.

٦- «تنبيه المغترّين في آداب الدين» مطبوع.

٧- «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» وهو كتابنا هذا.

وفاته :

توفي رحمه الله سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة هجرية، ودفن بجانب زاويته.

رسالة الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية

للشيخ العارف الرباني والمحقق الصمداني

سيدي عبد الوهاب الشعراني

أمدنا الله من إمداداته

وأعاد علينا من جزيله

وبركاته آمين

والحمد لله

وحده

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافي
مزيده يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك
وعظيم سلطانك سبحانك لا نحصي ثناء عليك
انت كما اثنيت على نفسك والصلاة والسلام على
اشرف المرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله
وصحبه اجمعين وبعد فقد كنت في يوم
الاثنين المبارك سابع عشر رجب سنة
احدى وثمانين وتسعمية عركني حر
قوي بعض مقامات الاولياء رضي الله عنهم وزرت
جميع مقاماته وتشرفت [illegible] وذلك
عند الرضى بقسمة الله تعالى حتى خفت سواد
[illegible] والغضب غضبت على وجه
نبينا [illegible]
[illegible] تعالى
يقول عز من قائل الحق سبحانه وتعالى عبدي
لو اطلعتك على جميع الكائنات وعددها وفهم
كم ذراته ونباتاته واسمائه واعداده والمخلوقات
وانواعها [illegible] من الوحوش والطيور
والحشرات وسائر الدواب وكشفت لك عن ملكوت
السموات والارض والجنة والنار وما بينهما

وظاهرا

وظاهرا وانزلت المطر بدعائك واحييت الميت
على يديك واجريت على يديك جميع ما اردت
به عبادي المؤمنين لست من عبوديتي في شي
انتهى ما القاه الهاتف فاستتم هذا الكلام وبقي
عندي شهوة نفسي لمقام من مقامات الاوليا لا في
الدنيا ولا في الاخرة فحمدت الله تعالى شكرا على ما اولى
وقد احببت ان اتكلم على المراد بالهاتف
وما القاه وابسط الكلام في ذلك مرصعا بكلام بعض
العارفين من مشايخي رضي الله عنهم خوفا ان يتوهم
احد من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب
الوحي ان ذلك وحي كوحي الانبيا عليهم الصلاة
والسلام فاقول اعلم ان الهاتف المذكور لا يخلوا
اما ان يكون ملكا او وليا او من صالحي الجن او هو
الخضر عليه السلام او غير ذلك لان الخضر عليه السلام
حي لم يمت وقد اجتمعنا بمن اجتمع به
وبالمهدي واخذ عنهما طريق القوم وهو شيخنا
الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ حسن العراقي صاحب
الضريح فوق الكوم بقرب بركة الرطلي بمصر وذكر لي
رضي الله عنه انه اجتمع بالمهدي امام اخر الزمان
عليه السلام بدمشق واقام عنده سبعة ايام وعلمه
وردا كل ليلة خمسماية ركعة وصيام الدهر

تمت الرسالة المباركة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الانبيا والمرسلين وعلى آله
وصحبه اجمعين • كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن
ذكرك الغافلون • ووافق الفراغ من تعليق هذه
النسخة المباركة يوم الاثنين المبارك •
عشرة ربيع الثاني الذي هو من شهور
سنة الف ومائتين وواحد
على يد الفقير الذليل علي
ابن علي الازبكاوي
الشافعي
غفر له
وللمسلمين
اجمعين
امين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله ربِّ العالمين؛ حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، والصَّلاة والتسليمُ على أشرف المرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فلما كان يوم الإثنين المبارك سابع عشر رجب الفرد سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة (٩٣١هـ) تحرك عندي خاطرٌ قويٌ بطلب مقامات الأولياء رضي الله عنهم، وازدريت جميع ما أنا فيه وتكدَّر لذلك عيشي؛ لعلمي بأنَّ في ذلك عدم الرضا بما قسمه الله تعالى، حتى خفت سوء الخاتمة والمقت والغضب فخرجت على وجهي، فبينما أنا بالفسطاط، مقابل الروضة بمصر أخذتني حالة بين النائم واليقظان، فسمعت هاتفاً أسمع صوته ولا أرى شخصه، يقول على لسان الحقِّ سبحانه وتعالى: «عبدي لو أطلعتك على جميع الكائنات، وعدد الرمال واسم كل ذرة منه، والنبات وأسمائها وأعمارها، والحيوانات وأعمارها وأنسابها إلى أصولها من الوحوش والطيور والحشرات وسائر الدواب، وكشفت لك عن ملكوت السموات والأرض والجنة والنار وما فيهن ظاهراً وباطناً [٢/أ]، وأنزلت المطر بدعائك وأحييت الميت على يدك، وأجريت على يدك جميع ما أكرمتُ به عبادي المؤمنين؛ لستَ من عبوديتي في شيء» انتهى ما ألقاه الهاتف.

فما استتمَّ هذا الكلام وبقي عندي شهوة نفس لمقام من مقامات الأولياء؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة، فحمدت الله تعالى شكراً على ما أولى.

وقد أحببت أن أتكلم على المراد بالهاتف وما ألقاه؛ وأبسط الكلام في ذلك مرصَّعاً بكلام بعض العارفين من مشايخي رضي الله عنهم، خوفاً أن يتوهم أحدٌ من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب الوحي أن ذلك وحيٌ كوحي الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

فأقول:

اعلم أنَّ الهاتف المذكور لا يخلو إما أن يكون ملَكاً أو ولياً أو من صالحي الجن، أو هو الخضر عليه السَّلام أو غير ذلك...

لأنَّ الخضر عليه السَّلام حيٌّ باقٍ لم يمت، وقد اجتمعنا بمن اجتمع به وبالمهدي وأخذ عنهما طريق القوم، وهو شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ حسن العراقي صاحب الضريح فوق الكوم بقرب بركة الرطلي بمصر، وذكر لي رضي الله عنه أنه اجتمع بالمهدي إمام آخر الزمان عليه السَّلام بدمشق وأقام عنده سبعة أيام، وعلَّمه ورده كل ليلة خمسمائة ركعة وصيام الدهر [٢/ب]، وذكر لي وقائع كثيرة، وأنه سأل الإمام عن سنة مولده فقال: ولد أواخر المائتين من الهجرة، فسألت عن ذلك بعض الكُمَّل من مشايخنا، فأجاب بالتاريخ المذكور سواءً بسواء فاعلم ذلك.

وأمَّا ما ألقاه الهاتف فنقول: اعلم أن الوحي على ضروب، منها ما يكون متلقَّياً بالخيال كالمبشرات في عالم الخيال وهو الوحي في النوم؛ فالملقى خيال والنازل كذلك والوحي كذلك. ومنه ما يكون خيالاً في حس على ذي حس؛ ومنه ما يكون معنىً يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلق حسّ ولا خيال بمن نزل به؛ وهو المسمَّى بالإلهام.

وقد يكون كتاباً، ويقع ذلك كثيراً للأولياء كقضيب البان ونحوه، فكان

شيخنا رضي الله عنه يجد بعد القيام من النوم ورقةً مكتوباً فيها ما ألقي إليه به إذا تقرر ذلك.

فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد؛ فمن عرفهم تلقَّاهم بالأدب، ومن لم يعرفهم أخذ عِلمَ الغيب ولا يدري عمَّن كان كالكهنة وأهل الزجر، فلهذا كان أهل الله تعالى يرون تنزل الأرواح على قلوبهم ولا يرون الملك النازل إلا أن يكون المُنَزَّل عليه نبياً أو رسولاً، فعلم أنَّ أهل الله يشهدون الملائكة ولكن لا يشهدونها ملقية عليهم، أو يشهدون الإلقاء ويعلمون أنها من الملك من غير [٣/أ] شهوده، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه إلا نبي أو رسول، ولهذا يفرَّق بين النبي صاحب الشرع المنزل وبين الولي التابع.

واعلم أنَّ ما ألقي على الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام يعبَّر عنه بالوحي وبالشرع؛ فإن كان منسوباً إلى الله تعالى بحكم الصِّفة سمِّي قرآناً وفرقاناً وتوراةً وإنجيلاً وزبوراً وصحفاً؛ وإن كان منسوباً إلى الله تعالى بحكم الفعل لا بحكم الصِّفة يسمَّى حديثاً وخبراً وسنَّةً.

وقد أغلقَ اللهُ باب التنزيل بالأحكام المشروعة، وما أَغْلَقَ باب التنزيل بالعلم بها على قلوب أوليائه، فالتنزيل الروحاني بالعلم بها باقٍ لهم ليكونوا على بصيرةٍ من دعائهم إلى الله تعالى بها، كما كان من اتبعوه ﷺ، ولذلك قال ﷺ: **«أنا ومن اتبعني»**.

فَعُلِمَ أن الولي لا يدعو إلى الله ابتداءً بخلاف النبي، فالوليّ يدعو إلى الله بحكاية دعوة الرسول ولسانه؛ لا بلسانٍ يحدثه كما يحدِّث الرسول، ولهذا لو قال الولي بما يخالف حكم الرسول لم يُتَّبَعْ في ذلك ولم يكن على بصيرة؛ لأنَّ من كان على بصيرة لا يتطرق إليه تهمة، لأنه ليس عن فكر ولا نظر؛ فعلمهم لا يزلزله تجدد نظر؛ إذ هو حقّ اليقين.

إذا علمت ما ذكرناه فليس في إلقاء الهاتف المذكور ما يتوهم منه رائحة دعوى النبوة، بل ولا دعوى مرتبة [٣/ب] العارفين أصحاب القلوب، لأنَّ الفقير صاحب هذا الإلقاء لم يشهد صورة الملقي إليه ذلك، ولا كان في اليقظة ولا هو في الأحكام الشرعية حتى يعارضها؛ فهو بعيد عن مرتبة العارفين أصحاب القلوب رضي الله عنهم أجمعين.

وقد سألني بعض الفقراء من الإخوان - نفع الله بهم - أن أملي على هذا الإلقاء المذكور جملةً مما فهمته منه من آداب العبودية، وجملةً من آداب طلب العلم النافع، وجملةً من آداب الفقراء عموماً وخصوصاً، وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم، لأن الشيطان لهم بالمرصاد؛ ولا ينجو منه إلا القليل من عباد الله، فأجبت إلى ذلك وختمت الأبواب بجملة من مقامات السَّالكين التي سقطت بمقام العبوديَّة لله تعالى؛ وإنها أَخَصُّ مراتب الأنبياء والصِّدِّيقين، وسميتها:

«رسالة الأنوار القدسيَّة في بيان آداب العبوديَّة»

وذلك على لسان هاتف، والخطيب على المنبر يوم الجمعة.

وأرجو من الله الكريم أن كل من نظر في هذه الرسالة من الفقراء أحاط علماً بالأدب مع الله تعالى، لما فيها من خرق نظام المشيخة والناموس، وما فيهما من الرياء والكبر الذي يترقى عند التلامذة في الغالب، فيا ليت الشيخ تمَّ على حالة التلامذة ولم يَصِرْ شيخاً وكان كآحاد [٤/أ] الناس الذين لا يشار إليهم بالأصابع، لأن خير الناس من كان مستوراً في الدنيا، إلا أن يكون مأموراً بعدم الستر كالأنبياء وورثتهم من كُمَّلِ الأولياء، على أن المتميزين الآن إنما تميُّزهم بالدعوى فقط، فإن من أرباب الحِرَفِ من هو على أوراد وأذكار وصدقات لا يخلو منها ولا يوماً واحداً، ولا يقال له قط خاطركم علينا ولا شيء لله المدد، ولا يعرفون الرياء ما هو، وكذلك الفلاحون طول عامهم في

مصالح الخلق في أعمال شاقة لا يقدر فقير يضبط على دينه معها أسبوعاً كاملاً مع ازدراء غالب الخلق لهم، وغالب فقراء هذا الزمان المدّعين لا يسلم منهم من الرياء والتصنع إلا القليل لضعفهم، ولا يتصدق أحد منهم بالفلس الواحد؛ بل يلقون كلّ ما يجدونه، ويرون بذلك الفخر، لا سيما إن كان أرباب الدولة يذكرونه بالثناء الحسن، ولذلك قال بعض مشايخنا رحمه الله: شيخ الأمير طبل كبير، وشيخ الفقير عبد حقيرٌ.

إذا علمت ذلك فترك التمييز والالتحاق في المراسم؛ والهيبة بالعوام أولى؛ بل هو الصدق المحض، وهذه طريقة الصحابة والتابعين؛ وهي طريقة سهلة نافعة لعامة المسلمين، لأن كلّ الخلق لا يخرجون عنها، إنما هي دعوى لا حقيقة [٤/ ب] لها كمن ادّعى الألوهية من العبيد.

واعلم أنّ سبب تعدّي العبد عن حدوده كونه مخلوقاً على الصورة، وهو تعالى له العزة والكبرياء والعظمة، فسرت هذه الأحكام في العبيد تحقيقاً للواقع، والكامل من العبيد هو الذي لا يصرفه خلقه على الصورة عن الفقر والذلّة والعبوديّة، لما يعرف من نفسه من العجز والضعف والافتقار إلى أدنى الأشياء والتألم من قرصة برغوث، هذا يدركه كل إنسان من نفسه ذوقاً؛ فليحذر العبد من رؤية نفسه على أحد من رعيته ولو عَبْده الذي في رقّهِ، لأنه ربما يكون عند الله أحسن حالاً منه كما ورد في الحديث، وليحذر من قوله: تجعل رأسك برأسي؛ أو مثلك بمثلي أو غير ذلك، فإن هذا كله دليل على الجهل والغباوة والكبر؛ والله لا يحبُّ المتكبرين، ولو لم يكن في ذلك إلا أنّ الله تعالى يكرهه لكان كفايةً في الزجر، لأن العبيد كلهم حرهم ورقيقهم ملك له تعالى لا فضل لأحدٍ إلا بما فضّله سيّده به، وهذا لا يعلم إلا بوحي فالزم الذُل واترك الزجر لعبدك وخدمك إن كنت عبداً لله تعالى.

واعلم [٥/أ] أنَّ هذه الطريقة لا يحتاج سالكها إلى مراجعة شيخ في الغالب، لأنه لا يقف مع كشف ولا منام ولا خاطر وغيرها مما يحتاج إليه فقهاء الصُوفية، وقد بالغت في إيضاحها وأحلتُ مالا يدرك من الأخلاق إلا ذوقاً على الذوق، إذ العبارة لا تضبطه؛ كمن يصف طعم العسل لمن لم يره ولم يذقه، فوصفه يقصر عن إيصال الطعم إليه، على أني حذفت غالب ما لا يدرك إلا بالذوق خوفاً من ردِّهِ إذا رآه من لم يذق؛ ممن يقبل الكلام على التقليد، لأن كل من زين له اعتقاد يَردُّ كل ما أتى بخلاف معتقده وإن كان حقاً، ولأن طريق القوم ذوقٌ لا نقل؛ فمن لم يذق وأنكر فهو معذور، وكل عالم إذا ذاق علماً فوق علمه لا يمكنه التقيد معه ويتركه لأدنى درجة وليس من نَقَلَ كمن شهِد.

واعلم أن جميع ما أضعه بإرادة الله تعالى في هذه الرسالة ابن وقته ليس بفكرٍ ولا نظر، وإنما هو أمر يسألني عنه بعض الإخوان فأزِنُهُ بميزاني القاصر، وكلِّ وقت له كلام جديد غير الآخر، لأنه ليس بنقل حتى يرجع إليه، فرحم الله امرأً رأى فيها شيئاً يخالف ظاهر الكتاب والسنة وأصلحه؛ لكن بشرط أن يكون على يقينٍ ومعرفةٍ ليس فيه شك.

ورتبتها على ثلاثة أبواب وخاتمة:

الباب الأول: في آداب [٥/ب] العبوديَّة على الإطلاق.

الباب الثاني: في آداب طلب العلم النافع.

الباب الثالث: في آداب الفقراء والمساكين.

والخاتمة: في بيان جملة من المقامات السَّاقطة عند العبيد الخلَّص، وهي عمدة الرسالة وسبب وضعها.

وها أنا شارع في ذلك مستمدّاً مما يفتح الله تعالى به عليَّ مما لم أره مسطراً، لأن شرط من يضع كتاباً أن لا يعلم أن أحداً سبقه إلى ما ذكر فيه؛

وإلا فتأليفه له حظٌّ نفس فلا فائدة فيه، وقد طرّزتها بكلام بعض العارفين من مشايخي وغيرهم تبرّكاً بذكرهم رضي الله عنهم أجمعين، وأقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، و﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[3].

* * *

(١) سورة البقرة، الآية (٣٢).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).

(٣) سورة الفاتحة، الآية (٢).

الباب الأول
في بيان آداب العبودية على الإطلاق

والآيات والأخبار في ذلك مشهورة.

إذا تقرر ذلك فالمراد من إنزال الكتب وإرسال الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أن يعرِّفوا العبيد وصفهم وما خلقوا له فيلزموه، ويعرفوا ما لله عزَّ وجلَّ دونهم فلا ينازعوه فيه.

وجميع الكتب الإلهية التي أنزلت وثائق الله على عباده، وتحقيقٌ لما له عليهم وما لهم عليه؛ فإنه أوجب على نفسه لعباده حقوقاً فضلاً منه ومِنَّةً [٦/أ] فدخل معهم في العهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[١]، فأدخلنا تحت العهد إعلاماً بأنّا جحدنا عبوديتنا له إذ لو كنّا عبيداً محضاً له لم يكتب علينا عهده، فلما أيقنَّا بخروجنا عن حقيقتنا وادَّعينا الملك والتصرف والأخذ والعطاء؛ كتب بيننا وبينه عقوداً، وأدخل علينا العهد والميثاق، وأدخل نفسه معنا في ذلك، ألا ترى العبد المكاتب أنه لا يكاتب إلا أن ينزل منزلة الأحرار، فلولا توهم رائحة الحرية ما صحت مكاتبة العبيد وهم عبيد؛ فإن العبد لا يكتب عليه شيء ولا يجب له حق، فإنه ما يتصرف إلا عن إذن سيده، فإذا كان العبد يوفي حقيقة عبوديته لم يؤخذ عليه عهد ولا ميثاق، ألا ترى العبد الآبق يُجعل عليه القيد وهو الوثاق؛ فهو بمنزلة الوثائق التي تتضمن العهود والعقود التي لا تصحُّ بين العبد والسَّيد.

إذا علمت ذلك فمن أصعب آية تمرُّ على العارفين بالله تعالى ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[٢] أو العهود، فإنها آية أخرجت العبيد عن عبوديتهم لله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٤٠).

(٢) سورة المائدة، الآية (١).

ولنشرع في ذكر الآداب العامّة فنقول:

من شأن كل العبيد أن لا يقفوا مع شيء من المواهب التي منحهم السيد بها وينسوا حقوقه عليهم من وجوب التوجُه [٦/ب] إليه دائماً، لأن جميع ما يطلبه العبد في الدنيا والآخرة لا يبرز إلا من خزائن سيده ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[١]، فأين يذهبون؟ ومن علم هذا ذوقاً لم يلتفت لسواه، ومن رضي به لم يسأل ما زوي عنه من حظوظ الدنيا والآخرة إذا كان الحق عوضاً له عن كل شيء.

إذا علمت ذلك فالعبد إنما وظيفته امتثال الأمر واجتناب النهي إجلالاً لله تعالى، لا طمعاً في شيءٍ ولا خوفاً من شيء؛ هذا هو اللائق بالأدب؛ لأن العبد إنما يعمل لنفسه فكيف يطلب أجراً على ما عمله لها؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٢]، فلا يحسن منه طلب الأجر لوجهٍ لا يشهد العمل فيه لله ولا لنفسه، ولأنه لا يسلم له عبادة واحدة؛ بل خلل ونقص وسوء أدب، فكيف يطلب ثواباً، وهو إنما يستحقُّ بفعلها على الوجه المذكور العقاب والمقت، ومن ظهر له من نفسه الإخلاص ولم يطلع على نقص في عبادته فهو على خطر في قبولها فقد يردها فلا يحسن منه طلب؛ إلا إذا علم أنَّ الحقَّ تعالى قبلها يقيناً، ومن أين له بذلك؟ وبتقدير وقوعه فهو سؤال قبيح لما فيه من الإيهام وعدم الثقة بما وعد.

واعلم أن العوام أمرهم محمول[٣] في ذلك إن شاء الله تعالى، فيسألونه ويعطيهم ويرونه فضلاً [٧/أ] ونعمةً ويقولون: نحن غارقون في نعمة الله، وباطنهم سليم لله تعالى، وإنما يقام هذا الميزان على أصحاب الدعاوى

---

(١) سورة الحجر، الآية (٢١).

(٢) سورة الصافات، الآية (٩٦).

(٣) في المطبوع: محمود.

والتكبر على الخلق بعبادة الله تعالى، الذين[1] لم يعلموا حقيقة عبوديتهم، وطغوا فيما ليس من وصفهم، فَعُلِمَ أن العبد لا يستحقُّ على سيِّده أجرة بخدمته له؛ وإن طلبها أساء الأدب معه، فالعبد إنما يخدم سيِّده امتثالاً لأمره، وهو سبحانه يعطيه ما وعده؛ لأنه لا يخلف الميعاد، مع أن العمل يطلب الأجرة بذاته ثم يعود ذلك على العامل، ولذلك قالت الرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام عن أمر الله تعالى لأممهم تعريفاً لهم بما الأمر عليه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[2]، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[3] فذكروا استحقاق الأجر على من يستعملهم.

واختص رسول الله محمد ﷺ بفضيلة لم ينلها أحد غيره عاد فضلها على أمته مع إبقاء أجره على الله كالرسل قبله، فأمَرَهُ الحقُّ أن يأخذ أجره الذي له على رسالته من أمته؛ وهو أن لا يؤذوا قرابته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4] فتعيَّن على أمته أداء ما أوجب الله عليهم من حبِّ قرابته وأهل بيته، فعلم أنَّ الأجور مترددة بين الحقّ والخلق؛ للحقّ أجرٌ على خلقه لأعمالٍ عملها لهم، وللخلق أجرٌ على الله فضلاً منه ومنَّةً بأعمالٍ عملوها له لأنهم [٧/ب] طريق لظهور هذه الأجور، فلولا وجود الخلق في ذلك لم يظهر للأجر عين؛ والكلام في هذا واسع.

واعلم أن العبد يستفيد بتركه الطلب للأجر الأدب مع سيِّده والمحبَّة والتقرُّب، لأن السيِّد إذا رأى عبده مقبلاً على عبادته محبَّةً فيه وتعظيماً له خلع عليه خلع الرضا، وأنعم عليه بأمورٍ لم تكن في خياله، وهذا بخلاف من عَلِمَ

(١) في المطبوع: من الذين.

(٢) سورة الأنعام، الآية (٩٠).

(٣) سورة يونس، الآية (٧٢).

(٤) سورة الشورى، الآية (٢٣).

مه أنه يعده لشيء فإنه مطلوق(١) العنان، وغاية السيّد أن يعطيه ما عبده لأجله مع ما فيه من النكد وسوء الأدب وخوف المقت، وهذا مشاهد فيمن يخدم السلطان محبّةً ولا يسأله شيئاً مطلقاً؛ فيعطيه الإقطاعات وغيرها بلا سؤال؛ بخلاف من يسأل على خدمته منه شيئاً أو يرفع له قصةً أو يسأله التقريب، فإنه يثقل عليه أن يكون من أهل خدمته، ويملُّ منه حيث ظهر له منه أنه لا يخدمه إلا لشيء يعطيه له، فافهم ذلك.

واعلم أن العبد ينبغي له أن يثق بضمان الله تعالى ولا يكون عنده اتهام لله تعالى في شيء؛ لأنه عبده، والعبد ليس له عنده شيء يطلبه منه ويتهمه فيه، فمتى لم يكن له وثوق بضمان الله ووعده فهو ناقص الإيمان، وعلامة الوثوق أن يتساوى عنده الغائب والحاضر بلا فرق [٨/أ]؛ فاحذر أن يكون في باطنك اتهام؛ لأنه عند الله كالتصريح باللسان، وأنت لو قلت صريحاً: (أنا لا أثق ولا أصدّق بما وعد الله تعالى)؛ حكمت الشريعة بقتلك، فمن هو عند الله بهذه المثابة كيف يعدُّ نفسه مسلماً؛ لأن الإسلام هو التصديق لله في جميع ما أخبر، فافهم ذلك.

وذلك أن العبادة بلا علّة من طلب ثواب وغيره من أحوال المريدين يتلبسون بها ذوقاً أول دخولهم في الطريق، ولذلك قال بعض العارفين: (نهاية الفقيه مبتدأ الفقير) لأنّ أعلى أحوال الفقيه أن يُخلص في علمه وعمله لله تعالى، ويشهد إخلاصه ولا يطلب عليه ثواباً؛ لا يذوق غير هذا، وهذا أول دخول المريد في الطريق ثم يترقى إلى مقاماتٍ وأحوال بحسب حظّه ونصيبه؛ إلى أن يغيب عن ملاحظة نفسه؛ هذا كلّه بما كُشِفَ له من جلال سيّده وعظمته، لأنّ من ذاق شيئاً من ذلك شغله.

وانظر العبد لمّا تصيبه مصيبة يصير صاحبه جالساً وهو يدخل ويخرج فإذا

---

(١) في المطبوع: مطلق.

قال: لي زمان جالس، يقول له: والله من الهم ما رأيتك؛ مع سلامة حاسة بصره، لكن القلب مشغول والجوارح تبعٌ له، فافهم.

ويقول الفقيه عن(١) العبادة بلا علة وطلب ثواب [٨/ب]: تلك مرتبة الخواص، وهو معذور، لأنه ليس له قدم في الترقي؛ بخلاف الفقير، فإنه لم يزل في الترقي وكلما ترقى إلى مقام تركه؛ وكل مترقٍّ في حال ترقيته لا يذوق أن فوق ما ترقَّى إليه مقام، ولذلك اتُّخذت المشايخ الذين سلكوا قدوة، لأنهم كلما رأوا الفقير ترقَّى إلى مقام أعلموه بأن وراءك كذا وكذا وأنت بعيد، فإذا ترقَّى ورأى ما ذكروه له قبل أن كان ذاقه وثق بهم وقوي يقينه؛ لأنها طريق غيب لا تسلك إلا بدليل، وقد قال الجنيد رضي الله عنه: مكثت نحو عشر سنين أتوقف في قولهم: يبلغ الذاكر إلى حدٍّ لو ضرب وجهه بالسيف لم يحسَّ به، حتى وجدنا الأمر كما قالوا.

ويصبر من ذاق ويقول لمن لم يذق: أنا ذقت، فلا يقبله(٢) منه يقيناً إنما هو تقليد، ولمّا دخلت في طريق المحبّة للقوم فذقت هذا الحال؛ فكنت لا أتعقل أن أحداً يعبد الله لطلب ثواب ولا لخوف عقاب قط، وأقول: أيُّ فائدة لما جاءت به السنة من الأحاديث في الترغيب في العبادات، والترهيب في ارتكاب المحرمات؟! فرأيت النبي ﷺ في عالم غير هذا وقال لي: لو لم يبين للخلق مراتب العبادات وما فيها من الثواب، ومراتب المحرمات وما فيها من العقاب لقامت الحجّة علينا في الآخرة [٩/أ]؛ وقيل لنا هلاَّ بينتم مراتب الأحكام وما فيها من الثواب والعقاب؛ لَكُنَّا بادرنا إليها في دار الدنيا، فقد بيَّنا. فزال عني ما كنت أجده وعلمت ما علمت، فصلى الله وسلَّم عليه ما أحسنه من معلِّم. وبالله التوفيق.

---

(١) في المطبوع: في.

(٢) في المطبوع: يقبل.

ومن **شأنهم**: الرضا عن الله تعالى في كلِّ حالة يكونون عليها، فلا يكون عندهم سخط لشيء مما يجريه عليهم، ولا ازدراء لما أعطاه كائناً ما كان، فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى أعلم بمصالحهم منهم؛ فلا يفعل بهم إلا خيراً ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ﴾(١) الآية.

فالحكمة الإلهية كاملة لا تقتضي أن يعطى العبد غير ما أُعطي من أعلى وأدنى، فلو أعطيَ غير ذلك فسدَ حاله، كما يشير إليه الحديث القدسي: «**إنَّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر؛ ولو أغنيتهُ لفسد حاله، وإنَّ من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى؛ ولو أفقرته لفسد حاله**».

ذا علمتَ ذلك؛ وعلمت أنَّ كلَّ من أعطي شيئاً فهو الأكمل في حقِّه والأصلح، حكمةٌ بالغة من حكيم عليم، فالأكمل في حقِّ النبي(٢) النبوة، وفي حقِّ الولي الولاية [٩/ب]، وفي حقِّ المؤمن الإيمان، وفي حقِّ العَالم العِلم، وفي حقِّ المحترف الحرفة، وفي حقِّ غير المحترف عدمها، وهكذا [كل ذلك بالنسبة لتقدير الله تعالى ومراده، وأما بالنسبة للمخلوق فما حكم الشرع بقبحه فهو قبيح، وما حكم بكماله فهو كمال](٣).

وهنا أسرار يعلمها أهل الله تعالى، فطلب العبد الانتقال من الحالة التي هو فيها اختيار غير ما اختار الله له، وهو مؤذن بأنه يدَّعي أنه أعلم بمصالحه من الله وكفى به جهلاً وكفراً، وكل ما ذكرناه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٤) فافهم؛ وسيأتي زيادة على ذلك في مقام الرجاء والرضا.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٦).

(٢) في المطبوع: الأنبياء.

(٣) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.

(٤) سورة طه، الآية (٥٠).

ومن شأنهم: أن لا يشهدوا لهم ملكاً لشيء لا باطناً ولا ظاهراً، والمراد[١] من شهود ذلك ذوقاً لا علماً، لأن الذوق لا يتوقف على دليل فهو أقوى، وصاحب العلم لولا الدليل ما عَلم، ولا يُنسب الملك إلى من نسبه[٢] إليه دليله، فالقاصر من الفقراء يغلب عليه شهود الملك لله تعالى مع قطع النظر عن مُلك الخلق أصلاً ورأساً، ولا يرى تحريم شيء من غصبٍ ورِباً ونحوهما، ويقول: كل من أخذ من ملك سيّده شيئاً فهو له، ولا يصير عنده دليل يزاحمه، ولذلك يقع النزاع بينه وبين الفقهاء لغلبة حال[٣] كل واحدٍ على صاحبه [١٠/أ]، وصاحب العين الواحدة أعور، وقد ذقت هذا الحال ولكن حفظني الله من تناول ما حرَّمته الشَّريعة؛ حتى خلَّصني الله منه، فالكامل من الفقراء من يشهد المُلك في الأشياء لله ربِّ العالمين مع شهود نسبة الملك للعبد، لا يحجبه هذا عن هذا، لأنه يشهد أنَّ ملك العبد بتمليك الله تعالى له فضلاً منه ونعمة، فليس هو بملك حقيقي؛ لأن ذلك إنما يكون للموجد، وإنما هو نسبة شرعيَّة يَحْرُمُ أكله[٤] وغصبُه وسرقته [وأخذه] بغير طريق شرعي، فلم يخرج عن ملك الله تعالى بنسبته إلى عبده.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: احذر من دعوى المُلك لشيءٍ في[٥] باطنك وظاهرك، لأن كل عبدٍ ادَّعى ملكاً حقيقةً فليس بمؤمن، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾[٦]، فالمؤمن من باع نفسه لله تعالى؛ بمعنى أنه لم تبق عنده منازعة لله فيما هوَ له

(١) في المطبوع: المدد.
(٢) في المطبوع: نسب.
(٣) لم ترد في المطبوع.
(٤) لم ترد في المطبوع.
(٥) في المطبوع: من.
(٦) سورة التوبة، الآية (١١١).

تعالى، فاحفظ نفسك من دعوى تسلب عنك الإيمان، والزم الأدب فإنه باب لكل خير، ولا تجادل فتهلك.

واعلم أن السبب [١٠/ب] الموقع للإنسان في دعوى الملك كونه خليفة، وكون الله[١] الحق تعالى قال في حقه: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[٢] ونحوه من الآيات، ولم يقل ذلك لسوى الإنسان، وما ثم موجود يقرُّ له بالعبودية فيقال: عبد فلان، إلا هو، ولذلك[٣] شرع له العتق وجعل له ولاء العبد المعتق إذا مات من غير وارث، كما أن الإرث لله من عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[٤] فأصحاب النظر القاصر وقفوا مع ظاهر ما نسب إليهم، وأهل الله علموا الوجوه من ذلك، وكادوا أن يذوبوا من الحياء والخجل لعلمهم بأسرار خطاب الحقّ لهم وما فيه من التوبيخ والتقريع، لأنهم أهل القرب والمجالسة، فهم يفهمون أنه لولا عَلِمَ منّا المنازعة له ودعوى الملك لما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾[٥] وكذلك قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾[٦] ونحو ذلك من الأغيار، ولذلك قال بعض العارفين: اللهمَّ لا تجعلني منهم، فافهم[٧].

ومن شأنهم: أن يروا جميع النِّعَمْ التي بأيديهم لوجهين: وجه نعمة ووجه بلاء ومحنة، فربما أتت النِّعم في المحن، [وربما أتت المحن في النعم][٨]، فالعبد [١١/أ] يُعطي الوجهين حقَّهما فيرى النِّعم من وجه النعمة [فيعترف

---

(١) في المطبوع: وكون أنَّ الحقّ.
(٢) سورة النساء، الآية (٣٦).
(٣) في المطبوع: كذلك.
(٤) سورة مريم، الآية (٤٠).
(٥) سورة التوبة، الآية (١١١).
(٦) سورة يس، الآية (٥٥).
(٧) لم ترد في المطبوع.
(٨) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.

بها لله تعالى][1]، ويعترف بعجزه عن القيام بشكرها، ويراها من وجه البلاء والمحنة فيخاف من المكر والاستدراج، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فإذا نظرها بهذا الوجه أَمِنَ - إن شاء الله - من التكبر بها على من لم يعطَها، لأنَّ النفس إذا رأت ما فيها من النِّعم الظاهرة والباطنة من الأحوال والعلوم والمواهب والمعارف والكشوفات؛ ورأت تعظيم الخلق لها بسبب ذلك طغت وتكبرت، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[3] [فافهم ذلك][4].

واعلم أن البلايا أكثر من النِّعم في الدنيا؛ فإنه ما من نعمة ينعمها الله على عبده تكون خالصة من البلاء، فإنَّ الله تعالى يطالبه بالقيام بحقها من الشكر عليها، وإضافتها إلى من يستحقها بالإيجاد، ويصرفها في الموطن الذي أمر الحقُّ تعالى أن يصرفها فيه، فمن كان شهوده في النعم هذا[5] الشهود؛ متى يتفرغ من الالتذاذ بها حتى يغيب عن شهود المنْعِم بالنِّعَم[6]؟.

وكذلك في الرزايا؛ هي في نفسها مصائب وبلايا، ويتضمَّنها من التكاليف ما تتضمَّنه النِّعم؛ من طلب الصبر عليها ورجوعه إلى الحقّ تعالى في رفعها وتقلبها بالرضا والصبر الذي [١١/ب] هو حبس النفس عن الشكوى بالله[7] إلى غير الله، وهذا غاية الجهل بالله؛ لأنك تشكو القوي إلى الضعيف لما تجد في حال الشكوى من الراحة، مع كونك تشتكي إلى غير مشتك، لأنه لا

(١) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٨٢).
(٣) سورة العلق، الآيتان (٦-٧).
(٤) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.
(٥) في المطبوع: كل.
(٦) في المطبوع: النّعم بالمنعم.
(٧) في المطبوع: شكوى الله.

يقدر على رفع[١] ما نزل بك إلا من أنزله، فقد علمت أن الدار دار بلاء لا يخلص فيها النعيم من البلاء وقتاً واحداً، وأقله طلب الشكر من المنعم بها عليك، وأيُّ تكليفٍ أشقُّ منه على النفس؟.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢] لجهلهم بالنِّعم أنها نِعَمٌ يجب الشكر عليها، ويؤيد ما قلنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٣] في حقّ راكب البحر إذا اشتدَّت[٤] الريح عليه، فبقدر ما[٥] فيها من النِّعمة يطلب منه الشكر، وبما فيها من الشدَّة والخوف يطلب منه الصبر، فافهم وتدبر كلام الله تعالى تجد فيه كلَّ ما يقرِّب إليه تعالى من جميع العلوم، فعامله بالأدب يخلع عليك العلوم، وإلا فكيف تطلب أن تدخل إلى حضرته وأنت لم تتأدَّب معه؟ فالزم الأدب يعطك فوق ما تأمل والسلام.

ومن شأن العبد: أن يرى جميع ما يأتي إليه على سبيل العبودية والذُّلِّ والخضوع من الطاعات؛ كلّه نقص وقلَّة أدب، قال الله تعالى [١٢/أ]: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٦] فيرى جميع طاعاته ناقصةً يستحقُّ عليها العقوبة لا[٧] عفو الله تعالى؛ ولو بلغ أعلى درجات كُمَّلِ الأولياء، وذلك بالنظر لجلال الله تعالى، ولذلك قال ﷺ: «**سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على**

(١) في المطبوع: دفع.
(٢) سورة سبأ، الآية (١٣).
(٣) سورة إبراهيم، الآية (٥).
(٤) في المطبوع: اشتدَّ.
(٥) في المطبوع: وبرد فيما.
(٦) سورة الأنعام، الآية (٩١).
(٧) في المطبوع: لولا.

نفسك» مع أنه قام حتى تورّمت قدماه[١]، وكان لا يضيع له وقت في غير عبادة؛ فصلى الله وسلم على مُعَلِّم الخير وسيِّد العبيد.

وقد قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: إن العبد ليسجد السّجدة وفيها من الخشوع والخضوع ما يظنُّ أنه بلغ به إلى أعلى عليّين، ولو قسمت ذنوبه في تلك السّجدة على جميع أهل الأرض لأهلكتهم أجمعين.

فانظروا أحوال العارفين ورؤيتهم التقصير في أعلى عبادتهم، واسلك سبيلهم، والله يتولّى هداك، وهو يتولّى الصّالحين.

ومن شأنه: أن يأخذ بالأحوط لدينه؛ ويخرج من خلاف الأئمة رضي الله عنهم ما استطاع؛ فلا يتهاون في فعل السنن الواجبة في غير مذهبه، ولا يرتكب المكروهات المحرّمة عند غيره فيعاملها معاملة الواجب والحرام، فيجتنب[٢] المكروهات كأنها حرام، ويفعل السنن كأنها [١٢/ب] واجبة، فيمسح رأسه جميعاً إن كان شافعياً، ويتطهر من نجاسة الكلب [بسبع إحداها بالتراب][٣] إن كان مالكياً بنية إزالة النجاسة لا التعبد، أو[٤] بهما قياماً بالأمر لحديث: «فاغسلوه سبعاً»[٥]، ويتوضأ من مسّ الفرج إن كان حنفيّاً، وغير ذلك مما لا يحصى، لأنّ من كانت عبادته صحيحة على جميع المذاهب أولى من كونها باطلة عند بعض المذاهب، هذا مذهب العارفين من أهل الله تعالى.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقومُ من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله! وقد غُفِرَ لك ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخر؟ قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٢) في المطبوع: فيتجنب.

(٣) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.

(٤) في المطبوع: و.

(٥) قال رسول الله ﷺ: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه، ثم ليغسله سبع مرار»، أخرجه مسلم (٦٤٩).

فاعلم أنَّ مرتبة المكروهات والمندوبات عندهم رضي الله عنهم كمرتبة الحرام والواجب في الاعتناء والتعظيم فقط لا في المشروعيَّة، فافهم، فإنَّ من بلغ هذا المبلغ لا يجهل عن الله تعالى مراتب أوامره ونواهيه، لأنهم أهل مجالسته، فلهذا يرون أنه ليس في مخالفة الله تعالى شيء جائز، ولا في امتثال أمره شيء غير واجب، فهم كالغافلين عمَّا اصطلح عليه العلماء من تسمية بعض الأوامر سنة وبعضها واجباً لقوة التعظيم عندهم، هكذا شأنهم في معاملتهم مع ربهم، فلذلك رفع قدرهم في الدنيا والآخرة، ولا يُتوهَّم من هذا أنهم يصيرون قائلين بمذهب الظَّاهرية، لأن ذلك منزع وهذا منزع؛ وقد ثبت الفرق بين رُتبتَي الفرض والتطوّع في حديث [١٣/أ]: «**هل عليَّ غيرها؟ قال: لا إلاَّ أن تطوّع**»، وحديث: «**لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(١). الحديث وغيرهما.

إذا علمت ذلك فينبغي لسالك طريق العارفين أن يتوب من ترك السنَّة كما يتوب من ترك الواجب، ويدل عليه قوله ﷺ: «**إنَّ الله فرض فرائض وفرضت فرائض**» الحديث، وقوله سبحانه وتعالى في حقِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾(٢) فافهم.

وهذا هو اللائق بالأدب مع الله تعالى ورسوله ﷺ، وكلما ازداد العبد معرفةً بالله تعالى عظَّم أمره ونهيه، وكلما بَعُدَ تهاون، ولذلك(٣) كان رسول الله ﷺ يقول: «**أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه**»(٤).

والعبد لا يجازى بتعظيمه لأمر الله تعالى إلا المحبَّة والقربى، ولا يجازى

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢).

(٢) سورة النجم، الآيتان (٣-٤).

(٣) في المطبوع: وقد.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١١٩).

بضد ذلك إلا المقت والبعد، وليس فهم الأنبياء عن الله تعالى كفهم الأولياء، ولا فهم الأولياء عنه تعالى كفهم آحاد الناس، لأنّ تعظيم كلّ أحد على قدر معرفته به، ولا ينبغي لأحدٍ أن يعترض على من جنح إلى أمرٍ فيه تعظيم الله تعالى، فإنّ في الاعتراض عليه قلّة أدب مع الله تعالى. وكيف يرجع إلى كلام المعترض مَنْ قلبه مملوءٌ بعظمة [١٣/ب] الله تعالى، وقد أخذ بمجامع قلبه. وإن وافق المعترض في الظّاهر لا يمكنه موافقته في الباطن، فافهمْ.

واعلم أنك كما تدين تدان، وكما يكون أمر الحقّ عندك كذلك تكون عنده، وروى الحاكم مرفوعاً: «من كان لا يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله يُنزِل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[١].

وبالجملة فمن نظر إلى ما الخلق فيه من المصائب والفتن والمحن الظّاهرة والباطنة؛ سهل عليه المناقشة فيما لا يفهمه، ووَكَّلَ علم ذلك إلى أهله، فلكل رجال مقام يذوقونه فيما بينهم، ومن فهم هذا توقّف عن الإنكار على غيره، لأنه سالك من طريقٍ غير طريقه، فلا يعترض الفقيه على النّحويّ، ولا المقرئ على الأصولي، ولا الفقيه على الصُّوفيّ، وبالعكس، لأن لكلّ فرقة اصطلاحاً فيما بينهم، وكلامنا في الاعتراض بالفهم من غير مستند شرعي، وإلا فلو رأينا الصُّوفي يتربع في الهواء؛ لا نعبأ به إلا إن امتثل أمر الله تعالى واجتنب نهيه، فالمحرمات[٢] الواردة في السنّة مخاطب بتركها كلُّ المكلفين؛ لا يخرج عن ذلك أحدٌ منهم، ومن ادّعى أنَّ بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف الشّرعية من غير ظهور أمارةٍ تصدّقه [١٤/أ] على دعواه فهو كاذب، كمن يشطح في شهود في حضرةٍ خياليةٍ على الله وعلى أهل الله، ولا يرفع

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٣٣٤).

(٢) في المطبوع: في المحرمات.

بالأحكام الشَّرعيَّة رأساً، ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده، فهذا مطرودٌ عن باب الحقّ مبعدٌ عن مقعد الصِّدق، وحرام على الفقيه وغيره أن يسلِّم لمثل هذا، وحرام على هذا أن يتكدر ممن نصحه؛ لأنه نصحه بما يعلم وبما بلغ إليه عقله، وحرام على الفقيه أن يتكدر من نُصح الولي؛ لأنه أعلى منه فَهْمَاً في أحكام الله تعالى، وقد نصحه فيما وصل إليه علمه، ولا يتوهّم أن عِلْمَ الأولياء وغوصهم في فهم الأحكام يتوقف على الآلات عند غيرهم كالنحو واللغة والمعاني ونحو ذلك، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لا تقييد عليه فيعطي من شاء ما شاء كيف شاء؛ فافهم.

واعلم أن جميع اعتراض الخلق على بعضهم سببٌ لترقّيهم وتنظفهم من رذائل الأخلاق، وهو رحمةٌ من الله تعالى ونعمة على عباده؛ لأنهم لم يزالوا بخيرٍ ما تناصحوا، وكلهم قاصدٌ بنصحه الخير لأخيه، لأنه يرى ما يدعوه إليه أنفَس وأفضل من غيره، وبالحقيقة الفقهاء هم الصُّوفية لو عملوا بما يعلمون، فإنَّ الأولياء إنما [١٤/ب] تميزوا عنهم بالعمل فأنتجهم ذلك قوة العلم والفهم عن الله تعالى دونهم ففارقوهم به، فلذلك وقع التنازع بينهم من المقصرين، فحكمهم مع الأولياء كحكم الرصاص في دائر شبكة الصَّيَّاد، والأولياء قانصون حبل الشبكة، فإذا جذبوا الحبل أنجر جميع الرصاص، فالقاصرون من باطنهم ولا عكس، فافهم.

وأمَّا العلماء العارفون بالله تعالى فهمْ مستصغرون علمهم وفهمهم ويعلمون أنَّ فوق فهمهم ومعرفتهم درجات، ولولا ما ذكرناه من تمايز الرتب لكان كل من صلّى وصام كأبي بكر رضي الله عنه مثلاً وفي درجته؛ لأنه فعل كفعله، ولكان العالم كلُّه لا تفاضل فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(١) فالأولياء تميزوا عن غيرهم بعلومٍ لا

(١) سورة المجادلة، الآية (١١).

يشاركهم فيها أحد، وقد ذكر شيخنا رضي الله عنه في تفسير سورة الفاتحة مائتي ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة وتسعة وتسعين علماً، وقد ذكرت غالبها في كتابنا: «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» فراجعه، فإذا علمت هذا فالتسليم أسلم.

وكنتُ كثيراً ما أسمع شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله [١٥/أ] يقول: الاعتقاد إن لم ينفع لم يضر، والفقيه إذا لم يكن له إلمام بطريق القوم وملاحظتهم واصطلاحهم ومؤاخذتهم فهو جاف. ا هـ.

واعلم أنَّ طريق القوم على وفق الكتاب والسنّة، فمن خالفهما خرج عن الصِّراط المستقيم، كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه، فلا تظن أنهم كانوا كحال غالب المنسوبين إلى التصوف في هذا الزمان فتسيء الظن بهم، إنما كانوا رضي الله عنهم عالمين بأسرار الشريعة صائمين قائمين زاهدين ورعين خائفين وجلين، كما يُعلم ذلك من تراجمهم وطبقاتهم؛ وإنما أنكر من أنكر على المتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين ست مراتب بالقوم[1]، فكلُّ قرنٍ بالنسبة لمن قبله يصحُّ عليه الإنكار إذا ادَّعى أنه على طريقة من كان قبله، لأنَّ الناس لم يزالوا راجعين القهقري، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[2] الحديث، وانظر قول أبي بكر الشبلي رضي الله عنه: قال لي أستاذي: انظر يا ولدي، إن خطر ببالك من الجمعة [١٥/ب] إلى الجمعة غير الله تعالى فلا تعد تأتنا، فإنه لا يجيء[3] منك أن تكون تلميذاً.

فإذا كان هذا حال تلميذهم فكيف حال شيخهم؟ فتأمل حال هذا التلميذ

---

(١) في المطبوع: ست مرات منهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣٥٩٤).

(٣) في المطبوع: يرجى.

وحال مشايخ الآن تعرف الفرق، وقد قال الحسن البصري[١] رضي الله عنه: ما رأيت أعبد من السري رحمه الله؛ أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علّة الموت، وكان رضي الله عنه يقول لنا: اجتهدوا قبل أن تصيروا عاجزين مثلي، وكنا إذ ذاك لا نقاوم اجتهاده ونحن شباب. فرضي الله عنهم أجمعين.

وبالجملة من تربّى على يد وليٍّ عارف بالله حقق باب العبوديّة وآدابها، وسيأتي في الخاتمة آخر الرّسالة إن شاء الله تعالى جملة من آدابها، والله يتولّى هداك؛ وهو يتولّى الصّالحين.

* * *

(١) لم ترد في المطبوع.

الباب الثاني
في طلب العلم النافع إن شاء الله تعالى

اعلم أن عمدة هذا الباب الإخلاص فيه لله تعالى، **ومن علامات الإخلاص**: أن لا يتكدر ممن ينسبه[١] إلى الجهل وعدم الفهم، ولا ممن قال فيه: إن فلاناً يتعلم العلم حجَّةً عليه، أو فلاناً لا يعمل بعلمه، وغير ذلك. فيتساوى عنده نسبته للجهل ونسبته للعلم على حدٍّ سواء، ومن علامات[٢] ذلك أيضاً أن لا [١٦/أ] يجد في نفسه حلاوةً لمَّا تكبر حلقة درسه ويعظم في أعين الخلق بذلك؛ فافهم.

ومن شأن طالب العلم: أن ينظف باطنه من الخصال المهلكة كالكبر والحرص ودعوى العلم ومحبَّة الدنيا، لأن أهل البر والمساعدة قد انقرضوا، فلا أقلَّ من رفع الهمَّة عن الطمع فيما بأيدي الخلق البخلاء، فمن طمع الآن في دنيا تصيبه من أجل علمه فقد طمع في غير مطمع، وباع دينه بلا شيء، ويا ليته كان بالدنيا فيكون في ذلك توهم فائدة في التوسعة على نفسه وعياله، على أنه يضرب عن العمل بالعلم صفحاً، فأحسن الناس الآن من كان محترفاً بما يعود عليه ثمرته في دنياه بعد أن يتعلم[٣] ما يجب عليه تعلُّمه وما علمه من العلم كفاية، وقد مرَّ إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه على حجرٍ مكتوب عليه قلِّبني تعتبر، قال: فقلبته فإذا هو مكتوب على باطنه: أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب عِلْمَ ما لم تَعْلَمْ؟ اهـ.

---

(١) في المطبوع: نسبه.

(٢) في المطبوع: علامة.

(٣) في المطبوع: يعلم.

واعلم أنه لا يمكن لطالب العلم العمل بالعلم وآدابه ويصير عليه الأنس والخير إلا إذا كان معتقداً في طائفة الفقراء مخالطاً لهم؛ فبذلك يثمر له العلم العمل، لأنهم ينبهونه على الدسائس المانعة للقلب عن قبول الخير، لأنَّ العلم قوة للنفس، وكلما كثر قويت وتكبَّرت وأبت عن الخير، وقد قال الشيخ عز الدِّين بن عبد السَّلام: ممَّا يدلّك على صحَّة مذهب الفقراء كثرة [١٦/ب] كراماتهم، وما رأينا أحداً من الفقهاء وقع على يديه كرامة إلا إن سلك منهاجهم، ومن لم يؤمن بكراماتهم حُرِم بركتهم، وقد شاهدنا كل من أنكر على الفقراء من غير دخول في طريقهم يصير على وجهه كآبة وعلامة على الطرد والمقت لا تخفى على ذي بصيرة؛ ولا ينفع الله تعالى بعلمه أحداً، بخلاف أهل الاعتقاد فيهم.

وقد كان الشيخ يحيى النووي رضي الله عنه يخرج إلى ظاهر دمشق لشيخه المراكشي رحمه الله، يعرض عليه بعض مسائل يقف في فهمها عند نقلها، فلو كان الفقراء لا يفهمون أسرار الشريعة أكثر من علماء الشريعة؛ لما راجع النووي - مع جلالته وقوة اعتقاده وصلاحه - شيخه المذكور في الأحكام، ولا يموت شيخ إلا ويخلفه شخص آخر على قدمه، لأن المراتب لا تنقص أربابها، والاعتقاد يجر الشخص إليهم وإلى معرفتهم، والانتقاد يضرب بينهم وبينه بسور.

فاعلم أن الفقراء ثابتون على قواعد الشريعة، وإنما أنكر ذلك القاصر من الفقهاء على القاصر من الفقراء؛ وأمَّا الكاملون في كل فريق فليس بينهم إنكار، لأنهم في طريقٍ واحد، فالفقيه القاصر لما يسمع القاصر من الفقراء يقول: ليس للعبد فعل لغلبة شهود ذلك عليه [١٧/أ]. يقول له الفقيه: أنت جبريٌّ مبتدع. أو يسمعه يقول: ليس للعبد ملك ينكر عليه. وهو مصيب في إنكاره، لأنَّ كلاًّ منهما قاصر عن تحقيق الأمر في ذلك، فافهم ذلك.

وقد قال اليافعي رضي الله عنه: مكثت نحو عشر سنين وأنا بين خاطرين: خاطرٌ يدعوني إلى طريق الفقهاء، وآخر يدعوني إلى طريق الفقراء، فاجتمعت بشخصٍ من أولياء اليمن، فكاشفني وعرف ما في قلبي، وقال رضي الله عنه: يا ولدي مبتدأ الفقير نهاية الفقيه، لأن مبتدأ الفقير الفقر من كل شيء، والإخلاص لله تعالى في جميع عباداته، ولا يطلب منه عوضاً على عباداته، وهذا نهاية الفقيه، ثم يترقى الفقير في درجاتِ القرب والمواهب، ثم قال: أحببت أَنْ أريك شيئاً من ثمرة العلم الذي تريده وثمرة الفقر، فأرسل إلى شخصٍ من أكابر العلماء أن يأتي، وأمر الجماعة أن لا يقوموا له ولا يفسحوا له، فجاء فلم يجد إلا موضع النِّعال ولم يلتفت أحد إليه؛ فتكدَّر وكاد أن يكفِّرهم، فقال له الشيخ: يا فقيه أجد في نفسي منك شيئاً، فقال: وأنا أيضاً في نفسي منكم شيئان، وقرن بين أصبعيه وولَّى ساخطاً يسبُّ الشيخ وجماعته، فقال: انظر ثمرة هذا العلم الذي تريده(١) [١٧/ب]، ثم أرسل إلى فقيرٍ من آحاد الفقراء، فجاء ووقف ولم يجد إلا كالأول، وسلَّم ولم يردّ عليه أحدٌ السَّلام سوى واحد، فضحك ووقف عند النعال وأدارها لهم، فقال له الشيخ: أنا في نفسي منك شيء، قال: يا سيدي أنا أقول أستغفر الله، وكشف رأسه، فقال: انظر ثمرة طريق الفقراء. قال: فلزمت طريق الفقراء إلى أن صرت كما تروني.

فتأمَّل يا أخي هذه الحكاية، واشتغل بما يثمر لك هذه الثمرة، واحذر أن تكون ممن يُكثر من جمع العلم بغير عمل، اعتماداً على الأحاديث الواردة في فضل العلم كقوله ﷺ: **«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»**(٢)، أو [قوله ﷺ:] **«العلماء ورثة الأنبياء»**(٣)، فقد قال ﷺ: **«من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً»**(٤).

---

(١) في المطبوع: تطلبه.

(٢) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٧٤٤): قال السيوطي في «الدرر المنثرة» (٢٩٣) لا أصل له.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٤٨).

(٤) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٣٩٧)، وعزاه للديلمي في «مسند الفردوس».

واعلم أنه ما فاز بالإرث للأنبياء عليهم السلام على الحقيقة إلا المحدّثون؛ الذين رووا الأحاديث بالسند المتصل إلى النبي ﷺ كما قال شيخنا، فلهم حظ في الرّسالة، لأنهم نَقَلة الوحي، وهم ورثة الأنبياء في التبليغ، والفقهاء بلا معرفة دليلهم ليس لهم هذه الدرجة، فلا يحشرون مع الرُسل، إنما يحشرون في عامّة الناس، فلا يطلق اسم العلماء حقيقةً إلا على أهل الحديث، وكذلك الزهّاد والعُبّاد وغيرهم من أهل الآخرة، إذا لم يكونوا من أهل [١٨/أ] الحديث حكمهم حكم الفقهاء الذين ليسوا من أهل الحديث، فيحشرون مع عموم الناس، ويتميزون عنهم بأعمالهم الصّالحة لا غير، كما أن الفقهاء يُميَّزون عن العامة في الدنيا لا غير.

إذا علمت ذلك؛ وقلّة جدوى علمك بلا عمل، ولا يتيسر لك عمل لعدم تنظيف باطنك؛ فاجتمع بمن يدلُّك على طريق الصَّواب، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[1]، وقد اجتمع الشيخ عبادة المالكي رضي الله عنه بسيدي الشيخ مدين رضي الله عنه فلم يعظّمه ولم يلتفت إليه، فقال: يا سيدي! ما منعك أن تعطيني حقي في الإكرام؟ فقال له: كيف وأنت مشرك؟ فقال: وما وجه إشراكي؟ قال: حالك الذي أنت فيه الآن، وطلبك التعظيم والخضوع لك، وليس ذلك إلا لله تعالى، فمن ينازع الله فيما يستحقُّه ويطلب أن يكون له مثله، كيف يُكرم؟ وإنما يستحقّ الإهانة والاحتقار. فسكت الشيخ عبادة ساعة ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، تبت إلى الله تعالى، وهذا أول[2] دخولي في الإسلام. يعني كماله. وصَدقَ رحمهُ الله، لأنَّ الإسلام هو الانقياد، وترك المنازعة لله تعالى [١٨/ب] في أوصافه وما يستحقُّه؛ وملازمة الأعمال الصَّالحة، ورؤية نفسه أنه أحقر

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٩).

(٢) في المطبوع: أوان.

خلق الله المؤمنين، فافهم، أرشدنا الله وإيّاك إلى الصِّراط المستقيم، فإنه بقدر استقامتك على الشَّريعة تكون استقامتك على الصِّراط سواء؛ وبقدر اعوجاجك عنها يكون اعوجاجك عليه، فاسأل الله الاستقامة، فإن بيده ملكوت كلِّ شيء.

ومن شأنه: أن لا ينشر علمه ليصدِّقه الناس؛ وإنما ينشره ليصدِّقه الله، وإن كانت لام العلّة موجودة؛ فعِلَّةٌ تكون بينه وبين الله تعالى من حيث أمره، خيرٌ من علَّةٍ تكون بينه وبين الناس من حيث نهاه، ولعلَّةٌ تردُّ العبد إلى الله خيرٌ من علَّةٍ تقطعه عن الله، فمن أجل ذلك عطف بالثواب والعقاب، إذ لا يرجو ولا يخاف إلا من قِبَلِ الله؛ وكفى بالله صادقاً ومصدِّقاً، وكفى بالله عالماً ومعلماً.

ومن شأنه: أن لا يجادل في العلم إلا بما هو قطعيّ، لأنَّ شرط المجادل عندهم أن يكون على يقينٍ مما يجادل به، وليس ذلك إلا للأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وأهل الكشف رضي الله عنهم، وأمَّا غيرهم فغاية أمره الظن أو الوهم [١٩/أ] لأنه بالاجتهاد، وفي المتيقَّن من أمور الشريعة الظاهرة كفايةٌ لمن وفَّقه الله، ولا يحتاج إلى مجادلة، لأنَّ القلوب حُجبت عن فهم أسرار الشَّريعة لعدم إصلاح الطعمة، ولأمرٍ يريدهِ الله تعالى.

واعلم أن من جادلك في أمرٍ وأكثرت عليه فيه ولم يرجع؛ فاعلم أنه مملوكٌ تحت سلطان الاسم القاهر له، فلا يرجع إلى كلامك حتى ينقضي زمان القهر، كما أنك أنت الآخر لا ترجع إلى ما عنده، لأنك تحت القهر كذلك، ومقام العبد يظهر من كلامه لا سيما إن صمَّم عليه، والظَّاهر عنوان الباطن، فكل من تكلَّم إنما تكلَّم عن ذوقه، وما هو غالب على باطنه فكِلْهُ إلى مشيئة الله تعالى فيما هو عندك باطل، واتبعه فيما هو حقٌّ فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يقتصر على التعلُّم دائماً بل يكون له عمل غير العلم من قيام الليل والصدقات بما تيسر، وترك الأذى لكل برٍّ وفاجر.

واعلم أنَّ المكر بالعبد أن يرزق العلم الذي يطلبه العمل ويحرم العمل به، أو يرزق العمل ويحرم الإخلاص. فإذا علم العبد هذا من نفسه أو من غيره؛ فليعلم أن المتصف به ممكورٌ به، فإذا [١٩/ب] علمت ذلك فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل فيما بينه وبين الله غير العلم؛ فإن العلم غالبه ظاهرٌ للناس، وكل ما ظهر للناس من علم أو عمل كان قليل الجدوى في الآخرة. اهـ.

ويدل لهذا تقسيمه رضي الله عنه الليل، وجعله أثلاثاً، وجعل منه ثلثاً للتهجد مع قوله: الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة، فافهم؛ فإنَّ لكلِّ وقت من ليلٍ أو نهار اشتغالاً بأمرٍ مناسب له، فالأفضل في الأسحار التهجد والاستغفار، وفي يوم الجمعة الصَّلاة على النبيّ ﷺ وتلاوة القرآن، وهكذا كما يشهده أهل القرب من الله تعالى فيجدون لكلِّ عبادة حلاوة في فعلها في الزمن المناسب لها، وأمَّا غيرهم فهم يخبطون خبط عشواء، فتارةً يصيبون وتارةً يخطؤون، ومثالهم عند اشتغالهم بخلاف الأولى مما لا ضرورة إليه؛ مثال من اشتغل عند طلوع روحه بالنحو واللغة، وغمه عدم معرفتها، وقد رُؤي الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: هيهات إن للعلم شروطاً وآفات، قلَّ من يتخلَّص منها، قيل: فغُفِرَ لك بماذا! فقال: [٢٠/أ] بتسبيحةٍ كنت أقولها بالغداة والعشيّ. وكذلك أئمة الطريق كالجنيد وغيره. . .

فاعلم ذلك.

ومن شأنه: أن يتأدَّب مع الله تعالى ولا يتكلم إلا فيما يعلم؛ فيؤمن بالمتشابه من كلام الله تعالى، ويقف على حدّ ما يعلِّمه الله منه، ولا يخوض

فيه من غير تحقيق، والعلم بالمحكم من كتاب الله تعالى كافٍ لمن يريد العمل، وأمّا المتشابه فإن كَشَفَ الله عن بصيرته رأى الأمر المراد منه على نزاع في ذلك أيضاً، وإلا فالأدب الوقوف عن الخوض والتأويل إلى ما يفهمه هو، وقد قال شيخنا رضي الله عنه: من أراد أن يُحفظ من تزين الباطل؛ فليقف عند ظاهر الكتاب والسنّة لا يزيد على الظّاهر، فإنّ التأويل قد يكون من التزين، فما أعطاه الظّاهر جرى به؛ وما تشابه عليه وكَلَ علمه إلى الله تعالى وآمن به، فهذا متّبعٌ ليس للتزيُّن عليه سبيل، ولا يقوم عليه حجّةٌ عند الله تعالى، فإن كان من أهل البصائر فهو يدعو إلى الله على بصيرة، ويتكلم عن بصيرة، فقد بُرِئ من التزين، فهو صاحب علمٍ صحيح، وكان من أهل الزينة لا من أهل التزين اهـ.

فعُلمَ أن وقوف العبد عن الخوض فيما لا يعلم [٢٠/ب] من الدين [ليس ذلك نقص بل كمال له؛ لأن قوله: لا أعلم فيما لا يعلم من الدين][1] هو الحق، وقد سئل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه عن آية فقال: لا أعلم، فكأنَّ السّائل استبعد ذلك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أيُّ سماءٍ تظلّني وأيُّ أرضٍ تقلّني إن قلت في كتاب الله ما لم يُرِدْه؟، فلا يحلُّ التكلم على معنى ذلك إلا لمن يَصْدُق عليه قوله تعالى في حقّه في الحديث القدسيّ: «فبي يسمع وبي يُبصر وبي ينطق»، الحديث، فيكِلُ العبد ما لا يعلم إلى العالِم به، ولا يتطلبه[2] بالفهم فيفوته حظ الإقبال على الله تعالى، ويسيء الأدب، ويتعرض للمقت ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[3].

(١) ما بين معقوفتين لم يرد في المخطوط.

(٢) في المطبوع: يطلبه.

(٣) سورة الزمر، الآية (٤٧).

وهكذا كان إيمان السَّلف رضي الله عنهم أجمعين، فإنهم سلَّموا بنور الإيمان عِلْمَ ذلك إلى الله تعالى، مع الإيمان والتحقيق لما تعطيه تلك العبارات من المعاني بالتواطؤ عليها في ذلك اللسان المبعوث فيه هذا الرسول ﷺ، فالتسليم من كل قاصر عن درجة الكشف واليقين أولى من التأويل، لأنَّ غالب النَّاس ليسوا من أهل الفهم عن الله تعالى، لجهلهم وبعدهم بحظوظ أنفسهم عن فهم معاني(١) كلام [٢١/أ] ربهم، وقد وبَّخ الله تعالى من هذا حاله فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٢) فمن أراد الوقوف على فهم معاني كلام الله تعالى فليعمل بما شرعه الله له من التقوى والعمل كما كان الأئمة رضي الله عنهم، فإنه يفتح له باب العرفان بها، لأنَّ الحقَّ حينئذ يتولَّى تعليمه إيَّاها لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(٣)، ومن كان الله معلِّمه فَهِمَ كلَّ شيءٍ له طريق إليه، ويصير الكلُّ في حقه لا عُجمة فيه.

واعلم أنَّ كلَّ من عرَّفه الله تعالى تأويل المتشابه؛ لا يخلص له إلا المحكم بما عرفه، فلم يزل عن المحكم عليه المتشابه، لأنَّ غاية العالِم الذي علم التأويل أن يعلم تأويله بالوجه الواحد لا بالوجهين، لأنه صالح للطرفين، فالمحكم محكم لا يزول، والمتشابه متشابه لا يزول. وإنَّما قلنا ذلك لئلاً يُتخيَّل أنَّ عِلْمَ العالم بما يؤول إليه ذلك اللفظ في حقِّ كلِّ من له فيه حكم؛ يخرجه عن كونه متشابهاً، ليس الأمر كذلك، بل هو متشابه على أصله مع العلم بما يؤول إليه في حقِّ كلِّ من له نصيب فيه.

ولنذكر بعض ما يُخاض فيه في الغالب بغير علم، فمن ذلك التكلم على

---

(١) لم ترد في المطبوع.

(٢) سورة آل عمران، الآية (٧).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

الحروف [٢١/ب] أوائل السور، والتكلم على نزول ربنا إلى سماء الدنيا ومجيئه والملك صفّاً صفّاً، وإتيانه في ظُللٍ من الغمام، ومعنى الاستواء على العرش، ومعنى القدم والوجه واليد والجنب، والتقرب بالذراع والباع والهرولة؛ وكون قلب عبده المؤمن يسعه، وكون يداه مبسوطتين، ومعنى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(١)، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾(٢)، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، و﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتُ بِيَمِينِهِ﴾(٣) وكلتا يدي ربنا يمين مباركة، والمعية، والضحك، والفرح، والتعجُّب والتبشيش، والبصر، والعلم، والكلام، والحد، والمقدار، والرضا، والغضب، وغير ذلك، فهذه كلها وأمثالها أخبار عن الذات، أخبر الله تعالى بها عن نفسه، والأدلَّة العقلية تحيل ذلك، فإن كان السَّامع صاحب النظر العقليّ مؤمناً؛ تكلَّف التأويل في ذلك لوقوفه مع عقله، وإن كان السَّامع منوَّر القلب بالإيمان؛ آمن بذلك على عِلْمِ الله فيه، مع معقول المعنى الوارد في المتلفَّظ به من يد وأصبع وعين وغير ذلك.

ولكن يجهل النسبة إلى أن يكشف الله تعالى عن بصيرته ويدرك المراد من تلك العبارة كشفاً، فإن الله ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه، أي بما تواطؤوا عليه من التعبير عن المعاني التي يريد المتكلم أن يوصل [٢٢/أ] مراده فيما يريد منها إلى السَّامع، فالمعنى لا يتغير البَتَّة عن دلالة ذلك اللفظ عليه، وإن جهل كيف ينسب فلا يقدح ذلك في المعقول من معنى تلك العبارة، ثم جاءنا الشَّرع بأنه تعالى موصوف بكذا وكذا فقبلناه يقيناً، وعلمنا معناه بالتواطؤ، وعرف اللسان بأيّ لسان جاءنا فأضاف تعالى المعاني إلى نفسه

---

(١) سورة ص، الآية (٧٥).

(٢) سورة القمر، الآية (١٤).

(٣) سورة الزمر، الآية (٦٧).

وذاته وأنه عليها من يدين وأصبعين ويمين وغير ذلك مما سبق بعضه، ووصف نفسه به، ووصف نفسه [بالرضا والغضب لأسباب حادثة من العبيد المكلفين فعلوها أغضبوا بها ربهم، فقبل الغضب ووصف نفسه](١) بأنَّ العبد إذا تصدَّق مثلاً يطفىء بصدقته غضب الله عليه، وهذا كله معقول المعنى مجهول النسبة إلى الله تعالى، يجب الإيمان به على كلِّ إنسان خوطب أو كلف به من عند الله، وهذا كله خارج عن الدلالة العقلية؛ إلا أن يتأول، فحينئذٍ يقبله العقل، فقبوله بالإيمان أولى؛ لأنه حُكْمٌ حَكَمَ به الحقُّ تعالى بأمر على نفسه أنه كذا مع أنه ليس كمثله شيء، فنفى عنا العلم بوجه النسبة إليه على وجه الإحاطة، فقبولنا العلم بذلك عن نفسه [وحكمه سبحانه [٢٢/ ب] بأمر على نفسه](٢) أولى بنا أن نقبله منه من حُكْم حَكَمَ به مخلوق - وهو العقل - عليه، فمن قدَّم ما حَكَمَ به العقل على ما حَكَمَ به الله على نفسه فهو في عمىً شديد، فتأمَّل هذا المحلَّ فإنك لا تجده في كتاب، وقد ذكرنا جملةً مما علمه خاص بقدم الولاية في كتابنا «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» فراجعه.

ومن شأنه: أن لا يخوض في التكلم على معنى معاصي الأنبياء، لا سيما صورة معصية أبي المرسلين آدم؛ على المرسلين وعلى نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، لأنَّ الخوض في ذلك خاصٌّ بكُمَّل الورثة من الأولياء، لأنَّ الوارث له إلمام بمقام مورثه علماً، وإن لم يتلبس به ذوقاً، لأنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم مؤاخذات بحسب مقامهم، لا يذوقها غيرهم وغير ورثتهم، واعتقادنا التعظيم لهم والتفخيم لشأنهم كفاية، فنحملهم على أكمل الأحوال صلى الله عليهم وسلم.

---

(١) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.

(٢) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.

ولا يقال المنع من الخوض في مثل هذا نقص يصير به القرآن أعجمياً، كالخطاب بما لا نفهم، لأنّا نقول: قال الله تعالى ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) وليس أهله [٢٣/أ] إلا الأولياء والعلماء الرّاسخون، ونحن مأمورون باتباعهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء، وأمناء الله تعالى على أسراره، فإذا قالوا شيئاً وجب علينا اتباعه.

فاعلم أوّلاً بأنّا نقول إنَّ ما فعله(٢) آدم عليه السلام كان بقضاءٍ وقدرٍ لا مرد له، وأيضاً فلم يقصد عليه السّلام بأكله من الشجرة انتهاك الحرمة؛ إنما كان ذلك بتأويل صحيح قصدَ فيه وجه الحقّ حالة الأكل، وهذا يقع لبعض العارفين من الأولياء، فكيف بآدم عليه السّلام، فإذا علمت ذلك؛ فمن عصى بالتأويل فليس بِعَاصٍ في حال وقوع الفعل منه لشبهة التأويل، وأمّا بعد وقوع الفعل؛ فيستحقُّ الفاعل أنه عصى عند نفسه، ويحكم عليه لسان الظاهر بذلك، فهو كالمجتهد في زمان فتواه بأمر ما؛ اعتقاداً منه أنَّ ذلك عين الحكم المشروع في المسألة، وفي ثاني الحال يظهر له بالدليل أنه أخطأ، فيكون لسان الظاهر بذلك يحكم عليه أنه مخطئ في زمان الدليل لا قبل ذلك، فافهم.

وقد قال سيدي أبو مدين شعيب القطب الرباني شيخ العرب [٢٣/ب] رضي الله عنه: لو علم آدم حين أكلِهِ من الشجرة أنه ينزل إلى الأرض ويخرج من صلبه جملة الأنبياء والمرسلين؛ لأكل الشجرة جميعها، لما وجد عليها من البركة، فكانت معصية آدم في غيب الله تعالى من عين المِنَّة عليه، فكان ظاهرها في ظاهر الأمر معصية وباطنها رحمةً. اهـ.

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٣).

(٢) في المطبوع: فعل.

أي في حقِّ أهل السَّعادة، وأما أهل الشقاوة؛ فكما لا يعبأ الله تعالى بهم كذلك لا نعبأ بهم.

وسمعت شيخنا أيضاً رضي الله عنه يقرر في ذلك تقريراً حسناً؛ فأحببت أن أذكره لأنَّ فيه تعظيماً لآدم عليه السَّلام، وإن كان فيه دقَّة وغموض على أكثر الأفهام، إذ هو خاص بالمحققين من العارفين، لأنه من إشارات الأسرار، فقال رضي الله عنه: تعليم الحقِّ لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام الأسماء؛ اقتضى الإشارة إلى أكله من الشجرة، ولو لم يأكل منها لعصى الإرادة السَّابقة، على أنه لا يمكن عصيانها، فالعبد مطيع للإرادة في جميع ما يفعلُهُ، وإن عصى فإنما يعصي الأمر فقط، إذ لا تتحرك ذَرَّةٌ إلا بإرادته، ولأنَّ مسمَّيات تلك الأسماء التي من جملتها القصعة والقصيعة، والفسوة والفسية، والقدوم والطاحون والمحراث، وغيرها من جميع الآلات كلها كونيَّات لا تقبل شيئاً من المحل الذي كان فيه، وعَلِمَ عليه الصَّلاة والسَّلام [٢٤/أ] أنَّ المطلوب منه استعمال تلك الأسماء ومسمياتها؛ فبقي مترقِّباً لنزوله إلى المحل الذي فيه كمال مُلكه ومحلُّ خلافته لينفذ أمر مستخلفه تعالى على ما استخلفه عليه بما سيظهر عنه من هذا النوع الإنساني، وكان قد عَلِمَ أنَّ سجود الملائكة إنما كان تكفيراً لهم بما قالوه في حقِّه، حيث نسبوه وذُرِّيَّتَهُ إلى الفساد وسفك الدماء، وعَلِمَ أيضاً أنَّ المراد منه إنما هو القيام بالعبوديَّة، وما تقتضيه حقيقة الربوبيَّة، والعبوديَّة تذلُّل وخضوع، ولا يكون ذلك إلا في السُّفليات، وعَلِمَ أيضاً باطلاعه في اللوح المحفوظ أنه لا بدَّ من إظهار خَلْقٍ منه على هيئته؛ كما أراه الحقُّ ذلك في عالم الذرِّ حين استخرجهم منه لأخذ الميثاق الأول، ومن هناك علم برتبة النبيِّ ﷺ، وبداود الذي سيَرِثُ هذه الخلافة؛ مع زيادة أخرى أعمَّ حكماً وتصريفاً، وأكرمه بما وهبه من عمره ليتمم ملكه به، فلما تعارضت هذه الحقائق عنده عليه الصَّلاة والسَّلام، كان لسان حاله مشيراً إلى أنه علم أنَّ

الشجرة المنهيّ عنها مذكورة له بالأمر بالنزول إلى محل العبوديّة والافتقار، فإنه لو لم يُعلمه الحقُّ سبحانه وتعالى بتلك الشجرة لما أكل منها قطعاً، وإنما أكل منها لعلمه بأن النهي [٢٤/ب] عن الأكل فيه أمرٌ بالأكل، فكأن الحقَّ سبحانه وتعالى قال له: إن أكلت من هذه الشجرة أنزلتك إلى دار خلافتك، وهو يعلم يقيناً من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١) أنه لا بدَّ أن يخرج من الجنة إلى الأرض، فلذلك استعجل واعتمد حين نزوله على السبب التي هي نفسه، وطلب بذلك المدح من ربه؛ حيث إنه بادر إلى المطلوب، فعوقب بالذم بدلاً عن المدح، وأخبر الحقُّ تعالى عنه بأنه كان ظلوماً لنفسه، جهولاً باختياره مع ربِّه، وباتكاله على السبب دون أن يتولى الحقُّ ذلك بنفسه والسلام على أنَّ آدم لم يقع منه الأكل إلا وهو ناسٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾(٢). انتهى كلام شيخنا رضي الله عنه.

وقال القطب الرباني سيِّدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ما أنزل الله السيد آدم عليه الصَّلاة والسَّلام إلى الأرض إلا ليكمله، لأنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا يُنقلون من حالة إلاَّ لأكمل منها لدوام ترقِّيهم، فتارةً يكون الترقِّي بالتقريب والتخصيص؛ وتارةً يكون بالذلِّ والمسكنة، وهذه في التحقيق أتمُّ؛ لأنها وصف العبيد، فحصل لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام بذلك عبوديتان: عبوديَّة التعريف السَّابق وعبوديَّة التكليف اللاحق، فعظُمَتْ بذلك منَّةُ الله عليه. اهـ.

فافهم ذلك واحذر من الإنكار فإنه المهلك [٢٥/أ]، ووباله يرجع عليك، فكانت مبادرة آدم عليه الصَّلاة والسَّلام للأكل من الشجرة لتحصيل ما سبق في

---

(١) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٢) سورة طه، الآية (١١٥).

عِلْم الله تعالى، وعُوقب على ذلك قبل الإذن الصَّريح له بذلك؛ والحكمة الإلهية لا تقتضي ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1] ولم تزل لله الحجَّة البالغة على خلقه ليظهر كماله وفضله، ولأنَّ رتبة العبد دائماً تحت القهر، ولذلك قال عليه الصَّلاة والسَّلام مع علمه بأنَّ ما وقع منه بقضاءٍ مُبرم ولا مردَّ له: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]، ولو لم ينسب الحقُّ تعالى للعبيد مخالفة ومعصية لم تظهر له حجَّة عليهم.

وتأمَّل حال إبليس ونقصه في مجادلته الحقَّ وقوله: كيف تأمرني بالسجود ولم ترده مني، فلو أردته لي لوقع، فطُرِدَ ومُقِت ولُعِنَ لقلَّة أدبه، فافهم ذلك.

وكذلك لا ينبغي الخوض في قصة يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام، فمعنى الآية في حقِّه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾[3] لتقهره على ما تريده منه، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[4] ليقهرها بالدفع عنه، فالاشتراك في طلب القهر منها ومنه، ودليلُ ذلك قولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[5] وما جاء في السورة قط أنه راودها عن نفسها، وقد أشبع [٢٥/ب] الكلام في ذلك الشيخ فخر الدِّين الرَّازي في تفسيره فراجعه.

وقد اجتمع بعض العارفين رضي الله عنه بيوسف عليه الصَّلاة والسَّلام من طريق الكشف وأخبره بهذا التأويل، فقال: صدقت؛ هو مراد الله تعالى من الآية.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٢٣).

(٣) سورة يوسف، الآية (٢٤).

(٤) سورة يوسف، الآية (٢٤).

(٥) سورة يوسف، الآية (٥١).

واعلم أنَّ ما جاء عن الأولياء من طريق الكشف بما فيه تعظيم لله وأدب معه ومع رسله نؤمن به ونتبعه، لأنَّ التعريف باق لهذه الأمَّة لا التشريع.

واعلم أنَّ الأحكام الشرعيَّة لا تثبت بالكشف لعزتها؛ ولأنه لو فُتِحَ هذا الباب تخالفت الأحكام وفسد نظام الشريعة لكثرة المدَّعين.

إذا علمت هذا فمثل هؤلاء العارفين هم الذين يفهمون كلام الله تعالى، لأنهم إذا شكُّوا في نقلٍ عَدَلوا إلى الكشف الصحيح الذي لا يناقض الكتاب والسنة، لأنَّ ما يفتح الله تعالى به عليهم لا يعبئون به إلا إن وافق الشَّرع، وإلا رموا به، لأنه جهل، والجهل عدم.

واعلم أنَّ الولي لا يأمر أبداً بعلم فيه تشريع ناسخ لشرع نبيه، ولكن قد يُلهم لترتيب صورةٍ لا عينَ لها في الشَّرع من حيث مجموعها؛ وإن كانت من حيث النظر إلى كلِّ جزءٍ منها أمراً مشروعاً، فهو تركيب أمورٍ مشروعة أضاف بعضها إلى بعض هذا [٢٦/أ] الولي، أو أضيفت له بطريق الإلقاء، فظهر بصورة ولم تظهر في الشرع بجمعيتها، فما خرج بهذا الفعل عن الشرع المكلَّف به، لأنَّ الشَّارع قد شرع له أن يشرع في مثل هذا بقوله ﷺ: «**من سنَّ سُنةً حسنة...**»[١] الحديث، فقد بيَّنَ له أن يسنّ؛ ولكن فيما لا يخالف شرعاً مشروعاً، هذا حظُّ الأولياء من الأنبياء؛ فافهم.

ومن ذلك ما يتعلق بالسيد إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام وأنه كذب، وكذلك قصة لوط، وسليمان، وغير ذلك مما الأنبياء مبرؤون منه ومنزهون عنه وعما يفهمه القاصرون من أحوالهم، ولسنا بصدد تقرير جميع ذلك فإنه يطول، وإنما نبَّهناك بما ذكرناه على ما تركناه، والله يتولَّى هداك وهو يتولَّى الصَّالحين.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «من سَنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها؛ وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». أخرجه مسلم (١٠١٧).

ومن شأنه: أنه ما دام مقلِّداً للشارع أو المجتهد؛ لا ينبغي له أن يسأل عن علّةٍ في الحكم، ولا عن فرقٍ بينه وبين حُكم آخر، لأنَّ العِلمَ بلغ نهايته في تولُّد المسائل من أزمان متعددة، وغاية أهل هذا الزمان فهم ما قاله المتقدِّمون؛ لا سيِّما والقلوب مشغولة بالبلاء النازل والدِّين المائل، فافهم ذلك.

واعلم أنَّ كلَّ عمل لم يُظهر له الشَّارع تعليلاً من جهته فهو [٢٦/ب] تعبُّدٌ محضٌ، والعبادة بلا معرفةِ علَّة أظهر من العبادة مع معرفتها، لأنَّ العمل إذا عُلِّل ربما يكون الباعث للعبد على العمل حكمة تلك العِلَّة، فإذا لم يُعلَّل كان الباعث عليه العبادة المحضة، ولأنَّ البحث عن علل الأحكام وفروقها ليس من شأن العبد، لأنه إنما كُلِّفَ بفعل المأمورات وترك المنهيات؛ لا بمعرفة عللها وفروقها، وكلُّ من سأله إنما سأله عن المنقول في المسألة عن حكمها فقط، لأنَّ معرفة العلل ليست بشرطٍ في العمل، ولأنَّ بحث العبد عن ذلك يُضيع عليه الزمن بغير فائدة؛ ولا يرجع بعد البحث الطويل إلا لكلام من هو مقلِّد له من الأئمة، لأنَّه لا يتجرأ على العمل بخلاف المنقول، ويرى بطلان عبادته وغيرها إذا خالفه.

فمن فهم هذا استراح من استشكال حكم بآخر، وصار فقهه كلّه بلا إشكال، وأمره محمول على من هو مقلِّده، وقد قربتُ لك الطريق إلى تحصيل هذا العلم الذي أنت مشغوف به، والزمان لا يحمل أكثر من ذلك كما هو مُشاهَد، ولا يكابر في ذلك إلا أعمى القلب، لأنه مكابرةٌ في المحسوس.

ومن شأنه: أن لا يكون عنده كِبْرٌ [٢٧/أ] ولا دعوى بعلمه ووسع اطلاعه، وليعلم أنَّه كلما ازداد علمه كثر حسابه وتوبيخه في الآخرة، مع أنَّ العلم الذي يتكبر به ليس هو علمه؛ لأنه ناقل له عن غيره فقط، وإنما عِلْمُ الرجل ما لم يُسبق إليه، بل قال شيخنا رضي الله عنه: إنَّ كلَّ من كان علمه

مستفاداً من النقل فليس بعالم، بل يقال: إنه مصاحب صاحب علم، لأنّ معنى العلم قائم بالحرف، والحرف مصاحب للكتاب.

وقال أيضاً رضي الله عنه: كلُّ عِلْمٍ يقبل صاحبه الشبهة فليس بعلم؛ فلا يقال فيه علم إلا ما كان عن ذوق.

إذا علمت ذلك فأنت بعيد عن درجة العلماء العارفين؛ فكيف تتوهم أنك منهم وفي درجتهم؛ وإنما أنت تنقل: قال فلان، أفتى فلان، مع أنّ هذا العلم لا ينزل معك البرزخ منه شيءٌ، إنما هو من أحكام الدنيا؛ لأن الآخرة ليس فيها شيء من هذه الأحكام، وشرط العلم أن لا يفارق صاحبه دنيا والعقبى، وليس ذلك إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والأدب معه ومع مصنوعاته.

وانظر حالك عند النزع؛ هل يصير عندك ميل إلى سماع أبواب البيوع والأقارير والدَّعاوى وغيرها فضلاً عن أن تشتغل بها؛ وإنما ذلك - والله - لعلمك بما أنت قادم عليه، وانكشاف الأمر لك بما ينفع في الآخرة [٢٧/ ب]، ولو قال لك حينئذ شخص: قال رسول الله ﷺ: «ما عُبِدَ الله بشيءٍ أفضل من فقهٍ في الدين»[١]، لا تلتفت إليه حينئذٍ وتقول له: أنت قلبك فارغ.

فحال أهل الحقّ طول عمرهم كحالك عند طلوع روحك، فكما لا تشتغل أنت حينئذٍ بالنحو واللغة والتصريف؛ كذلك هُمْ، لأنَّ الأمر مكشوف لهم دائماً فلا يصرفوا العمر إلا في أنفسِ الأمور رضي الله عنهم.

واعلم أن ما بأيدي الخلق من العلوم لا يجيء قطرة من بحر علومهم، كما يُعلمُ ذلك من كتابنا «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء»، وقد كنت أظن قبل أن أذوق ذلك أنَّ العلم هو علم الظَّاهر والنقل؛ إلى أن فتح الله لي ببعض علومٍ من معاني القرآن والحديث، فقدَّرت ما ظهر للناس كقطرةٍ من

(١) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٩٤٠) وعزاه للبيهقي في «الشعب» (٢/ ٣٦٦).

البحر المحيط، فلله الحمد ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١] وإليه الإشارة بقول الإمام علي رضي الله عنه: أقدر أن أستخرج وقر بعير من العلوم من معنى الباء، فافهم.

ومن شأنه وأدبه مع الله تعالى: أنه إذا قرأ كلاماً قرآناً أو حديثاً أو غيرهما؛ ولم يعطه الله فهمه في حال قراءته؛ أن يُعرض عنه إلى غيره، ولا يقف يتفكر بالفكر؛ لأن المحل مشغول فيحتاج إلى التنظيف [٢٨/أ]، فإنَّ القلب إذا كان خالياً من الأدناس لا يتوقف في فهم شيء، وقد كنت في حالة اشتغالي بالعلوم الفقهية أقف في بعض الأحكام وعللها وفروقها، وكنت أسأل عنها شخصاً أميّاً لا يعرف الألف من الباء، يعمل بالفاعل، فيُجيبني بأجوبةٍ حسنة تزيل الإشكال، وربما ذكرتها لشيخنا الشيخ زكريا رحمه الله، فاستحسنها وأمر بإلحاقها في كتبه، لا سيّما شرح البخاري.

فاعلم أن الأميَّ الذي لم يتقدم له اشتغالٌ بعِلْمِ الظَّاهر والنقل؛ أقرب إلى الفتح من الفقيه والمتكلِّم اللذين لا يعملان بعلمهما، وسبب ذلك كما قال شيخنا رضي الله عنه: إنه لما كان لا فاعل إلا الله، وجاء هذا الفقيه والمتكلِّم ليدخلا إلى الحضرة الإلهية بميزانهما ليزنا على الله ردًّا، وما عرفا أنه تعالى ما أعطاهما تلك الموازين إلا ليزنا بها لله لا على الله، فحُرِما الأدب، فعوقبا بالجهل بالعلم اللدني الفتحيّ، فلم يكونا على بصيرةٍ من أمرهما، فإن كان من وقع له ذلك وافر العقل؛ علم من أين أتي عليه، فمنهم من دخل إلى الحضرة وترك ميزانه على الباب، حتى إذا خرج أخذه ليزن به لله تعالى، وهذا أحسن حالاً ممن دخل به [٢٨/ب] على الله، وأحسن منه من كسر ميزانه وأحرقه أو ذوّبه حتى زال كونه ميزاناً.

وقد قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: لمّا أردت أن أترك علم النقل

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٥).

وأسلك طريق القوم خلوت بنفسي، وتجردت عن نظري وفكري، ومكثت أشتغل بالذكر أربعين يوماً، فقلت: إني حصل لي شيءٌ مما حصل للقوم، فنظرت فإذا فيه قوة فقهية مما كنت عليه قبل ذلك، فعدت مرّة ثمّ مرّة والحال الحال ولم أذق شيئاً من أحوال القوم، فعلمت حينئذٍ أنّ الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصَّفاء الأول والطهارة الأولى، وأنّ الرطب المعمول ليس كالجني. انتهى.

واعلم أنَّ الله تعالى لو أراد للعبد العمل لفهمه العِلمَ الذي توقَّف في فهمه؛ لأنَّ العِلمَ بالشيء دائماً متقدِّم على العمل به، وإلا فكيف يعمل بما لم يعلم؟ وليس مراد الله منه الفهم والإحاطة بمعاني الكلام فقط؛ إنما المراد العمل وتنظيف محل نظره منه فافهم.

ومن شأنه: إذا استفتى على شخص من الفقراء في أمور لا تُدرك إلا بالذوق؛ أن لا يبادر إلى الإنكار، بل يتحيل في الرَّدِّ عنه ما أمكن، هكذا كان شأن شيخ الإسلام زكريا والشيخ عبد الرحيم الأبناسي رضي الله عنهما، فإن رأى أن ذلك الأمر يلزم [٢٩/أ] منه فساد لظاهر الشريعة أفتى ولامَ عليه، لأنَّ صاحب هذا الكلام ناقص فليس من أهل الاقتداء، ونصرة الشرع أولى من الأدب معه، بخلاف كُمَّلِ الأولياء؛ كأبي يزيد البسطامي وعبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما وأضرابهما، فيؤوّل كلامهم ما أمكن، وقد قال أبو يزيد رضي الله عنه: (سبحان الله) فناداه الحقُّ سبحانه في سرّه: (هل فيَّ نقص تنزّهني عنه؟) فقال: (لا يا رب)، فقال الحق: (نزّه نفسك) فاشتغلَ بتنظيف باطنه حتى لم يبق فيه شيء مما يكرهه الحقُّ، فقال حين ذاك: (سبحاني)، والعجب ممن يؤوّل كلام الحقّ مع كماله؛ ولا يؤول كلام البشر مع نقصه وعجزه، فافهم ذلك.

ومن شأنه: ترك التعصب لإمامه إذا عَلِمَ ضعف دليله، وعَلِمَ صحّة دليل

مذهب الغير، لأنَّ إمامه لم يقل له قلّدني في كلّ ما قلته، لعلمه بعدم العصمة من الخطأ، وقد قال الإمام مالك إمام دار الهجرة رضي الله عنه: كل أحدٍ مأخوذ من قوله ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ.

وكذلك الإمام الشافعي نهى عن تقليده وتقليد غيره؛ كما صرَّح بذلك المزني أول مختصره، والحقُّ أحقُّ أن يُتّبع، وقد قال بعض الحنفية رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾(١)، أنَّ الحقَّ مع الشافعي رضي الله عنه لقوله [٢٩/ب] منه ومذهبه: يصحّ التيمم من على صخر ليس عليه غبار. فرحم الله تعالى هذه الأمة ما أشدَّ اعتناءَها بالدِّين وضبطه.

ومن كلام الشافعي رضي الله عنه: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي. وفي موضع آخر إذا رأيتم كلامي مخالفاً للسنة فاعملوا بها؛ واضربوا بكلامي هذا الحائط.

ففي الحقيقة ليس مذهب الشافعي بمذهب؛ إنما هو شريعة محضة، وكل دليل صحَّ في مذهب غيره ولم يكن صحَّ عنده فهو مذهبه، عملاً بقوله: فمن نِعَمِ الله تعالى على طالب العلم؛ كونه متبعاً للحديث في كلِّ فعل.

ورُوِي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: حرامٌ عليكم أن تُفْتُوا بكلامي ولم تعرفوا دليلي.

فاعلم أنَّ المتعصب لإمامه في نحو ذلك مخالف لإمامه، وليس في عنق إمامه منه شيء، ولأنه ليس كلُّ ما يفهمه المقلّد من كلام المجتهد يكون مراداً قطعياً، ولهذا اختلفت الطرق في فهم كلام المجتهدين، وكلُّ من ترك الدليل والقواعد أخطأ، ولذلك لا يزال يخطِّئ بعض المقلّدين بعضاً، ولو صحَّ دليلهم ما وسعهم أن يخطئوا فاحذر من التعصب.

واعلم أن جميع مذاهب المجتهدين كلها عند أهل الحقّ مذهب واحد لا

---

(١) سورة المائدة، الآية (٦).

يشهدون فيها تفرقة؛ لاتساع نظرهم، ولأنهم يشهدون [٣٠/أ] العين التي استمد منها المجتهدون كلها واحدة في شريعة واحدة، فهم كلهم داخلون في السياج، وقد ذقنا هذا والحمد لله، فلا يؤمر أهل الحقّ بالتقيد بمذهب معين من المذاهب المشهورة، لأنَّ جميع المذاهب من باطنهم، وهذا أمر يذوقه الفقراء؛ فيصير ذوقهم يعادل ذوق جميع المجتهدين من غير تحصيل آلات الاجتهاد، فهم يشهدون الأمر أوسع من أن يتقيَّدوا فيه بمذهب قائل ببعض ما عندهم من العلم، ويقول الجاهل بأمرهم: هؤلاء لا يتقيدون بمذهب، في معرض الذم لهم، وهو معذور، لأنهم لا يسعهم من الله أن ينزلوا إلى الأدنى مع قدرتهم على الأعلى، وإنَّ الشَّريعة الصحيحة هي السَّمحة، وهي التي ليس فيها مشقة ولا ضيق ولا حرج، فالعلماء الرَّاسخون يشهدون جميع الأقوال المذكورة في المذاهب كأنها في مذهب واحد، محمولة عندهم على أحوال، كأجوبته ﷺ المختلفة، والسؤال بعينه واحد، كما يعلم ذلك من تصفَّح السنة، وإليه الإشارة بخبر: «أمرتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»(١)، كما سيأتي قريباً، إذا علمت ذلك فلا يَظُنُّ المناقضة بين المذاهب إلا القاصر عن درجة العلماء العارفين بأسرار الشريعة رضي الله عنهم [٣٠/ب] أجمعين.

ومن شأنه: أن يحذر من التكلُّم على حصر مراد كل قائل من الشارع ﷺ والعلماء والأولياء، فإنَّ التكلم على حصر مراد الغير في معنى واحد غالبه خطأ قطعاً، إذ لا يتَّحِدُ اثنان في ذوقٍ واحد ومرتبة لوسع الطرق، لأنها بعدد أنفاس الخلائق، فكلُّ صاحب نفس له طريقٌ تخصُّه، فلا يصحُّ أن يقال: مراد القائل من هذا الكلام كذا فقط، وإنما الأدب أن يقال: الذي فهمته منه كذا، ولا يقطعُ؛ لأنه حصرٌ للحقّ في مذهبٍ واحد، وماذا بعد الحقّ إلا الضلال فمن لم يشهد أنَّ الشريعة واسعة تَسَعُ جميع المذاهب؛ لزمه أمرٌ شنيعٌ لا يمكنه

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦/ ٢٧٤).

الخروج عنه، وهو تخطئة بقية من خالفه من الأئمة المجتهدين، وسائرهم على هدىً من ربهم.

فاعلم أنه ليس فهم كلام المتكلم أن تعلم وجوه ما تضمنته تلك الكلمة بطريق الحصر بما تحتوي عليه مما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان؛ إنما الفهم أن يفهم ما قصده المتكلم بذلك الكلام؛ من قصد جميع الوجوه أو بعضها، فينبغي لك أن تفرّق بين الفهم للكلام والفهم عن المتكلّم؛ وهو المطلوب، فالفهم عن المتكلّم ما يعلمه إلا من أُنزل القرآن على قلبه، وأمَّا الفهم للكلام فهو للعامة، فكلُّ من فهم من العارفين [٣١/ أ] عن المتكلِّم فقد فهم الكلام، وما كلُّ من فهم الكلام فَهِمَ عن المتكلم ما أراد به على التعيين[١]، إما من كلِّ الوجوه أو من بعضها، فتأمَّل هذا التدقيق فإنك لا تجده في كتاب.

واعلم أنك عاجزٌ عن الإحاطة بفهم كلام جنسك من البشر، فكيف لا تعجز عن فهم كلام ربِّ العالمين؟ فلا ينبغي أن يفسِّر كلام الله تعالى إلا كُمَّلُ ورثة الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لكن الله تعالى من رحمته بخلقه غَفَرَ لهم ما أخطؤوا في تأويله إذا بذلوا الوسع ولم يخرجوا عن لسان الشَّارع، فإن لم يبذلوا الوسع فتفسيرهم ليس عن فهمٍ ولا عن عِلْمٍ، فافهم.

واعلم أن ما فهمه المجتهدون رضي الله عنهم من الكتاب والسنة؛ إنما كان لأنفسهم لا للخلق، أي: لأنَّ كلَّ مجتهد يوجب تقليد نفسه على كل فرد من أفراد العالم؛ بل من الأئمة المجتهدين من نهى عن تقليد نفسه، وأمر الناس بتحصيل رتبة النظر لأنفسهم؛ لأنَّ كلاً من المجتهدين فَهِمَ ما قَبِلَه استعداده، وكلُّ من فهم أمراً لزمه العمل بما فهم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢] فافهم ذلك.

---

(١) في المطبوع: اليقين.

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

ومن شأنه وأدبه: أن يُؤوِّل الأحاديث التي ظاهرها التعارض على وجوهٍ شتَّى صحيحة، ولا يرمي من الشريعة شيئاً ما أمكن، وهكذا فعل الإمام الشافعي رضي الله عنه [٣١/ب]، فليحذر من كونه لا يأخذ من الشَّريعة إلا ما وافق نظره، وما عدا ذلك يرمي به ويجعله خطاباً للعامة التي لا تفقهه، وليحذر من نفرة نفسه منه من قول غير إمامه، وليؤوِّله على أحسن الوجوه، ويرى الكلَّ على حقٍّ؛ لأن كلاً قال باجتهاده والحقُّ واسع، ونبيُّنا ﷺ كان دائم الترقِّي؛ فكل مجتهدٍ أخذ بما ثبت عنده من الأمر والنهي، ومن هنا تفرَّقت مذاهب المجتهدين، ولمَّا عَلِمَ ﷺ من نفسه الترقي في مقامات القرب؛ رَخَّصَ للمجتهدين بذلَ الوسع في استنباط الأحكام، وصوَّبهم تارةً لكمال استعدادهم، وخطَّأهم أخرى لنقص استعدادهم من حيثية أخرى، وأثبت لهم الأجر في الحالتين، فما أخطأ من أخطأ إلا لضعف الاستعداد؛ فلو كمل استعداده ما أخطأ مجتهد.

فَعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة بالقول بالنسخ عند التعارض بالرأي من غير تصريحٍ بنسخه من الرسول ﷺ، لأنه ربما يكون دليلاً لمذهب أحدٍ من الأئمة المجتهدين، فيقع العبد في قلَّة الأدب مع الأئمة رضي الله عنهم، ولأنه ﷺ كانت أجوبته بحسب السَّائلين، وكلامه بحسب الجالسين، فليس كلامه لأبي بكر رضي الله عنه مثلاً ككلامه [٣٢/آ] لأجلاف العرب، فلا يصحُّ طرد كلِّ قول في حقِّ كل فرد من أفراد الأمة، وهذا أمر معقول لقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**»(١)، ومن هذا القبيل قوله ﷺ للجارية: «**أين الله**»؟ فقالت: في السماء، فقال: «**مؤمنة بربِّ الكعبة**»(٢)، ولو سأل أكابر الصَّحابة لم يسألهم بالأينية، لعلمهم باستحالتها على الله تعالى.

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦/ ٢٧٤) بلفظ: أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» ورواه البخاري موقوفاً من قول علي بن أبي طالب (١/ ٥٩).

(٢) عن معاوية بن الحكم قال: كانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أحدٍ والجوانية، فاطلعت ذات =

واعلم أن كلامه ﷺ بالألفاظ التي فيها حصر لجناب الحقّ مأمور به؛ لأنه هو المبيِّن، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(١)، فلو سأل أحد غيره بالأينية لشهد الدليل العقلي بجهل القائل، فإنه تعالى لا أينية له، فلما قالها الرسول ﷺ وبانت حكمته وعلمه؛ علمنا أنَّ ليس في قوّة هذا المخاطب أن يعقل مُوجِدَه إلا بما تَصوَّره في نفسه، فلو خاطبه بغير ما تواطأ عليه وتصوّره في نفسه لارتفعت الحكمة المطلوبة ولم يحصل القبول، فمن حكمته أن سأل مثل هذا السؤال وبهذه العبارة، ولذلك لمّا أشارت إلى السماء قال فيها: «إنها مؤمنة»، أي: مصدِّقة بوجود الله تعالى، ولم يقل: عالمة، فافهم.

وكذلك لمَّا دخل ﷺ على أبي بكرٍ فرآه يصلّي وهو يقرأ بخفضِ صوت، فقال: «لِمَ لا ترفع [٣٢/ب] صوتك؟» فقال: يا رسول الله قد أسمعت ربيّ، فقال له: «ارفع قليلاً»، ودخل على عمر رضي الله عنه فرآه يجهر، فقال له: «لم لا تخفض صوتك؟» فقال: يا رسول الله أُوقِظُ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال: «اخفض قليلاً»، فعلَّمهما الأدب بإخراجهما عن مرادهما لمراده ﷺ، فمثلُ هذه الأمور في السنة كثيرة لمن يتصفَّحها، وبالجملة فمن لم يذق مذاق القوم؛ لا يفهم أسرار الشَّريعة، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(٢) والله أعلم.

ومن شأنه: أن يبدأ بالأهم من العلوم التي يحتاج إلى معرفتها ويسأل

= يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمنا، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكن صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّمَ ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها» فأتيته بها، فقال لها: «أين الله» قالت: في السماء، قال: «من أنا» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». أخرجه مسلم (٥٣٧).

(١) سورة إبراهيم، الآية (٤).

(٢) سورة النور، الآية (٤٠).

عنها، ويقدر أن يعمل بها؛ لأنَّ الزمان لا يحتمل الاشتغال بغير الأهم، وقد أخبرني شيخنا رضي الله عنه من طريق الكشف أنَّ العِلمَ ارتفع مكثه من القلوب من أول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة؛ فصارت القلوب تمجُه ولا تجد له محلاً يقيم فيه؛ لأنها مشغولة بالبلاء النازل عليها، ومن تكلَّم الآن في العلم إنما يتكلم في علومٍ اكتسبها قبل السنة المذكورة، إذا علمت ذلك فأيُّ فائدة لمن هو طول عمره في زاوية أو مدرسة، يطالع دقائق البيوع والرهون والأقارير والدَّعاوى والنحو واللغة، والقراءة والمنطق وغيرهما ولا أحد يسأله عنها ولا يوجه [٣٣/آ] إليه فيها خطاباً، وهو محتاجٍ إلى رغيفٍ ولا أحد يلتفت إليه، وهو متطلع إلى ما في أيدي الخلق من أوساخهم من الزكوات والصدقات، فيستعجل الذل ولا أحد يعطيه شيئاً، وفوَّت على نفسهِ العمل من قيام الليل وكسب ما يعفُّه عن الخلق، فهذا هو عمل الأبطال؛ فإنهم لا يعبؤون بعلمٍ بغير عمل، ولا بعملٍ بغير حرفةٍ تقوم بالعامل، لأمور تكشف لأهل الحُجُب في الآخرة، فالاشتغال بالحرفة التي تعفُّه أولى وأفضل في الدنيا والآخرة من الاشتغال بما لا يعمل به مما يكون حجَّة عليه، ومثالُ هذا مثال من أقام في بلادٍ قد خربت ومات جميع أهلها يحمي فرناً من أفرانها ليلاً ونهاراً رجاء أن يجيء أحد يخبز عنده، ومكث سنين على ذلك ولا جاء أحد؛ فنصحه شخص فقال له: (اترك هذا وانتقل إلى بلاد العمران، واعمل طباخاً أو خبازاً أو غير ذلك مما تنتفع به، ويتعدَّى نفعه إلى الخلق)، فأبى وقال: (يحتملُ أنَّ الدنيا تعود للعمارة ويجيء ناس يعمرون هذه البلاد ويخبزون عندي)، واستدام يحمي الفرن ويسهر، فلا يستحق بفعله هذا جزاءً من الله ولا من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأتعب نفسه وضيّع عمره، ولا يقال: الحقُّ تعالى أقامه في ذلك فلا يمكنه الخروج [٣٣/ب] عنه، لأنا نقول: (هذا ليس بحجَّة، لأنه يحتجُ بالإرادة، ولأنه لو فُتِحَ هذا الباب لرُدَّ جميع ما جاءت

به الرسل من الأوامر والنواهي، وتبيين مراتب الأحكام، ولم يكن لنا عِلْمٌ بشرف العلوم، وتساوت جميع الأديان، لأنهم كلهم لم يخرجوا عن الإرادة، فافهم والزم الأدب، فهذا المثال السابق؛ مثال من اشتغل بالعلوم التي لا يحتاج أحدٌ إليها؛ ولا يزداد بها خوفاً من الله تعالى.

واعلم أن أهل الحقِّ يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة، وعلوم الرياضات والمنطق والعلم الطبيعي، لها دلالة وطريق إلى العلوم بالله تعالى؛ فتسمية هذه العلوم حُجُباً عن الحقِّ لكون الناظر فيها لا ينظر فيها من حيث دلالتها على الحقِّ، فلذلك حَجَبهم عن موضع الدلالة التي فيها على الحقِّ، فوضع بذلك الذَّمَّ على من يشتغل فيها بحظٍّ ما.

فاعلم أنَّ جميع العلوم التي تحجب أكثر الناس؛ هي عند أهل الحق[1] لا حجاب فيها، فاعلم ذلك، فإن قال: (إنما اشتغل بالعلم خوفاً أن ينسى)، قلنا: فإذا أراد الله يقبض العلم وأهله فمن يقدر على حفظه؟ وقد شاهدت نسيانك للعلم، وكلما حفظت شيئاً نسيته، فهل هذا إلا أنَّ الله تعالى أراد ذهابه، فصار الشخص يتكلم بالعلم في لسانه لا يتعداه إلى قلبه، وكل عامٌ ترذلون، فافهم ذلك، والله [٣٤/آ] يتولَّى هداك، وهو يتولَّى الصَّالحين.

وهل يقال للملكين في القبر وللزبانية على جهنم؛ دعوه لأنه كان يحفظ أبواب المعاملات، ويحفظ أبواب الفقه والنحو والأصول عن ظهر قلبه، أو يقرأ بالمد والإمالة والتفخيم والترقيق؟ كلا والله لا يُكرم ولا يُترك لأجل شيءٍ من ذلك؛ إنما يكرم بالتقوى والعمل الصَّالح ومعرفة الله عزَّ وجلَّ، وكفُّ الأذى عن جميع الأنام، ومن شكَّ في ذلك فسيراه يقيناً في الآخرة، وأيُّ فائدةٍ فيمن يقرأ كل يومٍ ختمة ولا يُلقي لما يقرؤه بالاً، ولا يتَّعظُ بشيءٍ من

---

(١) في المطبوع: الله.

مواعظه وزواجره، وإذا جاء إليه شيءٌ من الدنيا وَثَبَ إليه، وخاصم عليه، ومزّق عِرْضَ من نازعه في أخذه.

وقد سئل شيخنا رضي الله عنه عن قول ربّ العزّة لأحمد بن حنبل رضي الله عنه في النوم لمّا سأله فقال: (يا رب؛ بم يتقرّب إليك المتقربون؟)؛ فقال: (بكلامي)، فقال: (يا رب، بفهمٍ أو بغير فهم؟) قال: (بفهمٍ، أو بغير فهم)، فأجاب عن قوله بفهم: (هذا الفهم خاصٌّ بالعلماء)، وقوله بغير فهم: (خاص بالمحققين من العارفين)، لأنَّ العارفين ليس لهم آلة في فهم كلامه إلا بالكشف الصحيح والذوق؛ لا الفهم والفكر الخاصين بعلماء الظّاهر، وأطال في ذلك كما ذكرناه في الأسئلة؛ ثم قال: (والعَجَبُ ممن عُدِمَ الفهم الذي هو العِلم، كيف يتقرَّب [٣٤/ب] إلى الحقّ بعدمه الذي هو الجهل)؛ فتأمّل هذا فإنه من النفائس، ولسنا نأمر بترك الاشتغال بالعلوم، وترك تلاوة القرآن، بل نقول: (إنَّ العبد لا ينبغي له أن يشتغل إلا بما يتعدَّى نفعه ولا يرجع عليه وبالٌ مِنْ أجله في الدُّنيا والآخرة)، فافهم.

واعلم أنه ما رُؤِيَ أحدٌ من الأئمة قط وقال غفر لي بعلمي؛ لأنَّ غالب العلوم تدخلها النفس، وقد قال سيِّدي أبو الحسن الشّاذلي رضي الله عنه: كلُّ عِلْمٍ سبق إليك فيه الخواطر، ومالت إليه النفس والتذت به الطبيعة، ولم يكن عن الله ولا عن رسوله ﷺ فارمِ به، وإن كان حقاً في ظنك وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله واقتد به وبالخلفاء الراشدين والصَّحابة والتابعين من بعدهم، وبالهداة الأئمة، المبرَّئين من الهوى، ومتابعته تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلّة عن الهدى وحقائقه، وماذا عليك أن تكون عبداً لله عزَّ وجلَّ، ولا عِلْمَ ولا عمل، وحسبك من العِلْمِ العِلْمُ بالوحدانية، ومن العمل محبّة الله ومحبّة رسوله ﷺ ومحبّة الصحابة، واعتقاد

الحقُّ مع الجماعة، كما قال رجل: «متى الساعة يا رسول الله؟»[١]. الحديث بطوله، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢]، ولم يَقُلْ: أكثركم علماً، وتأمَّل في آيات الجزاء تجدها كلها في العمل، فقال: ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣]، ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤] [٣٥/آ]، ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٥]، فهل قال بما كنتم تعلمون في آية من الآيات؟ فافهم ذلك.

وما أُنزلت الكتب وأُرسلت الرسل إلا للأمر بالمعروف: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[٦]، فأهل الله علموا أن المراد من العلم وتلاوة القرآن الاتِّعاظ والزجر والتخويف، وأنهم يُسألون عن كلِّ مسألةٍ علموها ولم يعملوا بها.

واعلم أنه لا يؤثِّر في القلوب إلا ما قام بها من العِلمِ والتعظيم وتأمل الملك، إذ كلُّ من دخل السوق في صورة العامة ومشى بينهم وهم لا يعرفونه فإنه لا يقام له وزن في نفوسهم، فإذا لقيه في هذه الحالة من يعرفه قامت بنفسه عظمته وقدره وأثَّر فيه علمه؛ فاحترمه وتأدَّب وخضع له، فإذا رأى الناس الذين يعرفون قرب ذلك العالم من الملك، وأنَّ منزلته لا تعطى؛ أن يظهر منه هذا الفعل إلاَّ مع الملك؛ علموا أنه الملك، فغضُّوا أبصارهم وخشعت أصواتهم، وسعوا له وتبادروا لرؤيته واحترامه، فهل أثر ذلك عندهم

---

(١) عن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: حبُ الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٣) سورة النمل، الآية (٩٠).

(٤) سورة السجدة، الآية (١٧).

(٥) سورة التوبة، الآية (٨٢).

(٦) سورة الجمعة، الآية (٥).

إلا ما قام بهم من العلم به، فما احترموه بصورته؛ فقد كانت صورته مشهورة لهم، وما علموا أنه الملك؛ لأن كونه ملكاً ليس عين صورته؛ وإنما هي رتبة نسبية أعطته التحكم في العالم الذي تحت بيعته.

إذا علمت ذلك؛ فبقدر عِلْمِ تالي القرآن [٣٥/ب] بعظمة الله تعالى، بقدر ما عنده من الخوف لما فيه من الزواجر والتوبيخ، ألا ترى شخصين يقرآن فيخشع أحدهما ويبكي؛ والآخر ما عنده من ذلك كله خبر، ولا يؤثر فيه، فهل ذلك إلا من أثر علم الخاشع القائم به لِمَا نزل عليه في تلك الآية، وشهوده ما تضمنت من الأمر الذي أبكاه وخشع له، والآخر أعمى عن تلك المعاني لا يجاوز القرآن حنجرته، ولا أثَرَ لتلاوته فيه، فلم يكن الأثر لصورة لفظ الآية؛ وإنما الأثر لما قام بنفس العالم بها الشاهد لما نزلت له تلك الآية، فلا يؤثر فيك إلا ما قام بك من حيث ما تعلم وتشهد، فلولا علمه بالأمور ما هاله، ولمَّا ذقتُ هذا كنت لا أقدر على النطق بالقرآن لا في الصلاة ولا في غيرها، لأمورٍ يعذرُنا فيها من ذاق هذا الأمر، ومن لم يذق فهو معذور إن شاء الله تعالى، فلهذا كان أهل الله غائبين عمَّا يقصده غالب القرَّاء بقراءتهم، لما فيه من البلاء والمؤاخذة بما أطلعهم الله عليه من الإشارات والتوبيخات، وطلب مراعاة صاحب الكلام وما يطلب من الطهارة الظاهرة والباطنة لمن يكون من أهل حضرته ويتلو كلامه بحضرته، فلم يبق عندهم متسع لغيره فلذلك لم يقولوا على القراءات بالروايات والجمع بينها، لأنَّ فيها تضييع العمر، والاتّعاظ يحصل برواية أبي عمرو [٣٦/آ] مثلاً، وكذلك الأحكام، ولم يقدر أحد من السَّلف أن يقرأ بجميع هذه الروايات، ولم يعتنِ بها؛ لأنهم علموا أنَّ القرآن عربي، ولغة العرب واسعة، ففِرقةٌ لغتها المد، وفرقةٌ لغتها القصر، وفرقةٌ تفخّم، وفرقة ترقّق، وغير ذلك من وجوه الأداء، فجاء من بعدهم فأخذ كل واحد عن لغة قبيلة؛ خوفاً من التغيير عمَّا كان على عهد رسول الله ﷺ من لغة هذيل وحِمير وقريش وغيرهم، فرضي الله عنهم

أجمعين، وما كانوا مقتصرين على نقلها فقط؛ بل كانوا علماء بالله، عاملين صائمين قائمين، زاهدين خائفين، كما يُعرف ذلك من طبقاتهم، وكذلك الأئمة المجتهدون.

وقد مكث الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه خمسين سنة يصلّي الصبح بوضوء العشاء، وكذلك كلُّ واحد من الأئمة، فلم يكونوا مقتصرين على حفظ المسائل فقط، ومثال من يصرف عمره إلى عِلْم القراءة ووجوهها ولا يلقي باله لما في القرآن من المواعظ والتهديدات والتخويفات؛ مثال من أرسل إليه السُلطان كتاباً يأمره وينهاه بأمورٍ كثيرة؛ فأخذه وقبله وصار يدرس ألفاظه ليلاً ونهاراً بالمدّ والإمالة والتفخيم والترقيق، ولمَّا أرسل إليه السُلطان ينظر ما فعل في الأوامر [٣٦/ ب] والنواهي؛ وجده لم يفعل شيئاً منها، وهو على هذه الحالة، فهل هذا مراد السلطان؟ وهل هو فعل من له أدنى عقل؟ فافهم، ولا تجادل في ضدّ ذلك، فإن وباله يرجع عليك ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[1].

واعلم أنه لا ينبغي القراءة بالروايات والأنغام إلا لكُمَّل الأولياء من ورثة الأنبياء، فإنهم يشيدون أمر الله لهم بالجهر في موضعه؛ وتحسين الصوت في تلاوة القرآن، فلا يخرجهم ذلك عن حضرته ومناجاته التي هي المقصود بالتلاوة، وأما غير الأولياء فإنهم يُحجَبون بالنغمة وتحسين الصوت عن حضرة الله تعالى لضعفهم؛ فيفوتهم المقصود؛ لا سيَّما أئمة المساجد، وخوفهم من الغلط واللحن والوقوف على غير وقف وغير ذلك. فلا يكادون يحضرون مع الله تعالى في شيء، والصلاة محلُّ المناجاة؛ لا تقبل الالتفات لغير الحقّ، والعمدة في الصلاة إقامتها بحقوقها وآدابها؛ لا فعل صورة الأركان فقط.

واعلم أنه كان فرضاً علينا الإقبال على الله على الدوام لقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) سورة التوبة، الآية (٩٤).

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١] الآية، فخفف الله تعالى عنّا وفرض الإقبال عليه وعلى مناجاته في الصلاة فقط، فإذا غفلنا عنه في نفس الصلاة ولم نحضر فيها فلسنا بمصلّين إلا بالاسم [٣٧/آ]، والقلب دائماً لا يتجه إلا إلى الأشرف عنده، فأيُّ شيء أشرف من الله حتى يشتغل عن الله به؟ ولذلك قال أهل الحقّ رضي الله عنهم: (إنَّ كلَّ بلاء أهون على العارف من صلاة ركعتين مع هيبة، بل إذا استحكمت منه تحول بينه وبين الصلاة)، ولما ذقت ذلك كنت لا أقدر أن أنطق بالقرآن لا في صلاةٍ ولا غيرها، وكنت أستغفر الله تعالى إذا سبق به لساني في غير الصلاة من غير قصد لغفلتي لأمور يشهدها صاحب هذا الحال تقصر عنها العبارة، ثم حجب الله تعالى ذلك عني رحمة بي فله الحمد.

وقال الإمام الغزالي رضي الله عنه: (إن الغافل في الصلاة تاركٌ لها)، فكما أنَّ من ترك الأفعال الظاهرة يُقتل بسيف الشريعة؛ كذلك من ترك الأفعال الباطنة يقتله الجبار يوم القيامة، لحديث «اعبد الله كأنك تراه»، فالعبادة من شهود صريح أو تخيل شهود صحيح لا تصحُّ، هكذا مذهب أهل الحقّ، فافهم ذلك، والله يتولّى هداك.

ومن شأنه: أن لا يعاهد الله تعالى حين يتعلَّم العلم على الجزم بالعمل به، بل لا ينبغي له ذلك إلا مع شهود معونة الله له، فلا يعاهد الله تعالى على العمل به، لأنه عاجزٌ عن الوفاء بما التزم؛ لأنَّ الحقَّ لا تقييد عليه فيما يُقدِّره على العبد، وليس هو تعالى مع مراد العبده[٢] في كلِّ ما يرومه، فكيف يجزم [٣٧/ب] أن يفعل شيئاً ليس في قدرته أن يمتنع منه؟ فالمراد من العبد أن يتعلَّم العِلمَ امتثالاً للأمر، وما قسم الله تعالى له من العمل لابدَّ منه، والحقُّ

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

(٢) في المطبوع: عبده.

سبحانه وتعالى أعلم بمصالح عبده منه، فمن عَلِمَ ذلك أفنى مراده في مراد الحقّ، لأنَّ مدار الخلق وسعادتهم على عفو الله؛ لا على العلم والعمل، فكلُّ من سامحه الله فهو الناجي، وكلُّ من أقام عليه المناقشة هلكَ ولو كان معه أعمال الثقلين، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1]، لم يجد له عملاً ينجو به ولو كان كثير العبادة، كما يُشاهدُ ذلك أهل الله تعالى، وإلا فالعبد قد يُعاقَبُ بعدم امتثال الأمر وبعدم اجتناب النهي لموضع اختياره وتدبيره وتحكمه على الله تعالى، ولأنه جاهل بما يُقدِّره الله عليه في المستقبل، وقد يكون ارتكاب النهي في حقّه سبباً لقربه من الله تعالى لما فيه من الذلّ وتنكيس الرَّأس، كما شاهدنا ذلك في حقِّ كثيرٍ من الناس، وقد يكون فعله لصورة الأمر يزيدهُ بعداً من الله تعالى لما فيه من الإعجاب والكبر على من لم يفعل كفعله، وربما تكبَّر به أيضاً على من فعل كفعله لظنه بغيره الرياء وبنفسه الإخلاص، كما هو واقع كثيراً.

واعلم أنَّ مراد الحقّ سبحانه وتعالى من الخلق رجوعهم إليه بأحد وجهين: إمَّا بالطاعات وإمَّا بالمعاصي [٣٨/أ]، فإذا أُعجب الطائع بعبادته طُرِدَ ومُقِتَ، فحينئذٍ يقدِّر عليه المعاصي فيبكي ويخشع ويذلُّ لله تعالى؛ فيقرِّبه ويجتبيه، ومن لم يُقبل على الله بملاطفات الإحسان قِيْدَ إليه بسلاسل الامتحان، ويقولون في المثل: (من لا يجيء بشراب الليمون جاء بحطبه).

فاعلم أنَّ الطاعة إذا لم تكن خالصة فإنها تُورث صاحبها الجفاء وقساوة القلب، وقد قال سيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رضي الله عنه: (رُبَّ معصيةٍ أورثت ذُلاً وانكساراً، خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً)، إذا علمت ذلك؛ فمن الأدب مع الله تعالى ترك المعاهدة للحقّ على فعل شيء أو تركه، ويُسَلِّمُ العبدُ لله تعالى أمره، وكلُّ شيءٍ أبرزه على يديه من الأفعال يعطيه

---

(١) سورة الصافات، الآية (٩٦).

حقَّه، فيتوب مما برز مخالفاً للأمر، ويحمد على ما برز موافقاً له، وإن كان ولابد يجزم أن لا يعود، فليراع الأدب، وهو شهود مشيئة الله تعالى في عباده، لأنَّ التحويل والتبديل واقعٌ ليلاً ونهاراً، فيقدِّم المشيئة، كما أن المؤمن يقول: (أنا مؤمن إن شاء الله)، تبرُّكاً وخوفاً من التحويل لا شكّاً في إيمانه، فافهم.

واعلم أنه لا يلزم من عِلْم العبد بالأمر امتثاله، ولا من عِلْمِهِ بالنهي اجتنابه [٣٨/ب] كما هو مُشاهد، لأنه تعالى إذا أراد من العبد إيقاع الفعل على صفة مخالفة للأمر لا يكون غير ذلك، فيصير العمل بالعلم عنه بمعزل، وكذلك الحكم في جانب النهي، فالأدب مع الله تعالى خيرٌ كثير، فافهم ذلك ولا تجادل فيه، فإنَّ حالك يكذبك، فإنك تعرف فضل الوتر وعدد ركعاته، والضحى، ولا تفعل شيئاً من ذلك، وتبحث في فضل صلاة الكسوف ولا تفعل، وتبحث في باب الصدقات ولا تتصدَّق، وتبحث في آداب الصوم ولا تفعل، وكذلك آداب الاعتكاف، وصيغ البيع، وتقرر لتلامذتك أنَّ كلَّ ما أخذ بالمعاطاة حرام وغير ذلك مما لا يحصى.

فاعلم أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يعترض على أحدٍ فيما هو منسوب إلى الحقِّ سبحانه وتعالى أو رسله، كمن يعترض على الذاكرين الله كثيراً أو المسبّحين، أو التالين لكلام الله تعالى، أو المصلين على رسوله ﷺ، أو على أصحاب الأوراد، لأنَّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، والطريق الذي يظن المعترض أنها لا توصل إلى الله تعالى بحسب ما عنده قد توصل إليه [٣٩/أ]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١)، وكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، وإنما ذكرت ذلك ونبَّهتك عليه؛ لأنَّه يفتح لطلبة العلم كثيراً الاعتراض على الذاكرين، ويقولون: (الاشتغال بالعلم أفضل) ولا يتأملون المراد من العلم

---

(١) سورة المائدة، الآية (٤٨).

ماذا، أو يخرجون على من بات ذاكراً ليلة القدر إلى الصباح ولم يتحرك أحد منهم ولا قال: لا إله إلا الله، ولا قال: اللهمّ اغفر لي، وأيُّ غرورٍ فوق هذا!؟ ولا يسود الخلق عند الله إلا بالعمل الخالص، وكيف يقاس من يعلم أنَّ في الناحية الفلانية بحراً؛ بمن يغترف منه ليلاً ونهاراً ويسقي الناس، وقد نبَّهت شخصاً للذكر ليلة القدر؛ وكانت ليلة الجمعة، فرفع رأسه واضطجع ونام، وقال: (نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل)، ويا ليته سكت، فكلُّ علْم لا يزداد العبد به هدىً، لم يزدد به من الله إلا بعداً، وكلُّ عِلْمٍ لا يزهّدك في الدنيا ويرغِّبك في الآخرة لا يُزداد بالتبحر فيه إلا قساوةً ودعوى وتكبراً وازدراءً للخلق؛ حتى تظن أنَّ الخلق كلهم هالكون إلا أنت، وإذا لم تكن تعمل بالعلم فانظر لنفسك بعين الاحتقار والتقصير، فإنَّ الأمر باقٍ إن شاء الله تعالى، فافهم ذلك.

وقد استفتى شخص بحضرتي عن جماعة يتلون القرآن جهراً إلى الصباح، هل يَحرُمُ [٣٩/ ب]ذلك؛ فقال: (نعم يَحرُمُ بنص القرآن، لأن الله تعالى جعل الليل سكناً؛ وهؤلاء لم يجعلوه سكناً اهـ). وما للسائل إلا للمجيب.

واستفتى شخص آخر عن جماعة يذكرون الله تعالى ويصلُّون على النبي ﷺ ليلة الجمعة فقال: (هذا شأن البطّالين الذين لا مروءة لهم ولا همَّة، وهو من البدع. وذكر الله تعالى ورسوله ﷺ يكفي العبد في العمر مرَّةً) فانظر يا أخي هذا الجواب وما فيه من الجفاء والظلمة وقلَّة الأدب مع الله ورسوله ﷺ، لجعله ذكر الله تعالى بدعة، وهو لم يعرف البدعة، فإنَّ كلَّ ما ابتدع على طريق القربة إلى الله تعالى فهو من الشريعة والسنة الظاهرة، قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[١]، وقال النبي ﷺ: «من سنَّ سُنةً حسنةً

(١) سورة الحديد، الآية (٢٧).

فليسنَّ»[١]، فأجاز لأمته استنان ما هو حسن، وجعل فيه الأجر لمن ابتدعه ولمن عمل به، وأخبر أن العابد لله بما يعطيه نظره إذا لم يكن على شرعٍ من الله معين؛ أنه يُحشر أمةً وحده، بغير إمام يتبعه، فجعله خيراً وألحقه بالأخيار، كما قال في إبراهيم: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾[٢] وذلك قبل أن يُوحى إليه، وقال عليه الصلاة والسلام: «وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]، فمن كان على مكارم الأخلاق كان على شرع من ربّه وإن لم يعلم ذلك، وسماه [٤٠/أ] النبي ﷺ خيراً في حديث حكيم بن حزام، وأنه كان يتبرر في الجاهلية بأمورٍ من عتقٍ وصدقة، وصلة رحم وكرم، وأمثال ذلك، فقال له رسول الله ﷺ لمَّا سأله عن ذلك: «أسلمت على ما أسلفت من خير»، فسمَّاه خيراً وجزاه الله به، فإن لم تفهم الشريعة هكذا فما فهمت.

إذا علمت هذا فالمفتي بغير دليلٍ شرعي بأنَّ الاجتماع على ذكر الله تعالى على الهيئة المشهورة بدعة؛ جاهلٌ غبيّ، مطرود ملعون، وحاله يدل عليه، لأنه لو كان من أهل القرب ما وسعه أن يتكلّم بما قال، فافهم.

وكيف يقدر العبد أن يصبر عن ذكر الله تعالى وهو حياة القلب والروح، كالماء للسمك!؟، وفي البخاري وغيره «ومثلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميّت»[٤] وقد قال الله تعالى: «أنا جليس من ذكرني»، وقال: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكتْ بي شفتاه»، فكيف يكون جليس الله تعالى من

(١) قال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها؛ وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) سورة النمل، الآية (١٢٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٨٩٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١٣) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٤٠٧)، ومسلم (٢١١).

لا هِمَّة له ولا مروءة؟! وقد وصل إلى أعلى الهمم، لأنَّ أعلى همم العارفين أن يتوالى عندهم الحضور والأنس بالله تعالى ومراقبته والحياء منه، وهل يعلم أحدٌ ما يمنح الجليس جليسه من العلوم والمعارف والآداب والأخلاق؟ فالزم الأدب مع الذاكرين [٤٠/ب] وغيرهم، فإنه في الحقيقة أدب مع الله تعالى، فافهم ولا تكن من الغافلين، فإن وبال ذلك يرجع عليك في الدنيا والآخرة بالمقت والطرد؛ كما هو مشاهد في أهل الإنكار على الأولياء، وقد قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي رحمه الله: (ما رأينا أحداً مبتلىً بالإنكار إلا وكانت خاتمته خاتمة سوء)، على أن الأولياء الذين ينكرون عليهم ليسوا بأصحاب مذاهب في الشريعة، كالأئمة المجتهدين، إنما لهم ملاحِظ يفهمها عنهم من يأخذ عنهم، فرضي الله عنهم وعن المعتقدين فيهم أجمعين.

ومن شأنه: إذا كشف الله تعالى عن بصيرته وفهم أسرار الشريعة أن لا يتقيَّد عن نقل المقلِّد في الأحكام من غير نظر في الأدلَّة وفي كلام الإمام في فتواه لجميع الخلق، فإنه ليس على حدٍّ سواء، بل يُفتي كل سائل على حساب حاله، فإن أَبَوا إلا أن يجيبهم بالمنقول مع علمه بأن الأمر أوسع من ذلك فليفتهم به، لأنَّ الحقّ إذا أراد إثباته فمِنَ الأدب عدم طلب دفعه، وقد امتحنت فساد طرد القاعدة في كثيرٍ من كلام الأصحاب من مذهب الشافعي، أما كلام الإمام رضي الله عنه فلم أظفر بفساد طرد قاعدة من قواعده؛ ومن مسائل الأصحاب قولهم بالإفطار بوصول عين من جائفة ومأمومة ونحوهما، وهذا وإن كان سدّاً للباب فليس فيه انتهاك حرمة للصوم [٤١/أ]، لأنه لا يسمَّى أكلاً لا في العرف ولا في اللغة ولا في الشرع، لهذا قلنا إنَّ من شأنه أن يكون يقظاً متفطِّناً لما يُستفتى فيه من الأحكام، وينظر في أسرار الشريعة وما جاءت به ولأجله، وإن عُلِمَ من المستفتي مثلاً عن حول الزكاة وقطعه بالخروج عن ملكه، هروباً من الوجوب والإخراج؛ لا يفتيه بل يسكت ويتثبت في أمره،

لأنَّ المبادرة إلى فتواه بالمنقول يسد باب الزكاة ويفتح باب المنع للفقراء، والحقُّ تعالى لا تدخل عليه الحيل، ومخادعة الله تعالى تورث المقت والغضب والطرد، وأين الآيات والأحاديث الواردة من الأمر بدفعها لمستحقيها؟ وأين قوله ﷺ: «صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ على فقرائهم»، وغير ذلك من الأحاديث، وكذلك ينبغي له أن يتوقف في حيل البراءة من الصَّداق وغيره، لأنَّ غالب ذلك لا يقع إلا بعد مضاجرةٍ وأذى، فيؤذي الرجل زوجته بغير حقٍّ، ويتزوج عليها، ويلتوي ويفعل جميع ما يخالف غرضها، والبشر لا يتحمَّل ذلك دائماً ليلاً ونهاراً ولاسيَّما النساء، لما جُبِلْنَ عليه من الغيرة والنقص، فتطلب المرأة الافتداء بالبراءة من الصَّداق، وربما تعطيه زيادة عليه؛ لأنها كالأسير، كما شاهدنا ذلك كثيراً، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[1] [٤١/ب]، فأين طيبة النفس في هذا؟ فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يتوقَّى الفتوى بالتحكيم على الله تعالى في الأمور المجهولة التي لا تُعلم إلا بالكشف الصحيح من كُمَّل الأولياء لقوة علمهم، لأنَّ الحقَّ لا يخذلهم فيما يلتزمونه ويتضمنونه لهم عند الله تعالى، كمن ضمن لشخص قصراً إن بنى سبيلاً، فنزلت إليه ورقة من السماء فيها: قد وفَّينا بما ضمنت، ووقع ذلك لآخر وفيها: ولا تعد.

إذا علمت ذلك؛ فالأدب أن لا تجيب في أمر الثواب والعقاب بشيء، لأن ذلك جهل وتحجير على الحقّ، فقد لا يثاب على الطاعة التي أفتى فيها بحصول الثواب، وقد لا يعاقب على المعصية التي أفتى فيها بوقوع العقاب، والمراد من العلماء أن يبيِّنوا الأوامر والنواهي فقط، وأمر الثواب والعقاب إلى الله تعالى لا إليهم، فإن وردت السنة بحصول الثواب والعقاب في فعل

(١) سورة النساء، الآية (٤).

بخصوصه فلا بأس بذكره لمن يعمل طلباً للثواب، لأنه بحكم التبعية، ولا تحكيم فيه على الله تعالى، لأنه هو الذي أخبر به عن نفسه، واعلم أن الفَطِنَ في دينه لا يخفى عليه مثل هذه الأمور، وقد نبهتك بهذا على ما سواه، والله يتولى هداك، وهو يتولى الصّالحين.

* * *

الباب الثالث
في آداب الفقراء والمشايخ من السلف الصالح

وقد أحببت أن أشبع الكلام في هذا الباب؛ لكثرة [٤٢/أ] المدّعين في هذا الزمان؛ الفاتح لكلّ شرّ والخاتم لكلّ خير؛ فصار كل من أذن له شيخه بتلقين الذكر أو لم يأذن له ومات وسمع في خلوته هاتفاً بالإذن له من ملكٍ أو جنٍّ يظن أنه وليّ الله تعالى كما سمعت ذلك من بعضهم، وعن كثرة من يقلّد له من العوام الذين لم يفهموا حقيقة الأمر؛ فضلّوا وأضلّوا، لأنّ درجة الولاية مرتبةٌ عظيمة؛ حتى أنّ من جملتها أن يعرف ولايته أهل السموات وأهل الأرض، والحيوانات والنبات، ويحبُّه الخلق أجمعون - إلا من شاء الله من الثقلين - بمحبة الله.

قال بعض العارفين رضي الله عنهم: (مشيت أنا وبعض إخواني في جبل قاف؛ فمررنا على الحيّة المحيطة بالبحر المحيط، فسلّمنا عليها فردت علينا السّلام، ثم قالت: ما حال أبو مدين شعيب؛ وكان ببجاية من أرض المغرب إذ ذاك، فقلنا لها: تركناه في عافية، ومن أعلمك به؟ فتعجبت وقالتْ: وهل على وجه الأرض أحدٌ يجهله؟ إنه والله ممن اتخذه الله وليّاً وأنزل محبته في قلوب جميع المخلوقات من ناطق وصامت) فانظرْ مرتبة الولي، وأمّا مشايخ الآن[١]، فلو سئلت حمارته التي يركبها عن ولايته لا تعرفها؛ فكيف بسائر الوحوش والسمك والنمل وغيرها؟ فاعلم ذلك.

وقد كنّا ألفنا كتاباً [٤٢/ب] وذكرنا فيه جملة المنازل التي تنزلها الأولياء

---

(١) لم ترد في المطبوع.

وتخلع عليهم علومها، وعدَّتها مائتا ألف منزل وثمانية وأربعون ألف منزل، وذكرنا فيها من المنازل مائة منزل وأربعة عشر منزلاً، عدد سور القرآن العزيز، وذكرنا في كلِّ منزل بعض علومه خوفاً أن ينكر وجود المنازل وعلومها؛ إذ لم يخطر ببال أحد من غالب فقراء هذا الزمان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(١) وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(٢) وأرجو من الله تعالى أنَّ كلَّ من طالع فيه من فقراء هذا الزمان يعلم يقيناً أنه لم يشم طريق الولاية، فضلاً عن حصولها له، لأنه يجد نفسه عارياً عن معرفة أسماء علوم الأولياء، فضلاً عن أن يحيط بحقيقتها، إذ كلُّ علمٍ منها لا يدرك له قرار، ولا يسطَّر في الكتب ليطالع فيتكلم به، ولذلك قال سيِّد هذه الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: (لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صديق من علماء الرسوم بأنه زنديق)، وذلك لأن أحوالهم من وراء النقل والعقل، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٣) ومن ادَّعى من القاصرين معرفة هذه العلوم كذَّبه العارفون وافتُضِح بالامتحان [٤٣/أ]، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾(٤) ورحم الله من عرف قدره واستراح من الدعاوى الكاذبة الموجبة لسخط الله ومقته، وأراح تلامذته بعد موته من التعب في بناء مدفنٍ وتابوتٍ وسترٍ وغير ذلك من آلات المشيخة.

إذا علمت ذلك فمن شأن الفقير: أن لا يدخل في طريق القوم إلا بعد تضلعه من علم الشريعة والحديث، وإلا فيُخاف عليه الزندقة والابتداع، لأنه ينفتح للسالك أمور بحيث لا ينضبط على شريعة منها لا فاعل إلا الله، ولا

(١) سورة يونس، الآية (٣٩).
(٢) سورة الأحقاف، الآية (١١).
(٣) سورة يوسف، الآية (٧٦).
(٤) سورة الزمر، الآية (٦٠).

ملك إلا الله، ولا موجود إلا الله، وهذا وإن كان حقًّا، لكن على هذا فالأحكام المأمور بها تتوجه على من يقول هو الآمر نفسه بنفسه وغير ذلك، فإن كان معه الميزان الشرعي وزن هذه الأمور، وعَلِمَ أن لله الحجَّة البالغة، إذا علمتَ ذلك؛ علمتَ أنها طريقٌ كثيرة المهالك والحفر والأوحال والمهاوي والحيَّات وغيرها، لأنها طريق مجهولة لا يعرف فيها السَّالك ما يستقبله من المهالك، ولا أين ينتهي، فلا بُدَّ من دليلٍ له يمشي فيها به؛ وهو نور الشرع مع نور البصيرة؛ قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[1] فلو كان نوراً واحداً لما ظهر له ضوء، فافهم.

ومن شأنه: أن يقرأ شيئاً من عقائد السنة قبل دخوله في طريق [٤٣/ب] الفقراء، ليصحَّ اعتقاده مما يتوهمه غالب الخلق من الجسمية ونحوها، أو أنه تعالى فوق العرش، فمن يعتقد ذلك على معنى الجلوس فهو عابدُ وثنٍ؛ فتعالى الله عن ذلك؛ وهو أن تعلم أن كلامه تعالى قديم، وقد قال قبل خلق العرش: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[2] فإذا كان كذلك؛ فما معنى الاستواء؟ وما كان عليه قبل خلقه العرش؟ فما تقوله قبل خلقه فله بعد خلقه، وكذلك خبر «**ينزل ربنا، وجاء ربك**» ونحو ذلك تؤول هذا الوجه، فمن أمكنه رفع الأكوان كلِّها؛ هان عليه الأمر، لأنه كان قبلها وكان ولا سماء ولا عالم، فهل كان يوصف بالنزول إلى من؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ والعمدة في هذا الباب نفي الجسمية كما هو الأمر عليه.

ومن شأنه: أن لا يطَّلع في كلام القوم ما دام مقلِّداً لهم إلا كلام الكمَّل من الأولياء الذين لا ينقضُ ظاهره باطنه، ولا باطنه ظاهره أدلَّة السنة.

وأمَّا كلام الأولياء الذين لم يبلغوا مرتبة الكمال من أرباب الأحوال فلا

---

(١) سورة النور، الآية (٣٥).

(٢) سورة طه، الآية (٥).

ينبغي النظر فيه، لأنَّ كل أحد منهم تكلَّم عن ذوقه، وعلم الفقير بأنَّ فلاناً ذاق كذا وكذا لا يفيد عنده شيئاً، بل ربما أورث عنده شهوة إلى ذلك الحال، فيحصل له قلّة أدب مع الله تعالى، بخلاف كلام الكمَّل، فإنه كلُّه أدب مع الله تعالى [٤٤/أ] ومع خلقه لوسعه، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يطالب نفسه بحقوق الخلق ولا يطالب الخلق بحقوق نفسه، فلا يتكدر ممن زهد من أصحابه في مجالسته والقرب منه والتردد إليه، لأنه لا يخلو إن كان ذلك خيراً لهم، فهم الذين منعوا أنفسهم من الخير، وإن كان ذلك شراً لهم فقد استراحوا منه ومن مجالسته، وأمَّا تكدر الأكابر ممن ترك الخير؛ فإنما ذلك تكدر له، حيث أصيب بما أصيب من ترك الخير، لا تكدراً منه.

ومن شأنه: الذل وعدم التميُّز عن غيره بخلُقٍ غريب يُعرف به إلا أن يكون مغلوباً، ويرى أنه أحقر خلق الله المؤمنين على الإطلاق، ولا يُمَكِّن أحداً من تقبيل يده، ولا يحبُّ ذلك من أحد، ولا يمكِّن أحداً من الإطراق بين يديه، لأنَّ هذه صفة الملوك لا صفة العبيد، فإن كان ولابدَّ من الترخيص في ذلك؛ فليمكِّن من أراد تقبيل يديه أو غيرها مع رؤية نفسه عليه، فقد يقع كثيراً لبعض الفقراء أن يرى نفسه أنه أحقر الخلق لا يرى غير ذلك، ويرى أن تقبيل يده من تلامذته غاية التواضع منهم، ولو علم في الخلق أحقر منه لأمرهم بالتواضع معه ليهديهم به، فهذا لا يضرُّه التقبيل مادام يرى نفسه كذلك، والصَّادق تظهر [٤٤/ب] عليه الأمارات، ومنها عدم انضباطه على حالةٍ واحدة؛ فيمنع تارةً ويُبيحُ أخرى؛ بحسب خمود النفس وهيجانها.

واعلم أنه يجب عليه أن يُمنع من ذلك جزماً حيث أدَّى إلى نظامٍ وقيامِ ناموسٍ عليهم، ولأيِّ شيء لا يُقبِّل هو يدهم كما يفعلون معه لولا أنه يرى نفسه عليهم؟ وهذا لا يخفى على أهل البصائر، وإذا ألفت النفسُ التعظيم بهذا

النظام، ومجيء الناس إليها وقولهم نحن رائحون إلى عند سيِّدي الشيخ، ازدادت عتواً واستكباراً وشقَّ عليها ترك ذلك، وتجد استيحاشاً لمَّا يتركون المجيء إليها، وتقبيل يدها، ويغيبون عن حضرتها؛ ويفتحون أعينهم في وجهها؛ ويقصِّرون في خدمتها والاعتناء بها، فتُدسِّسُ على صاحبها المخدوع وتقول له: (احكِ لهم حكايات في باب الأدب ليجبر الله لك هذه المصيبة، فلعلَّهم يتأدَّبون معك)، وهو يُظهر لتلامذته أنه لا يعبأ بإقبال الخلق ولا بإدبارهم، وقلبه كادَ أن يتفطَّر لأجلِ ذلك، ولا يقدر يُصرِّح لهم بالأمر بأنهم يتأدبوا معه خوفاً منْ أن يزدروه إذا طلب ذلك منهم، فلذلك تجده يحكي لهم حكايات في الأدب، وقصده منها أن يتعلَّموا الأدب معه فقط، ولا عليه أن يُقلُّوا أدبهم مع أحدٍ من أقرانه، بل ربما [٤٥/أ] فرح في الباطن لذلك؛ لتنقيص أقرانه بذلك حتى ينفرد هو بالتعظيم بين الخلق، فيقول: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا جلسوا حوله كأنما على رؤوسهم الطير من الأدب والحياء معه ﷺ، وكذلك أصحاب الشيخ الفلاني والفلاني، وأين هذا ممن هو معصوم أو محفوظ؟ وأين من هو عبدٌ لنفسه غارقٌ في حظوظها خارج عن سياج العبوديَّة بأفعاله؛ ممن هو عبدٌ خالص من رق الأغيار؟ فسدُّ هذا الباب أولى من الدخول في ورطتهِ لغلبة الهلاك.

فإن ادَّعى أنه إنما يمكنهم من تقبيل يده ليتعلموا الأدب وذلَّ النفس، فليراع الصِّدق في ذلك، ولأنه يمكن أن يجرِّبهم في غيره من إخوانهم وأقرانهم، ممن هو أحقر في أعينهم منه، بل الغالب ممن يقبِّل يد الشيخ أنه لا يُقبِّلها إلا للتعظيم للشيخ، ويرى الشَّرف والرفعة بذلك، فكيف يكون في ذلك ذلٌّ وتواضع للتلميذ؟ فافهم ذلك، واتَّهم نفسك في جميع أفعالها وأحوالها لعلك ناجٍ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[١]، والله يتولَّى هداك وهو يتولَّى الصَّالحين.

---

(١) سورة الفجر، الآية (١٤).

ومن شأنه: أن يُنزل الناس منازلهم ولا يتبع التقليد في ذلك، بل يكون يقظاً، فأعظم الناس حُرمةً وأحقُّهم بالتعظيم أكثرهم [٤٥/ب] اتباعاً للنبي ﷺ، فلا عبرة بتعظيم الخلق للفقير وإقبالهم عليه؛ وانتشار صيته بالصّلاح والولاية، فمن مشايخنا من لا يؤبَهُ له، ولا يؤهَّل لأن يُجلس معه لرثاثة هيئته، ولا يصلح غالب المشايخ والمشهورين أن يكون تلميذاً له؛ لأنهم لا يفهمون كلامه في الطريق لدقَّته، ومن شرط التلميذ أن يفهم كلام الشيخ، ومن لم يفهمه لا يصلح أن يكون له تلميذاً فافهم ذلك، والله يتولَّى هداك وهو يتولَّى الصالحين.

ومن شأنه: أن يتحمل الأذى من جميع الأنام؛ ويشهد ذلك من رحمة الله به ونعمته عليه، حتى لا يركن إلى سواه، لاسيما في ابتداء أمر الفقير، وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: جَرَتْ عادةُ الحقّ سبحانه وتعالى مع أنبيائه وأصفيائه أن يسلِّط عليهم الأذى في مبتدأ أمرهم، ثم تكون الدولة لهم آخراً، كما وقع للسيد نوح عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وكذلك السيد موسى؛ والسيد يوسف عليهما الصلاة والسلام؛ وسيدنا محمد ﷺ مع قومهم، فالسيد نوح صبر حتى أغرق الله قومه؛ وكذلك السيد موسى صبر حتى أغرق الله فرعون وجنوده، وكذلك السيد يوسف صبر حتى صار عزيز مصر واحتاج إليه إخوته وغيرهم؛ وكذلك نبينا محمد ﷺ لمَّا أخرجه [٤٦/أ] قومه من مكة ردَّه الله إليها قاهراً بالسيف، وكذلك السَّلف رضي الله عنهم أجمعين، لكن من يدوم عليه الأذى طول عمره ويرمى بالزندقة والكفر وغيرهما من الأمور الباطنة، لأنَّ المعاصي الظاهرة يتنزه الفقير عنها في الغالب، ولو رماهم شخصٌ بها لا يُوافَقُ على ذلك فلا يحصل لهم الأذى الكامل؛ بخلاف الأمور الباطنة، فإنها تدوم نسبتها إليهم في الغالب استصحاباً لما قيل، فيحصل الأذى الكامل المراد.

ومنهم من ينسب إليه بعض العقائد الزائفة في بعض عمره ثم يتغير الحال تأديباً له ولنفسه؛ لئلا تميل إلى الخلق لكثرة الاعتقاد منهم غالباً، فيفسد عليه حاله؛ لأنه يصير عنده ركونٌ إليهم فيشتغل قلبه بمحبتهم، والحقُّ غيُور، لا يحبُّ أن يرى في قلب عبده المؤمن محبَّةً لغيره، لأنه موضع نظره، ولذلك كان ضرر الصَّديق وخلطته أشدُّ من ضرر العدو، لأنَّ العدو يصيبك في ظاهرك؛ والصديق يصيبك في قلبك، وعدو تصل به إلى طريق القرب خيرٌ من صديق يحجبك عنها، فافهم؛ واحذر أن تفهم هذا الكلام بخلاف المراد؛ فيتخلل باطنك احتمال الأذى لتكون الدولة لك آخراً في التصرف بالخلق بالحال والقال، لأنَّ العبد المؤمن ليس له دولة في الدنيا، إنما هي دار عمل وتحمُّل [٤٦/ب] مشاقٍّ وأكدار، إذا علمتَ ذلك فتحمَّل الأذى اقتداءً بالأنبياء والمرسلين والسَّلف الصَّالحين فقط، فمن كان كذلك نصرَه الله تعالى من غير عشيرة ولا أهل، إمَّا يُقدره على احتمال الأذى فلا يبالي به، أو بغير ذلك، وقد كان أهل بلد أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه يرمونه بالزندقة، ويقولون: (هذا يُظهر الإسلام ويُخفي الكفر)، وكان رضي الله عنه من شأنه أن لا يقيم إلا في موضع الذَّم، وكلُّ موضع لحقوا به وعرفوا شأنه ومدحوه تحول عنه.

واعلم أن كثرة الإنكار عليك والأعداء لك، ممَّا يُثبت لك أسوةً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(١) فاعلم أن عداوة جميع المؤمنين للعبد من شقاوته، لأنَّ قلوب المؤمنين لا تمقتُ إلا بحقٍّ، لأنهم لا يجتمعون على ضلالة؛ وأعظم نصابهم أربع رجال.

واعلم أنَّ الدنيا ليست بموطن ظهور الجزاء للتكليف، فكل إنسانٍ فيها

(١) سورة الفرقان، الآية (٢٠).

مشغولٌ بنفسه، مطالبٌ بأداء ما كُلِّفَ به من العمل، فمن عَلِمَ هذا لم يبال كيف أصبح ولا أمسى عند الخلق، ولم يلتفت لمدحهم ولا ذمّهم لأنهم في محل الحجاب، وانظر إلى أحواله ﷺ في الدنيا؛ لم يظهر لنا منها إلا ما أخبرنا الحقُّ تعالى من علوّ مرتبته، ولولا ذلك جهلنا قدره، وفي الآخرة يظهر مقامه للخاص [٤٧/أ] والعام، فلا يظهر كماله إلا في الآخرة، وكذلك كمَّل الرجال، لأنها دار ظهور النتائج، وأمَّا الدنيا فإنما هي دار أعمال، فمن طلب ظهور النتائج فيها فقد طلب غير الموضوع وباع آخرته بعرَضِ دنياه، فافهم.

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لما عَلِمَ الله سبحانه وتعالى أنه لابدَّ أن يتكلم في أنبيائه وأصفيائه؛ قضى على قوم بالشقاوة، فنسبوه إلى اتخاذ الصاحبة والولد، حتى إذا ضاق الولي ذرعاً من كلام قِيْلَ فيه، نادته هواتف الحق: (هذا وصفك لولا لطفي بك) فافهم وطِبْ نفساً وقرَّ عيناً بجميع ما يقال فيك، فإنَّ جميع المنكرين رحمةٌ من الله عليك، وإلا لو عكس الأمر وجعلك منكراً عليه كالكافر والعاصي ماذا كنت تفعل؛ فاحمد الله سبحانه وتعالى، واسلك سبيل الأصفياء، وكثرة المدح من جميع الخلق لا تغني عنك من الله شيئاً وأنت عنده بخلاف ذلك، بل جميع المنكرين يفارقونك بالموت، فهل ينزلون معك في القبر يتعصبون عليك ويتولون سؤالك أو حسابك في الآخرة؟.

واحذر حين مَدْحِ الخلق لك أن تُظهر التواضع فتحقِّر نفسك لما يعظمونك، فإن ذلك يزيدك تعظيماً عندهم؛ بل اسكت إيهاماً لهم بأنك تحبُّ المدح بما ليس فيك، هذا هو الأصلح [٤٧/ب] لك دائماً، فإن قال لك الشيطان: هذا مما ينفِّر القلوب منك وأنت تنفع الناس وتعلِّمهم الخير، وإنما يليق هذا الحال بالسيّاح الذين خربوا حالهم؛ فقل له: إنما أنظر إلى المحرك لهم وهو الله تعالى، فإن أقام في باطنهم تعظيماً لي لا يمكنهم أن يحقروني،

وأشهد ذلك فضلاً منه، وإن أقام في باطنهم تحقيراً لي لا يمكنهم التعظيم لي، ولو أظهرتُ لهم كل كرامة. فافهم.

وبالجملة؛ فمن كان قصده التعظيم عند الخلق لم يزل في تكدير، لأنه لابدَّ في الوجود من منكرٍ عليه، وطلبه من جميع الخلق أن يُقبلوا عليه بالثناء والحمد والاعتقاد جهل منه، فلابدَّ له من ذامٍّ ومادح، ولو كان في فضل، نحو الصحابة رضي الله عنهم، وقد كان شخص يذم الإمام علياً رضي الله عنه وينكر عليه، فاجتمع به المنكر فأثنى عليه بحضرة الصَّحابة رضي الله عنهم على خلاف عادته، فقال السيد علي رضي الله عنه: (أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك)، فافهم، فهمنا الله وإياك، فإن من رضي بعلم الله فيه لا يتغيَّر، ولو توجه إليه الثقلان بالذم والتنقيص، ولا يغيّره على الله تعالى شيء، بل شأن العبد الغفلة عمَّا الناس فيه مطلقاً، شغلاً بسيِّده، وقد سمعت هاتفاً على لسان [٤٨/أ] الحقِّ تعالى: «**من شهد الأمور كلها منّي لم يتغيَّر من وجدان ولا فقد، ومن خرج من حضرتي سلَّطت عليه أعدائي، فلا يلومنَّ إلا نفسه والسَّلام**»، فافهم؛ فهمنا الله وإياك.

ومن شأنه: أنه إذا أمر بشيء من الأدب أو نهى عنه ولم يمتثل المأمور أو المنهي ذلك؛ لا يتكدَّر عليه قال الله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾(١) وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾(٢)، وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾(٣) فما دام الحقُّ تعالى يخلق المعصية للعبد لا يمكنه أن يتوب، فإذا ترك الحقُّ تعالى خلق المعصية للعبد تاب العبد ضرورة، ولذلك كانت رحمة الله تعالى يوم القيامة إذا استوفى أهل الحقوق حقوقهم، لعلمه تعالى

---

(١) سورة المائدة، الآية (٩٩).

(٢) سورة الرعد، الآية (٤٠).

(٣) سورة التوبة، الآية (١١٨).

بأنه هو الذي أنطق ألسنتهم بما قالوه، وخلق في نفوسهم ماتخيَّلوه، فسبحانه من حَكَمٍ عَدْلٍ لطيفٍ خبير، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، فافهم ذلك، فأمر الامتثال راجع إلى الله تعالى، فإن كان قُسِمَ له الامتثال فلابدَّ منه، وإلا فليس في قدرة العبد الآمر أن يصيّره ممتثلاً، ولم يرد الله له ذلك، فإذا علمت ذلك فأمُرْ برفقٍ ورحمة وعدم احتقار وازدراء، لأنَّ الخلق محلٌّ لجريان الأقدار، وما وقع فيه المأمور ونُهيَ عنه؛ جائز الوقوع في حقك، فإذا كان قلبك راحماً لا يجيبك الآخر إلاَّ بالإذعان [٤٨/ب] وشُكر الصنيع، لأن قلبه أدرك رحمة قلبك له، بخلاف ما إذا أمرت بنفسٍ واحتقار وعدم رحمة، لا يجيبك منه إلا النفس، فتقوم النفسان، فلا يحصل إلا الإباء وعدم الانقياد، وهذا مُشاهدٌ كثيراً، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يقول في شيءٍ فُعِلَ لِمَ فُعِلَ؟ ولا في شيء تُرِكَ لم تُرِكَ، لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ في حال خدمته له[(١)]، ولا يخفى أن ذلك من الأدب مع الله تعالى لا مع الفاعل، لأنَّ الفعل للشيء والترك له بقضاء الله تعالى وإرادته، هذا أدب أهل الله تعالى؛ لعلمهم بحكمة الله سبحانه في كلِّ واقعٍ في الكون، وأمَّا غيرهم فلا ينتهون عن ذلك إلا إذا ذُكّروا به، وفَرْقٌ بين من ترك الاعتراض ابتداءً وبين من لا يتركه إلا بعد تأمُّل وتفكُّر.

واعلم أن المانع من الأدب في ابتداء الحال الحجاب وإقامة الحجَّة، كقولة: الشرع أمرنا أن ننكر أشياء وأن نقول: الأولى ترك هذا والأولى فعل

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عَشْرَ سنين؛ فما قال لي قطُّ: أُفٍّ، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟. أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٥٦١-٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٣٠-٢٣٠٩).

هذا!، وهذا حقٌّ، لكنَّ القائل جاهلٌ بحكمة الله تعالى فيما اعترض فيه، وأمَّا من اعترض مع علمه بالحكمة؛ فهو معترضٌ باعتراضِ الشرع، لأنه حينئذٍ ناقل اعتراض الله تعالى فيما اعترض؛ ما هو المعترض، فمن ذاق هذا فليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر ويقيم الحدود، لأنه ما يرى شيئاً [٤٩/أ] إلا ويرى الله سبحانه معه، وهو أكمل ممن لا يرى شيئاً إلا ويرى الله، فافهم، هذا مشهد الصّدّيق الأكبر رضي الله عنه، إذا علمت ذلك وأردت أن تنهى شخصاً عن فعله شيء فقل له: (لا تفعل الشيء الفلاني وتب وارجع إلى الله تعالى)، هذا ما على الآمر، والله غالبٌ على أمره، ولا تقل له: لِمَ فعلت؟ لأنه لا يُفيد، لأنه وقع وانقضى، فافهم ذلك.

ومن شأنه: مادام قاصراً عن درجة الفقراء الصَّادقين أن لا يتكدَّر - إذا مَرِض - ممن يزُرهُ من أصحابه ولم يتفقده بنفقةٍ يستعين بها على مرضه، من أجرة طبيبٍ ودواءٍ وغير ذلك، لأنَّ ذلك إن كان خيراً لهم لكونه من حقوق الإخوان فهم الذين تركوه ومنعوا أنفسهم من الخير، وإن كان ذلك شرَّاً لهم وله فقد استراحوا من مشاركته في هوى نفسه، لأنَّ غالب الأدوية لا يحتاج إليها، فإنفاقه ما يعطيه للفقير على حاجة عياله أولى من إعطائها للفقير، لأنه قد يعطيها لليهود أو يصرفها فيما يشيرون به عليه؛ لاسيما إن كان الحكيم أعمى البصيرة، فيجمع بين الباطن والظاهر، أمَّا الفقراء الصَّادقون رضي الله عنهم فهم غافلون عن هذا الأمر، لا يلتفتون إليه بعلمهم؛ لأنَّ الحقَّ سبحانه أقرب [٤٩/ب] إليهم من الخلق، وتضييقه عليهم لشرفهم عنده، فلا يشهدون ذلك بُخلاً منه، لأنه تعالى لا يمنعُ عن بخل، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يرى بيده نفعاً ولا ضرّاً لأحدٍ دون الله تعالى، وأنه لو توجه الخلق كلهم إليه فسلَّكهم وأرشدهم وانتفعوا به؛ لا يشهد له بنسبة في

هدايتهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(١) وعلامة ذلك أن لا يرى له رفع منزلة على أحد من آحاد الناس المجتمعين عليه؛ وكيف يليق ذلك؛ وما هو شيخٌ إلا بهم، ولذلك لو خرج في سوق لا يعرفه فيه أحد ونادى بأعلى صوته: (أنا شيخ من الأولياء)، لا يلتفت أحد إليه ويسخرون منه، وإذا خرج والفقراء ماشون قدامه ووراءه مطرقين رؤوسهم، قال الخلق: (هذا شيخ من الصّالحين)، ولو لم يعرفه أحد، لأنّ هيئة المشيخة قد حصلت باجتماع التلامذة حوله.

واعلم أنهم ربما كانوا أكثر عبادةً منه لما دخل به من البلاء فإنه طول نهاره مع الخلق مضيّعاً لحقوق الله سبحانه وتعالى، وإن اشتغل بذكرٍ أو وردٍ فهم ملازمون له فيه، وما زاد على ذلك يفضِلُونه به، فهم أحسن حالاً منه وأقل آفات، ولكنّ غالب الخلق إنما يعظِّم المشايخ بالتقليد وانتشار [٥٠/أ] الصّيت، ولمّا عَلِمَ الفقراء القاصرون من الخلق ذلك اجتهدوا في أول أمرهم حتى تحصل لهم مرتبة المشيخة وكثرة المعتقدين، فلما حصلت لهم تركوا العمل والصوم والسّهر والصّمت والورع، وأوهموا الخلق أنهم لا يغفلون عن الله تعالى طرفة عين، وأنّ الأعمال الظّاهرة إنما هي للمبتدئين، فطول نهارهم يلغون مع الخلق ويضحكون، وتلامذتهم طول نهارهم يذكرون ويقرؤون، فافهم.

ومن علامة عدم رؤية نفسه على آحاد الفقراء أيضاً؛ أن لا يتغير منه شعرة لو أعرض عنه تلامذته بأجمعهم واجتمعوا بشخصٍ آخر من أهل الخير من أقرانه، فإن تغير فهو منازع للربوبية، ولا يخفى حاله؛ لأنه يطلب أن يكون شريكاً لله تعالى في تعظيم الخلق له، ولو كان صادقاً في العبودية لما فرّق بين هداية الخلق على يديه وبين هدايتهم على يد غيره، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الفاعل وحده على يد من يشاء من عباده؛ فافهم.

---

(١) سورة القصص، الآية (٥٦).

واعلم أن مَنْ هذا حاله لا ينبغي له أن يتصدر لطريق المشيخة والتسليك، لأنَّ عليه بقية من علاج نفسه ودسائسها، وقد قال سيدي أبو الحسن الشَّاذلي رضي الله عنه: احذر أن يكون إبليس أعلى منك في الأدب مع الله تعالى [٥٠/ب]، قيل: وكيف ذلك؟ فقال: لأنه لم ينازع الله تعالى في وصفٍ من أوصافه قط. وقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين، وغاية أمره أنه خالف الأمر فاستحقَّ اللعنة والطرد، ومخالفة الأمر أهون من طلب العبد أن يكون شريكاً لله عز وجل فيما يستحقه على عباده، انتهى.

والمُوقع للعبد في هذه المصائب حبُّ الرياسة، ومبادرة التصدِّي لهذا الباب قد تأهله له، وقد كان أهل العصر الخالي رضي الله تعالى عنهم لا يتصدر أحد منهم لهذا الباب إلا بعد رسوخه وتمكنه في مقام البقاء، وليس بعده مقام إلا القطبية، لأنه حينئذٍ يصدق عليه حديث: «**فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق**»[١]، الحديث، فلا ينطق حتى ينطق، كما كان حال سيِّدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، فيأمن حينئذٍ من الدعوى ويسدِّد ويحفظ في أقواله وأفعاله، ومن ادَّعى وصوله إلى هذه الدرجة فلا ننكر عليه بل نَكِلُ أمره إلى الله تعالى، فإن يكُ كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً نكون قد لزمنا معه الأدب، ومواهب الله سبحانه وتعالى لا تنحصر على عباده، وظهور الكرامات ليست بشرط في الولاية، إنما يُشترط امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، فيكون أمره مضبوطاً على الكتاب والسنة، فمن كان كذلك فالقرآن شاهدٌ بولايته، وإن لم يعتقد فيه أحد، ولا كان [٥١/أ] له أتباع ولا مريدون.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبُّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعينه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه»، أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢).

إذا علمت جميع ما تقدَّم فاحذر أن ترى لك عزة على المريدين الذين يجتمعون بك وتقول في نفسك: هم محتاجون إليَّ ولست محتاجاً إليهم في تعليم شيء؛ لأنَّ هذا جهل وهو دليل على أنك لم توفَّ مقام الفقر حقّه، وأنك مستدرجٌ في طريق الشيطان فلا يصلح منك التربية لأحد، لأنك تشهد فقر المريد إليك، وهذا يحجبك عن فقرك إلى ربك حالاً، لأنَّ حالك هذا لا يعطيك إلا الغنى بالله تعالى، وذلك يطلب العزة ضرورة؛ فافهم.

أما المحققون الراسخون؛ إذا رؤوا المريدين يفتقرون إليهم فيما عندهم من الله تعالى شكروا الله تعالى على ذلك، حيث ألزم الله تعالى بهم فقراء إليهم ينبهونهم بصفة فقرهم إليهم على فقرهم إلى الله تعالى، فإنه ربما لو لم يظهر صفة فقرهم إليهم لنسوا فقرهم إلى الله تعالى، فالمحققون يرون حقَّ المريد إليهم أعظم من حقّهم عليه، لأنه شيخهم بالحال وهم مشايخه بالقول والتربية، فتأمَّل هذا المحلَّ فإنه من النفائس والله يتولى هداك.

ومن شأنه: أن لا يتغيَّر بشيءٍ برز في الكون؛ لأنَّ الفقير لا نفس له بقوة قربه من الحقِّ، فهو مع سيِّده لا يفارق مراقبته، ولا يبغي به بدلاً، ومَنْ هذا شأنه فهو ملازم للأدب مع كلِّ شيء لأنه يشهد أنه ما من دابة [٥١/ب] إلا والحقُّ سبحانه وتعالى آخذٌ بناصيتها، وما تتحرك ذرة إلا بإذنه، هذا مشهد أهل القرب، وقد قال الجنيد رضي الله عنه: لي منذ كذا وكذا لم تستبشع نفسي شيئاً مما وقع في الكون، لأني علمت أنَّ الدنيا بنيت على ما تكرهه النفس من الأكدار والمصائب، فكلُّ شيء ورد عليَّ منها كان على الأصل فيها، وكلُّ شيء ورد عليَّ فيها من ضد ذلك من الأمور المحبوبة للنفس كان على خلاف الأصل، فأشكر الله تعالى عليه؛ فأريد أن أقلب الوجود عن أصله الذي خلق عليه لأجلي، فلا يتلقاني إلا بما أحب، هذا جهل.

وقال القطب الرباني سيدي الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه: لو أن

الخلق فريقان: فريقٌ عن يميني يبخرني بالند والعنبر[١]، وفريقٌ عن يساري يقرض لحمي بالمقاريض؛ ما نقص هؤلاء ولا زاد هؤلاء عن كونهم مظاهر للأقدار. فاعلم ذلك، واسلك طريقهم إن كنت تريد اللحاق بهم.

ومن شأنه: أن لا يتصدَّى لباب التسليك والمشيخة إلا أن يكون يعرف تلامذته من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[٢] هكذا قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: أعرف تلامذتي من ذلك اليوم، وأعرف من يفتح له على يدي ممن لا يفتح له، وأعرف من كان عن يميني ومن كان عن شمالي.

إذا علمت ذلك فلمن هذا [٥٢/أ] قدمه أن يمنع تلامذته من زيارة غيره من المشايخ، لأنَّ كشف المتمكنين قلَّ أن ينخرم، و﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[٣] وأما من ليس له هذا القدم فليس له أن يُحجِّر واسعاً على الخلق لأجل قيام ناموسه؛ حتى ينسب التلامذة إليه دون غيره ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤] فما قسم للعبد من انتفاع الناس به على يديه لابدَّ من وقوعه، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٥] ولن تخرج نفس من الدنيا حتى تستوفي ما قسم لها فيها، والموقع للقاصر في ذلك دعوى الكمال؛ وأنهم عارفون، وهذا غلط منهم، لأنَّ من عرف الله تعالى لا يخفى عليه أمر تلامذته، فمنعُ مثل هؤلاء عن زيارة غيرهم منعٌ للخير بالجهل؛ وإن كان المانع هو الحقُّ، لأنهم لو قسم لهم الاجتماع بغيره وقع، فأوقات الاجتماع والافتراق بقدر معلوم، فهم مؤاخذون بقصدهم ذلك، ولا يكون إلا

(١) لم ترد في المطبوع.
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٧٢).
(٣) سورة الرعد، الآية (٣٩).
(٤) سورة يوسف، الآية (٢١).
(٥) سورة الأعراف، الآية (٣٤).

ما يريد، فلا يحل لقاصر أن يتشبه بأكابر الأولياء الذين كانوا يمنعون تلامذتهم الذين علموا بالكشف الصحيح أنهم لا ينتفعون إلا على يديهم، ويظن أنه منهم ويمنع كمنعهم؛ استناداً لما في رسائلهم من الأمر بذلك، من غير أن يُكشف له [٥٢/ب] ذلك في حقّ من يمنعه من الزيارة بخصوصه؛ فافهم.

واعلم أن شرط المسلِّك أن يعتمد في التسليك على ما يلقيه الحقُّ في قلبه، فيعطي كل شخصٍ من جلسائه ما يقبله استعداده، وأمَّا من يطالع كلام الصَّالحين ويلقيه لكل جليس على حدٍّ سواء، فليس بمسَلِّك؛ لأنه لم يتكلم بذوقه، إنما تكلم بحكاية عمَّا ذاقه غيره، ومن هذا الملحظ خُصَّ موسى عليه السَّلام من دون الأنبياء بالمراجعة للنبي ﷺ ليلة الإسراء في التخفيف عن الخمسين صلاة إلى الخمس، لأنه كان إذ ذاك أعلم منه بهذه الأمور لذوقه في بني إسرائيل بما ابتليَ به منهم، فتكلَّم عن ذوقٍ وخبرة.

إذا علمت ذلك فليس كلام الجنيد وغيره، سواءً ناسبَ حال الجليس أو لم يناسبه، ويفارقه التلميذ فيقول لإخوانه: فاتكم اليوم كلُّ حكاية تدهش العقول، فيظنون أنهم سلكوا بسماع الكلام وهم لم يذوقوه، لأنَّ كلام الكمل إنما يذوقه بعض الذوق من هو في درجتهم، إذ لا يتَّحد اثنان في ذوق، وقال شيخنا رضي الله عنه: لو طالعَ الفقير من كتب القوم عدة رمل عالج في مدة عمر نوح، لا يصير صوفياً بمحض المطالعة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط [٥٣/أ]، ومن لم يقذف الله تعالى في قلبه نوراً يفرِّق به بين الحقِّ والباطل لا يصلح لهذا الباب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(١) وسبب هذا كله أن القاصرين لما اجتمعوا بمشايخهم زماناً ولم يفتح لهم بشيء، وانتظروا الإذن فلم يؤذن لهم؛ خافوا أن تفوتهم المشيخة وقصدهم

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

الخير، لكنهم قاصرون محتفون بآفات لا ينجو منها أحدٌ في الغالب كما يُعلم مما سيأتي في الباب، فجلسوا يسلّكون التلامذة القاصرين ويعمدون إلى كتب المشايخ المتقدّمين ورسائلهم، فيختصرونها وينسبونها لهم ويأمرون التلامذة بكتابتها وترجمة أسمائهم عليها، ويوهمونهم أنها من كلامهم، وكل نحويٌ ولغوي يقدر على هذا الفعل، وهم يظنون أنهم يتكلّمون بالعلم اللّدنّي، ذلك إنما هو كلام استفادوه من رسالة القشيريّ أو عوارف المعارف أو غيرهما، والتلامذة ليس عندهم شيء منها، ولو كانت عندهم لنهَوهم عن مطالعتها؛ خوفاً أن يعثروا على الكلام الذي كانوا يتكلّمون به؛ فيقلُّ اعتقادهم فيه، لا خوفاً على التلامذة، فرحم الله أمرأ إذا عرف اعترف، ويقولون في المثل: ما هلك امرؤ عرف قدره.

وكل مسلّك لا يكون يقدر على [٥٣/ب] استنباط الأحكام والآداب من الكتاب والسنة لو فقدت جميع الكتب النقلية فليس بمسلّك، وقد تقدَّم أننا ألَّفنا كتاباً ذكرنا فيه أسماء علوم الأولياء؛ فراجعه تعرف قدر الأولياء والمسلّكين، وقد قال سيّدي أبو السعود بن أبي العشائر رضي الله عنه: من لم يكن كتابه قلبه لا يصلح لشيء من هذا الباب.

واعلم أن العارفين يعلمون أنَّ الحقَّ في التغيير والتحويل ليلاً ونهاراً؛ لتجدُّد الشؤون التي يظهرها الحقُّ تعالى كلَّ يوم لقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(١) فلذلك نهوا المسلّك أن يسلّك من الكتب، لأنَّ لكلِّ زمان دولةً ورجالٌ، كلام البشر لبعضهم إنما هو بحسب قابليتهم في ذلك الآن، فأيُّ فائدة للتلميذ الآن بذكر ماكان الجنيد أو أبو يزيد أو معروف أو غيرهم يقولونه لتلامذتهم؟ لأن الأمراض تتجدد في القلوب في كلِّ زمان، فكلُّ زمان لأهله أمراض غير أمراض أهل القرن الذي قبله، بل قال شيخنا رضي الله عنه: إنَّ

(١) سورة الرحمن، الآية (٢٩).

كلِّ وقت له مرض جديد، بل كل نفس لها حال غير الآخر كما يشاهد ذلك أهل الله تعالى، وهي مرتبة الكمّل من الرّجال أصحاب الأنفاس رضي الله عنهم أجمعين. فكانوا رضي الله عنهم يعطون كل جليس حقه، ويعرفون من يفتح لهم على يديهم، [ولذلك كانوا [٥٤/أ] يرسلون وراء التلميذ ليأتي من بلاد بعيدة ليأخذ وديعته التي جعلها الحق على يديهم](١)، وكانوا يراعون تلميذهم وهو في الأصلاب، كما وقع لشيخنا رضي الله عنه مع شيخه، وكما وقع لسيدي الشيخ محمد بن هارون مع سيدي الشيخ إبراهيم الدسوقي، وكما وقع لسيدي أبي السعود ابن أبي العشائر مع سيدي حاتم، وكما وقع لسيدي الشيخ محمد المغربي مع سيدي الشيخ عبد الرحيم القناوي رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك؛ والله يتولّى هداك وهو يتولّى الصّالحين.

ومن شأنه: أن يحذر من الألفاظ التي ظاهرها الدّعوى والتزكية للنفس كقوله: (نحن ما بقينا ناس إلا من حين اجتمعنا بالشيخ الفلاني)، وكقوله: (الكشف إنما يقع للناقصين، والكاملون لا كشف لهم)، مُوهِماً الحاضرين أنه كامل، حيث لم يقع له كشف على شيء؛ أو كشف ولم يصادف الواقع، كما يقع ذلك كثيراً للقاصرين، لأنهم يكشف لهم عن الأمر فيتكلمون به، فيقع بخلاف ذلك، وهم صادقون فيما أخبروا به، لأنَّ المحو والإثبات واقعٌ ليلاً ونهاراً، والحقُّ لا تقييد عليه فيما يفعل، فهم يظنون أنَّ الأمر باقٍ على ما شهدوه رضي الله عنهم أجمعين، فلهذا كان من الأدب السكوت على ما [٥٤/ب] يكشف ولا يبرزونه إلى الوجود حتى يبرزه الله تعالى، فإن وافق كان؛ وإلا كانوا قد لزموا الأدب مع الله تعالى.

وبالجملة فأهل الكشف عزيزون في الوجود، على أنَّ العارفين أجمعوا على أنَّ من لم يكن مأكله حلالاً لا يعرف يفرق بين الخواطر وهذا عزيز، فكيف بالكشف؟ فافهم ذلك.

---

(١) ما بين معقوفتين لم يرد في المطبوع.

ومن شأنه: أن يحبَّ من يحسن إليه لله تعالى لا لإحسانه، وهذا لا يُدرَك إلا ذوقاً، لأنَّ تمييز ذلك عَسِرٌ، لاسيما والقلوب جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يُظهر عند زيارة من يستحي منه من المشايخ وغيرهم ممن يعتقده ناموساً إطراقاً زائداً على حالته التي يكون عليها إذا خلا بنفسه، لأن المَزُورَ إن كان من الفقراء فإنما ينظر إلى الباطن لا إلى الجوارح الظاهرة، والمؤمن ينظر بنور الله، وإن كان من أبناء الدنيا فليحذر الزائر من مقت الله له لريائه، وقد قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: لو دخل عليَّ شخصٌ فسوَّيت لحيتي بيدي لدخوله لخِفت أن أُكتب عند الله تعالى في جريدة المنافقين، فافهم ذلك.

ومن هذا القبيل ما إذا دخل عليه من يعتقد فيه الصَّلاح وهو على حاله، يخرج عند المعتقد في اعتقاده فيه، كما إذا دخل عليه وهو يمزح أو يكثر من الضحك، فينبغي أن لا يتغير عن الحالة التي يكون عليها لأجل الداخل، بل يستمر [٥٥/أ] على الضحك أو المزاح الذي كان عليه أو يفعله لو لم يدخل المعتقد فيه، فإن ذلك خرق لنظام النفس الذميم، وهو أهون من حصول النفاق والرِّياء الحاصل بترك المزاح والضحك.

ومن شأنه: أن لا يكون عنده طلب لحالة يعظم بها في عيون الخلق ولا يعظم بها عند الله تعالى، كلبس الفرجيات الصوف الرفيعة والعمامة والعذبة، لأنَّ ذلك من قلَّة المعرفة بالله تعالى، ولذلك ستر الكُمَّل مقامهم عن الخلق لحكمة الموطن الذي هم فيه، وذلك من عناية الله تعالى بهم، فلا يريدون الظهور في محلٍّ نُوزعَ فيه سيِّدُهم في الألوهية، وهذا من كمال تحقيقهم به، لأنَّ سيِّدهم استتر في الموطن الذي هم فيه، فلذلك جروا مع العامة على ما هي عليه من ظاهر الطاعات التي لم تجر العادة في العرف أن يسموا بها من

أهل الطاعات، وستروا الكرامات وخرق العوائد فلا يعرفهم إلا من كان في مقامهم، فهم ضنائن الله تعالى وعرائسه فلا يشهدون سواه، ولا ينصرم هواه إليهم، وأين هؤلاء ممن يطلب الشهرة؟! فهو يتريض ويختلي ويتلو أسماء يستخدم بها الجان في صرف وجوه الخلق إليه دون غيره، وذلك لا يزيده من الله إلا بعداً ومقتاً.

ومن شأنه: أن يخفض جناحه للمؤمنين امتثالاً لأمر الله تعالى[1] لا لعلة من العلل [٥٥/ب]، كنسبته إلى حُسن الخُلق وتهذيبه، وأنه متخلق بأخلاق النبي ﷺ، وأنه ماتت نفسه، وأنه أهل لأن يرقي[2] المريدين؛ لأنه فرغ من علاج نفسه وأخلاقها وغير ذلك، فاعلم ذلك.

فلا ينبغي له أن يتكلّم بالكلام الحلو لتلامذته إلا لمصلحتهم فقط لا خوفاً أن ينفروا من حوله، لاسيما إن كانوا يجرُّون إليه نفعاً من كسوته ونفقته وغير ذلك، لأنَّ الفقير الآن دائماً أكله على الناس إلا من يأكل من عمل يده وهذا قليل، فغالب ما بيدي الفقير الآن صدقات الناس وأوساخهم وهداياهم، نسأل الله العافية.

فالواجب على الفقير أن يكون دائراً مع الحقّ وأتباعه لا مع حظّ نفسه، فلا يُرغّب التلامذة في طريق الصّالحين إلا محبّة لله تعالى ورسوله ﷺ، وعلامة ذلك أن يرغّب التلميذ إذا شاوره أن يأخذ عن أحد من أقرانه كما يرَغّبه إذا أراد أن يأخذ عنه، فكثيراً ما يقع من القاصرين لمّا يشاورهم أحدٌ في الأخذ عن أحد من أقرانهم أن يقولوا له: أنت بخير، لا تحتاج إلى شيخ، لأنك تُصلّ الفرض وتتلو القرآن، وتشتغل بالعلم، وأيش المقصود. بخلاف ما إذا

---

(١) قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٨]. وقال رسول الله ﷺ: «أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد». أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) في المطبوع: يزن.

أراد أن يأخذ عنهم، ويقولون له: الطريق أمراضها كثيرة، ولابدَّ للعبد من شيخ. ويبيّنون له أن فيه كل عيب، فافهم ذلك، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[1].

ومن شأنه: أن لا يفرح بزيارة [٥٦/أ] الناس له في وقت حزبه وأوراده ومحافله التي فيها قوة للنفس، بل يجب عليه أن يحبَّ أن لا يقام له تعظيم في قلب أحد، والخمول نعمة وكلُّ أحد يأباه، وقد قال شيخنا رضي الله عنه في رسالته: (واسْعَ إلى زيارة إخوانك قبل أن يأتوا إليك)، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يستر حالته وعورته الباطنة ما أمكن، وليحذر من استلذاذه بهيئة الخشوع وحصول الرعدة، وضم الأكتاف وإطراق الرأس، إلاَّ أن يكون مغلوباً؛ وليردَّ ذلك ما استطاع؛ فإنَّ حُكمَ من ظهر منه شيءٌ من ذلك مع القدرة على دفعه؛ حُكْمُ من جلس في بيت الخلاء مكشوف العورة مع قدرته على رد الباب، فكلُّ من يراه يلعنه، وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصاً قد ضَمَّ أكتافه في الصَّلاة؛ فضربه بالدرَّة وقال له: (ويحك الخشوع إنما هو في القلب)، فاحذر ذلك، واحذر إذا رأيت هذه الحالة في شخص أن تحمله على الرِّياء، والله يتولَّى هداك وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن شأنه: أن ينظر في مصالح إخوانه ويأمرهم بالحرفة وعمل اليد ولا يعطلهم بالأخذ منه في الولائم وغيرها ولو طلبوا ذلك، لأنهم قاصرون عمَّا يصلحهم، وكل ساعة تمر على العبد وهو في حرفته التي يعود [٥٦/ب] منها نفع عليه وعلى عياله أفضل من حضور ألف وليمة معه لا يتعين عليه حضورها.

وكذلك لا ينبغي له أن يعاهدهم على حضور مجلسه، لأنَّ ذلك قلَّة أدب وهو دليل على جهله، لأنَّ أوقات الاجتماع والافتراق مقسومة، فالأدب ترك المعاهدة وما سبق لابدَّ منه، وقد قال العارفون رضي الله عنهم: (من لا ينفع

(١) سورة الفجر، الآية (١٤).

تَحطُّه لا ينفع قوته) فالعارف من يسلك الناس وهم في حرفهم. وقد رأيت في عالم الخيال طائفة من الفقراء وهم متجردون عن أعمالهم الصالحة، وهي عنهم بعيدة كقطع الجبال، وليس معهم إلاَّ سيئاتهم. فقلت لهم: ما بال أعمالكم الصالحة عنكم بناحية؟ فقالوا: أخذها أصحاب النقيمات التي كنا نأكلها في دار الدنيا، لأنَّ كلَّ طاعة تقوينا عليها بلقمهم فثواب تلك القوة لهم. انتهى.

فلذلك حثَّ الشَّرع على العمل باليد، ولم يزل العارفون رضي الله عنهم يحثون على ذلك؛ وعلى الورع عن الأكل من مال غيرهم ما أمكن، وقد كان جدِّي علي الشعراوي رضي الله عنه من أهل الورع، حتى كان لا يأكل من لبن الجاموس؛ لأنه لا ينضبط في الغالب على الأكل من مال مالكه، وكذلك كان لا يأكل طير الحمام الذي يلتقط البذر من الزرع، وكان رضي الله عنه إذا طحن يرفع الحجر وينفضه من الدقيق الذي يكون فيه ويغسله ثم يطحن، وكان [٥٧/أ] توقَّف آخر أمره في أكل عسل النحل؛ لأكله من أزهار الناس المملوكة.

وقد جاء رجل إلى الحسن البصري رضي الله عنه ليعلِّمه الورع، فقال له: يا أخي أنا لا أصلح لأن يؤخذ عني ورع، لأني أكلت من أموال السلاطين، ولكن امضِ إلى فلان في الكوفة في مزرعته، وله بقرة يرعاها فيها، قد جعل لها فيها بئراً تشرب منها، وتبناً تأكله. فمضى إليه فوجده على الحالة التي وصفها له فقال له: ما حاجتك؟، فقال: جئتك تعلِّمني الورع، فقال: من أرسلك؟، قال: حسن البصري، فقال: غفر الله تعالى لأخي الحسن، كان عهده بشيء وتغيَّر الحال، فقال: وما سببه؟ فقال: اشتغلتْ بصلاتي عن البقرة فخرجتْ عن مزرعتي إلى مزرعة جاري، ورجعتْ وفي قوائمها طين، فاختلط عليَّ طيني، فلا أصلحُ لأن يؤخذ عني ورع، امض إلى غيري، فهكذا كان الفقراء رضي الله عنهم؛ فافهم ذلك.

وكل شيء فاتك من طعام الناس ومالهم فاحمد الله سبحانه وتعالى على فواته، ولا تحزن على شيء فاتك، والله يتولّى هداك وهو يتولّى الصالحين.

ومن شأنه: أن يكون ناصحاً لنفسه ولإخوانه من غير قصد ولا دعوى ورؤية نفس عليهم؛ بشرط أن لا يعوقه ذلك عن علاج أخلاقه ودسائسه، فإنهم يقولون: (يقبح على معلولة صدق تصفُ دواءً للناس)، هذا من باب الزجر [٥٧/ب] عن الغفلة عن عيوبه، وإلا فالأمر بالمعروف واجب على الشخص لغيره، وإن كان هو مرتكب ذلك الشيء الذي ينهى عنه فيأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه، فإن اختل أحدهما لم يسقط الآخر؛ فافهم ذلك.

ومن شأنه: إذا ابتلي بالتصدي لباب التسليك قبل تأهيله له أنه ينبغي له أن يرى أن غير تلك الحالة التي هو عليها أولى دائماً لئلا تميل نفسه إليها فيهلك، وذلك لضعفه عن تمييز حظ النفس من غيره، فإن فَتَحَ باب التلقين لكلمة التوحيد يرى أن تركه لذلك وتلقينه هو كلمة التوحيد من غيره كان أولى، وإن كان ذلك مقدَّراً لأننا نؤمن بالقدَر ولا نحتج به، وذلك لما يشاهد من قلَّة جدواه وعدم بنائه على أصل صحيح، لأنَّ شرط التلقين عند القوم أن لا يكون إلا لمريدٍ ماتت حظوظ نفسه الدنيوية والأخروية، وهذا شرط عندهم، ولا يخفى أن التلقين الآن في عُرفِ العوام الذين لم يعلموا رتبة الشيخ المسلِّك؛ علامة على أن صاحبه وليُّ الله تعالى، ولا يخفى ما في ذلك من التعرض للآفات التي لم يسلم منها إلا القليل، فينبغي لمن يلقّن الناس أن يراه ابتلاءً من الله تعالى، ويلقّن على سبيل التشبُّه بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين (ست مرات)، ويسأل الإقالة من ذلك، ويأخذ [٥٨/أ] خواطر إخوانه أن يدعو الله تعالى بالخلاص من ذلك، فذلك دليل على صدق كراهيته لهذا الباب.

وإن اختلا واعتزل يرى أن ترك ذلك والخلطة أولى، وإن كان يحصل له

بها نعم؛ لأنَّ لها أصلاً عند بعض القوم، لأنهم يجدون في الفرار من الخلق راحة لنفوسهم، وحرجاً وضيقاً في مشاهدتهم، ولو نظروا وجه الحقِّ فيهم ما فرُّوا منهم وكانوا يخلون بنفوسهم، لأنَّ من شهد أنَّ الله تعالى مع كلِّ شيء كيف يفرُّ منه؟ والرجل إنما هو من يكون مع الخلق بجسده ومع الحقِّ بباطنه.

واحذر من الاحتجاج على مشروعية الخلوة باختلائه ﷺ بغار حراء، فإنه قلة أدب؛ لأن تلك الأمور لا يذوقها غير كمَّل الورثة الخارجين عن الهوى الثابتين على القدم؛ فافهم.

واعلم أنَّ طريق السُّلوك بالخلوة والرياضة طريق جماعة من المشايخ وليست بطريق أشياخنا رضي الله عنهم، إذ هم راضون عن الله تعالى في كلِّ حالةٍ أجراها عليهم، وليس لهم نظر ولا تطلع إلى مقام ولا حال في الدنيا والأخرة ليتربصوا لحصوله؛ فافهم.

واعلم [٥٨/ ب] إن كان قُصِد بالخلوة أن لا يرى الأغيار؛ فالأغيار مع من لازم الخلوة، لأنه يرى نفسه والحيطان والسقف والفرش والإبريق وما يأكل وما يشرب، فالذي فرَّ منه ملازمه لم يفارقه، فليس هو في خلوة، ولأنَّ من كان شيخاً كاملاً لا يخاف من تفرّقه عن الحقِّ برؤية الخلق حتى يختلي للتقوّي على مخالطة الخلق، فدعواه بخلافها، على أنَّ غالب هؤلاء مدّعين بنفوسهم لا بالله تعالى، لأنَّ الخلوة بالله تعالى لا تكون في كلِّ زمان إلا لواحد هو القطب الغوث، لأنه الذي ينفرد به الحقُّ ويخلو به دون خلقه، فإذا فارق هيكله المنوّر انفرد بشخص أخر، لا ينفرد بشخصين في زمانٍ واحد، وهذه الخلوة من علم الأسرار التي لا تذاع، وورد بها الكتاب والسنة، ولا يشعر بها إلا أهل الله تعالى وخاصته، قاله شيخنا رضي الله عنه وأرضاه.

واعلم أنه ليس في هذا الذي قررناه إنكار على من يختلي، لمشروعيتها عند بعض القوم، وإنما المراد أنه ينبغي أن لا يركن إلى شيء من أحواله، لأنَّ

في ذلك هلاكه، وقد يحجب أحداً من بلادٍ بعيدة أو موضع بعيد لحاجة ضرورية؛ فلا يتمكن من الوصول إليه، وهذا من أقبح ما يترتب على الخلوة، لأنّ فيه قيام ناموس على الزائر إذا جاء ووجد الشيخ مختلياً يكاد أن يخرج للشيخ، وكفى بهذا مصيبة عند أهل الله تعالى [٥٩/أ]، بخلاف ما إذا جاء فوجده يمزح ويضحك، ولا ينبغي لمن ليست الخلوة طريقته أن ينكر على من يختلي، لأنّ كل أحد ملازم ما وجد قلبه عنده، فافهم.

وإن ركِبَ وجماعة يمشون حوله بحيث يتميز، يرى أن تلك الحالة أولى مما لا يخفى، ولأنه ﷺ منع أبا هريرة رضي الله عنه أن يمشي خلفه، هكذا ينبغي له أن يحمل حال نفسه دائماً، وأمّا الإنكار عليه من غيره وحمله على أنه يحبُّ الرياسة والشهرة فهو حرام عليه، والواجب على كلّ مسلم أن يحمل حال أخيه المسلم على محامل كثيرة، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق كما قاله النووي في «شرح المهذب» فافهم ذلك.

وإن أقبل الناس عليه بالتعظيم والثناء وتقبيل الأيدي والأرجل يرى أن ذلك ابتلاء من الله تعالى بقلبه لا بلسانه، وهكذا في جميع أحواله التي ظاهرها الصّلاح، فيشهد أعماله دائماً بغير الرياء والنفاق والمخالفة للسنة، وإن فعل صورة فعله ﷺ، لأنّ الخلق قاصرون عن حقيقة الاقتداء به ﷺ إذ لابدّ في عبادتهم - صلاةً كانت أو غيرها - من الخلل والنقص، وهذا من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وكان الفضيل بن عياض رضي الله عنه يقول: [٥٩/ب] (من أراد أن ينظر إلى مُراءٍ فلينظر إليّ)، وقال معروف الكرخي رضي الله عنه: (أشتهي أن أموت في بلدٍ غير بغداد)، فقيل له: (ولِمَ ذلك؟)، فقال: (خوفاً أن لا يقبلني قبري فأفتضح، ويسيء الناس ظنهم بأمثالي)، فرضي الله تعالى عنهم، وكذلك طلب جماعة من الفقراء كرامة من سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني رضي الله عنه وهم مسافرون؛ وقد أقبلوا

على بلد فقالوا: (يا سيدي أرنا ذلك قبل طلوع البلد)، قال: (على الرأس)، فطلعوا إلى البلد ولم يروا شيئاً، فسألوه ثانية فقال: (وأيُّ كرامةٍ أعظم من أنَّ الله تعالى أمسك الأرض لنا حتى نمشي عليها، ولم يخسفها بنا)، فانظر يا أخي أحوال العارفين، والله يتولّى هداك؛ وهو يتولّى الصالحين.

ومن شأنه: أن يقتدي بالنبي ﷺ في أصل الأفعال الشّاقة على النفس من قيام الليل، واحتمال الأذى بغير حقّ ونحو ذلك، ولا يقتصر على الأشياء الخفيفة على النفس كالعذبة ولبس الصوف والسواك ونحو ذلك، فمثال من يقتصر على ما ذكرنا من الأمور الخفيفة الظّاهرة وهو يرتكب في الباطن ما يستقبح؛ مثالُ من تضمَّخ يوم الجمعة بغائط كلب في جميع بدنه وثيابه، فلما خرج إلى الجمعة رش عليه بعض ماء ورد أو تبخر، فقال له بعض الناصحين: [٦٠/أ] (اترك هذا التطيب ونظّف بدنك وثوبك فإنه أهم)، فقال لهم: (لا أترك التطيُّب ولا أفعل إلا السنة)، وأهمل نظافة بدنه وثوبه من النجاسة، فأيُّ فائدة للتطيب المذكور مع قذارة ما تحته وقبح رائحته؟ فهكذا نظر العارفين، وكلُّ من فتح الله تعالى بصيرته وانكشف ما فيه من الخبائث اشتغل عن تزيين الظّاهر بأمور يستغرق العمر في علاجها، وكان الفضيل بن عياض رضي الله عنه يبكي ويقول: (من أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إليّ)، فرضي الله عنه، فأين هذا ممن يشهر نفسه بالصّلاح بالزيّ والمنطق وغير ذلك من مواسم الصّالحين.

وإذا علمت ذلك فابدأ بالأمور المهلكة، فنظّف باطنك منها ثم بعد ذلك افعل الأخف، فمن ذلك محبّة الدينار والدرهم وسائر أمتعة الدنيا، وقد كان ﷺ لا يبيت على معلوم، وكان ﷺ يخرج إلى السوق فيأتي بالملح واللحم في حجره وفي يده، ولا يمكّن أحداً من حمله ويقول: «صاحب المتاع أحقُّ بحمله»، وغير ذلك من أخلاقه ﷺ وأخلاق أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

وليحذر من خوف سقوط حرمته إذا خرج إلى السوق وخالط السوقة، فإن هذا رعونة نفس ورؤية نفسه أنه خير منهم، وذلك خطأ منه، فإنّ السوقة خلق خير كثير، وهم أكثر [٦٠/ب] نفعاً للخلق منه، ومن تأمّل الطبّاخين والزياتين وغيرهم من الخبازين؛ وجد نفسه لا يجيء خادماً لهم، لأنهم طول نهارهم في منافع الخلق، وهو أكثر أوقاته فارغ ليس بيده حرفة يتعدى نفعها إلى أحد، ولكن كلّ شيء يفي بالقلوب، إذا علمت ذلك فينبغي له خرق ناموسه وعطامه، ولا يتقيد بحالة واحدة كالاعتناء بالعمامة الرفيعة والصوف الرفيع ونحوهما؛ بل يكون على التيسير في جميع أموره، فيلبس ما وجد، ويأكل ما وجد، ويخبز الخبز، ويكنس البيت، ويطبخ الطعام، ويخدم الأرامل والأيتام، ويملأ الماء لهم، ويتكلّم مع العوام كأنه منهم، ولا يتميز عنهم بشيء، فإنّ ضد هذه الأمور تجعل له نظاماً ورياسة، ولذلك يطلب أن يساعد صاحب الحاجة فلا يمكّنه من ذلك ويقول: (كيف أستخدم الشيخ) ولم يعلموا أن الشيخ أحقّ بالخدمة من غيره، لأن نفسه تهذبت فهو أسرع للانقياد للخدمة من غيره، لكن لما رؤوا رياسته ونظامه لا يسهل عليه خرقهما؛ تركوا استخدامه، لمّا قام في قلوبهم أنه يكره ذلك في الباطن، ولقد كان الشيخ جلال الدين المحلي عمدة المحققين بمصر رضي الله عنه يستخدمه العجائز وأهل حارته في خبز الخبز وشراء الزيت الحار ونحوهما من السوق على الدوام، لما قام عندهم من عدم نفسه.

وليحذر من نصرة نفسه وقوله: إنما يفعل ذلك لمصلحة [٦١/أ] الخلق والفقراء، لأنه ينبغي للشيخ أن لا يكاثر تلامذته بالمجالسة، لأنها تُذهب حرمته من قلوبهم؛ فلا ينتفعون به، فيجعل نفسه أوّلاً أنه شيخ، وثانياً أنّ بيده هداية الخلق، وهذا كله إذا وقع من أحد فهو دليل على ضعفه أو سذاجته، فقد كان ﷺ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وأنزل عليه ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا

ٱلْبَلَٰغُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢] وغير ذلك من الآيات، وبتقدير أنه ﷺ كان يفعل بعض الأوقات أضداد هذه الأمور السّابقة فهو معصومٌ من دسائس النفوس، وقد أصلح ﷺ طيات عمامته في جب الماء ولبس الثياب الحسنة لما قدم عليه بعض الوفود، وجلس على مصطبة من طين لما سأله الصحابة رضي الله عنهم أن يتميز عنهم بشيء ليعرف من بينهم فيُسْأل عن أحكام الدين، فكان تميزه ﷺ محض مصلحة للمسلمين، فمن تبعه في هذا الفعل فليُراعي الصدق في ذلك.

واعلم أنّ الفقير الضعيف لا يجوز له أن يتشبه بالأكابر الأقوياء فيهلك نفسه، لعدم معرفته بمداخل النفس والشيطان والهوى، كمن يلبس الثياب النفيسة تشبيهاً بسيّدي علي بن وفا وسيّدي الشيخ مدين رضي الله عنهما، وغيرهما [٦١/ب] من كُمّلِ العارفين، وأين الحال من الحال والمقام من المقام؟ وكراماتهم أصدق دليل على أنهم ماتت أهويتهم وحظوظهم، لأنه مُحالٌ أن يعطى الولي كرامةً من كشفٍ أو غيره ويبقى له حظ للنفس في الدنيا والآخرة.

وقد وقع لسيدي الشيخ مدين رضي الله عنه أنّ مادنة زاويته مالت أول الفراغ منها، فأراد الحاكم أنه يشوش على الذي بناها، فخرج الشيخ رضي الله عنه وجعل ظهره في المنارة حتى قعدت على أصلها بلا ميل. وقد وقع أن بعض تلامذته وقع منه في البحر صرّة فيها دراهم أيام النيل، فجاء إلى الشيخ وأعلمه بها، فوضع الشيخ يده تحت السُّجادة التي تحته وأخرج الصُّرة تخرُ ماءً، وقد وقع أن شخصاً تعرَّض لبنت تلميذه في برية من بلاد العجم، والشيخ كان داخل الخلاء بمصر، فعجزت البنت عن ردِّ الشخص عن نفسها، فضربه

(١) سورة النور، الآية (٥٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٣٥).

الشيخ بفردة القبقاب فجاءت في عنقه فارتمى، وأخذت البنت فردة القبقاب وجاءت بها إلى والدها، فعرف أنها من قبقاب الشيخ فلما جاء إلى مصر جاء بها معه. وغير ذلك مما هو مشهور.

وأمَّا الشَّاذلية فمنهم الأقطاب، وحالهم مشهور رضي الله عنهم، فمثل هؤلاء يلبسون كيف شاؤوا ولا يضرُّهم، أمَّا الضعيف الذي أضاء له فتيلة ضعيفة فأدنى هوى يطفئها؛ فافهم.

واعلم أنه لا ينبغي الاعتراض على [٦٢/أ] من يقول: (أنا قوي ومثلُ هذا لا يضرّني) فَكِلْ أمره إلى الله تعالى، فإنه ليس مباحاً، وكون ذلك يدخله أمور محرَّمة باطنة، وليس ذلك إلينا والتسليم أسلم، إنما يكون الإنكار على فاعل المحرَّمات الظَّاهرة، ومن علامات صدقه في دعوى القوة وإن لبس الثياب النفيسة ونحوها لا يضرُّه أن لا يجد في نفسه استيحاشاً من الخلق إذا خرج بهيئة مُزرية بحضرة من لا يعتقده، ومتى وجد في نفسه استيحاشاً فهو دليل على بقاء الهوى في النفس، وأنَّ ذلك اللبس لهواها لا لعلَّة أخرى، أمَّا خروجه بالهيئة المزرية بحضرة من يعتقده فلا استيحاش فيه، لأنه يعلم منه زيادة الاعتقاد لحملهم له على أنه في حال.

واعلم أنه لابأس بلبس الثياب الحسنة لمن ليس له حالة يعظم بها عند الناس، سواءٌ كانت دنيوية أو أخروية، خوفاً أن يزدريه أحد: فيقع في الإثم، وهو كثير الوقوع في طائفة الفقراء الآن، فإنَّ غالبهم ليس في باطنهم نور يفرق به فيعظِّم صاحب الثياب الحسنة ولا يعبأ بغيره؛ وإن كان من الأولياء، فإذا كان الفقراء كذلك فأبناء الدنيا من بابٍ أولى، أمَّا من له حالةٌ يعظم بها عند الناس كصلاحٍ وزهدٍ فلا يزداد الناس فيه بلبس الثياب المزرية إلا اعتقاداً فافهم ذلك، والله يتولَّى هداك [٦٢/ب] وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن شأنه: أن لا يتكدر ممن بلغه عنه أنه يخرج عن رتبة الصَّالحين

ويقول: (فلان لم يذق شيئاً من طريق الصَّالحين)، لأنه إن كان صالحاً عند الله تعالى لا يخرج بكلام هذا المنكر من صلاحه عنده، وإن كان غير صالح وقد صدق فلا ينبغي التغيُظ عليه بوجه، ولا ينبغي له أن يرسل للمنكر الكلام الحلو ليحسّن اعتقاده فيه، فإنَّ هذا الباب يطول، وإن رضي واحد سخط عليه عشرة، لأنَّ الفقير لا يلتفت إلى سوى الحقِّ تعالى، وإن تعصَّب لنفسه تَعِب، ومثال من يفرح بمدح الناس له بالصلاح وهو خال عنه مثال من بلغه عن تلميذٍ له أنه يقول: (إن شيخي يخرج منه عند قضاء الحاجة رائحة كرائحة المسك)، فيفرح بذلك ويقول: الحمد لله ربِّ العالمين، وهو نفسه يعرف قذارة ما يخرج منه ونتنه حتى يسدَّ هو أنفه، وأيُّ غرور فوق هذا؟ فكيف يكون مسلِّكاً وهو لا يقدر على احتمال الأذى من آحاد الخلق، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يراعي الأدب ويرى أنه أضعف خلق الله تعالى، فليحذر من قوله للتلميذ: (إذا وسوس لك الشَّيطان وأنت في الذكر في خلوتك فاصرخ باسمي فإنه يهرب)، فإن هذا دليل على أنه يرى نفسه من الأولياء العارفين، ويظنُّ أنه منهم، والظنُّ أكذب الحديث، وإذا كان الشَّيطان [٦٣/أ] يلقيه ويصرعه هو؛ كيف يهرب إذا صرخ تلميذه باسمه؟ ويقولون في المثل: (إذا كان الحلو ضرب مقارع فكيف بالحامض؟) وكان الأولى بالأدب أن يقول له: (إذا جاءك الشيطان فاذكر اسم الله تعالى؛ أو اسم النبي ﷺ؛ أو اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأنَّ الشَّيطان كان يفرُّ من ظلّه)، وإذا كان الشَّيطان يفرُّ إذا ذُكِرَ اسم الله تعالى، كيف يفرُّ إذا ذكر أحد من الأغيار؟ فافهم.

وروى الإمام أحمد بن حنبل: أنه ﷺ ليلة كادته الجن؛ جاءه الشيطان وبيده شعلةٌ من نارٍ يريد أن يحرق بها وجه النبي ﷺ، فجاءه جبريل فعلَّمه كلمات فقالها فطفئت النار. ا هـ.

فانظر ما أعطاه الله من التسليط على بني آدم، وروى البخاري رضي الله

عنه في باب صفة إبليس وجنوده عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه صلَّى صلاةً فقال: «**إنَّ الشيطان عرض لي فشدَّ عليَّ يقطع الصَّلاة فأمكنني الله منه**»[١] فليتأمل الشيخ ذلك والسَّلام.

وإن ادَّعى أنه إنما قال للتلميذ اصرخ باسمي أنه جاهل بمقام غيره فنقول: (كان الأدب أن تعلِّمه الأدب في حقِّ من هو أعلى منك رتبة، لأنه أقرب إلى مقصودك من إصلاح التلميذ، ولو شهدت أنَّ الحقَّ تعالى [٦٣/ ب] هو الفعال في ذلك بواسطة الاعتقاد في الواسطة؛ لتساوى عندك واسطتك وواسطة غيرك).

وقد حبب لي أن أذكر لك مناظرة الإمام حجَّة الله على المحققين مِنْ كُمَّلِ الأولياء؛ سهل بن عبد الله التستري مع إبليس، لتعلم قوة تسليطه على الخلق، ولولا ذلك ما خوَّفنا الله منه؛ قال سهل رضي الله عنه: (لقيت إبليس فعرفته، وعرف مني أني عرفته؛ فوقعت بيننا مناظرة، فقال لي وقلت له، وعلا بيننا الكلام وطال النزاع، بحيث أن وقف ووقفت وحار وحرت، فكان من آخر ما قال لي: يا سهل: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢] فعمَّ، ولا يخفى عليك أني شيءٌ بلا شك؛ لأنَّ لفظة (كلَّ) تقتضي العموم والإحاطة، و(شيء) أنكر النكرات، فقد وسعتني رحمته.

قال سهل رضي الله عنه: فو الله لقد أخرسني وحيَّرني بظفره بمثل هذه الآية فإنه فَهِمَ منها ما لم أفهم، وعَلِمَ منها ما لم أعلم، فبقيت حائراً متفكِّراً، وأخذت أتلو الآية في نفسي فلما جئت: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] سُررت وتخيَّلت أني قد ظفرت بحجَّة،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٢٨٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٥٦).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٥٦).

وظهرتُ عليه بما يقصمه، وقلت: يا ملعون إن الله تعالى قيَّدها بنعوتٍ مخصوصةٍ يخرجها من ذلك العموم، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فتبسم إبليس وقال: يا سهل: ما كنت أظنُّ أن يبلغ بك الجهل هذا المبلغ؛ ولا ظننت أنك هنا، ألست تعلم يا سهل أن التقييد صفتك لا صفته. قال سهل رضي الله عنه: فو الله لقد أخرسني ورجعت إلى نفسي وغصصتُ بريقي، وأقام الماء في حلقي [٦٤/أ]، ووالله ما وجدتُ جواباً ولا سددت في وجهه باباً، وعلمت أنه طمع في مطمع عنده، وانصرفت وانصرف.

قال سهل رضي الله عنه: (فهممت أن آخذ عن إبليس طريق المعرفة؛ وإن لم ينتفع هو بها لقول بعضهم رضي الله عنهم: انظر ما قال ولا تنظر إلى من قال). فتأمَّل هذه المناظرة تفز بما فيها، والله يتولَّى هداك وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن شأنه: ما دام تلميذاً أن يتأدب مع شيخه ويعتقد فيه ما أمكن، فإن ذلك نافعه إن شاء الله تعالى، وليحذر أن يعتقد في شيخه أنه أكمل المشايخ الموجودين الآن، فإنَّ في ذلك قلَّة أدب مع القطب وأرباب النوبة وغيرهم من كُمَّلِ الأولياء، مع ما قد يكون في ذلك من الكذب أنه حدَّث بالظن؛ وهو أكذب الحديث، فلا يكون التفضيل إلا لمن عَلِمَ ذلك بإعلام إلهيٍّ لا لغيره، فافهم.

وقد قال الكامل المحقق الفاضل المدقق الشيخ محيي الدين رضي الله عنه: (إنَّ على قدم كلِّ نبي ولياً وارثاً له فما زاد فلا بدَّ أن يكون في كلِّ عصر مائة ألف وليٍّ وأربعة وعشرون ألف وليٍّ على عدد الأنبياء، ويزيدون ولا ينقصون، فإن زادوا قسم الله علم ذلك النبي على من ورثه)، فإذا كان الأمر على هذا فكيف يفاضل ولم يُحِطْ بالجميع ولم يعرفهم؟ فافهم، وتأمل

قول الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه لما سئل أيُّهما أفضل الأسود أم علقمة؟ فقال رضي الله عنه: (والله ما نحن بأهل [٦٤/ب] أن نذكرهم، فكيف نفاضل بينهم)؛ فانظر أدبه رضي الله عنه في الإمساك عن الخوضِ بلا علم، وانظر احتقاره نفسه واسلك طريقه، والله يتولّى هداك؛ وهو يتولّى الصّالحين.

ومن شأنه: أن يلزم الأدب مع القطب وغيره، ولا يقول نحن خارجون عن دائرة القطب رضي الله عنه، فإن ذلك سوء أدب، ومن أين له ذلك؟ وهو لم يعرف القطب ولم يجتمع به، فإن أعطاه الله تعالى الكشف عن ذلك جاز له، والأدب خلافه، فلا يحلُّ التكلم في ذلك بالتقليد، كمن سمع مشايخه يقولون ذلك فقلّدهم في هذا القول.

وبالجملة؛ فمن لم يعرف الأولياء وأرباب النوبة والقطب فهو معذور؛ لأنه لا يعرف الأدب معهم إلا من عرفهم، فكيف يدَّعي أنه من الأولياء وهو لم يعرف أحداً منهم، فإن أهل حرفة لا بدَّ أن يعرف بعض أهل تلك الحرفة، وكيف يدَّعي أنه من أهل الحضرة وهو لم يعرف أحداً من أهلها؟ فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يسأل ولا يرد ولا يدخر، هذه طريقة الشّاذلية، وهي طريقنا الآن فيما نعلم حلّه، ونرجو أن تدوم علينا نعمة الترقي إن شاء الله تعالى.

ومن شأنه: أنَّ كلَّ من تمشيخ عليه يتَّلْمَذْ له وإن مدَّ له يده ليقبلها؛ فليقبِّل رجله، ويكون دائماً آخر شعرة في الذنب، لأن الضربة أول ما تقع في الرأس، ويكون غاضّاً عن عيوب الناس [٦٥/أ]، فإنَّ نظره في عيوب الناس يُحدثُ له عيوباً لم تكن فيه قبل ذلك.

ومن شأنه: أن يفرح إذا ظهر شيخ آخر غيره ببلده وانقلبت جماعته إليه ونكثوا عهده، لأنه قد كفاه المؤونة وصار متفرغاً لعبادة الله تعالى لا يفرقه عنها شيء، فمتى تكدّر بذلك فهو محبٌّ للرياسة والشهرة عند الناس، ومن

علامات حبِّ الشهرة أيضاً إذا أُثني على أحد من أقرانه بحضرته؛ ينقبض ويصير على وجهه كآبة، لاسيَّما إن رفع منزلته عليه في الثناء بحضرة من يعتقده، فاعلم أن من يتخذ المشيخة حرفة يقع في أمورٍ مذمومة لا تحصى، لأنَّ أكله وشربه ونفقته منها، فلذلك يلزمه الخضوع لمن يحسن إليه من الأغنياء وأرباب الدولة، ويحسب إظهار الناموس حين يحضرون عنده ويستحلي مجيئهم إليه لاسيَّما في محافله ومحلِّ نظامه، ويخاف من تفرُّقهم عنه، خوف أن يقطعوا عنه المدد من القمح والجبن والعسل ونحو ذلك مما يجتمع عليه الفقراء، لأنَّ اجتماع الفقراء في الزاوية عند الفقير الذي لا حرفة له ولا لهم، ويقول شيخ الزاوية: نحن في نعمة غارقون فيها من فضل الله تعالى لا نعرف تجيء من أين، ونسي أنَّ سببها كونه من أهل الدِّين عند المعتقدين؛ فإنهم إنما يبرُّونه لأجل دينه وحسن سمته، فأَكَلَ الدنيا بالدِّين من حيث لا يشعر، وهو يظُنُّ [٦٥/ب] أنه سالم من ذلك، وقد قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: (لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إليَّ من أن آكلها بديني)، هذا لمن له دين وحالة حسنة صالحة موافقة لحال المعتقدين، فإن كانوا يعطونه لأجل الصَّلاح وهو عارٍ عنه، فأكله ذلك حرام شديد التحريم، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يرفع همَّته عمَّا بأيدي أصحابه من الدنيا؛ ويخفي حاجته عنهم ما أمكنه إيثاراً لتحمُّل المشقة عنهم، وقد كان ﷺ يعصُبُ الحجر على بطنه من الجوع، وما كانوا يعرفون جوعه إلا باصفرار وجهه ﷺ، وليحذر من التعريض بحاجته إلى بعض الأمور بحضرة الأغنياء المعتقدين فيه، كسؤاله عن ثمن الجبن أو الحطب أو العمامة أو الفوطة أو المداس؛ أو منديل النساء؛ أو كوفية لصغير عنده؛ أو غير ذلك منه، لإفهامهم أنَّ الفقراء محتاجون إلى ذلك، وهم يعلمون أن ليس معه شيء يشتري به ذلك فيبادرون لشرائه، فكأنه سأل تصريحاً.

واعلم أن التعريض لهم لمصلحة الفقراء الذين عندهم أخف أمراً من نفسه وعياله. وقد تناظر كلب السوق مع كلب الصيد، فقال كلب السوق لكلب الصَّيد: (مالك لا تقنع مثلي بكسر المزابل وتستريح من مخالطة الملوك والأمراء وإني أراهم يغرونك ويكرمونك ويهينونني ويطردونني)؟ فقال كلب الصَّيد: (أنا وإن [٦٦/أ]خالطتهم فإني معزوز مكروم، لأني إنما أصطاد لغيري، وأنت لما كنت تصطاد لنفسك أُهنت وحقِّرت وطردت على المزابل).

فإن كان ولابدَّ من قبولك الرفق من الإخوان المتقدِّمين؛ فاحذر أن توهمهم أنك قادر على الأكل من الغيب، وأنك قادر على قلب الأعيان ولكن تركت ذلك أدباً، سواءٌ كنت مُحقّاً أو مبطلاً، فإن ضرر ذلك شديد، ومما يثبت هذا التوهم حكايتك عن الأولياء الذين قلبت لهم الأعيان، وقولك أن ذلك نقص والكاملون لا يقع منهم شيء من ذلك وإن كانوا قادرين عليه، فافهم والله يتولّى هداك، وهو يتولّى الصَّالحين.

ومن شأنه: أن يجالس الفقراء وأصحاب القمل ويفلي ثيابهم، لاسيما إن كانوا عمياناً، ولا يزدري الجلوس معهم، لأن الله تعالى عاتب رسوله ﷺ في حقِّ الأعمى فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾[1] الآية؛ فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يكون محبّاً لأن ينفرد بالصيت، لأن فيه آفات لا تحصى، وأقل ما فيه أنه يصير يكره كل من ارتفع شأنه عليه من أقرانه، وإن أطاع الله وزهد في الدنيا وتورع واتقى؛ لأنه يطفئ ذكره إذا أورد عليه من ذلك، فيحبُّ نقصه من الخير حتى لا يتميز عليه، هذا من لازمَهُ لا ينفكُّ عنه، فيصير هو وإبليس إخواناً، على أني اجتمعت بإبليس في عالم الخيال وذاكرته [٦٦/ب]، فقال إبليس: (أنا أغار على نقص الطاعات؛ لأن الرحمة سبقت

(١) سورة عبس، الآيات (١-٤).

الغضب، ولأنَّ من كمال الله تعالى وجود الطّاعات، وللعاصي في ملكه الاسم المنتقم ونحوه؛ يطلب الانتقام من أهل حضرته، وليس ذلك إلا من العصاة، كذلك الاسم الرحيم مثلاً، يطلب الرَّحمة من أهل حضرته وليس ذلك إلا للمطيعين، فلم ينقص الوجود ولا يخلو طرفة عين من طاعةٍ ومعصيةٍ، فكلُّ اسم يطلب وقوع أثره من أهل حضرته، وخطاب الحقّ سبحانه وتعالى بالأوامر والنواهي يعمُّ المؤمن والكافر والطائع والعاصي والأرواح والروحانيين، فإذا علم الاسم الرحيم مثلاً أنه قد انتهت مدة الانتقام ممن استحقه؛ أخذه ليجري عليه حكمه من الرحمة واللطف، فالخلق كلهم مخاطبون بالأمر، فمن أجاب سُمِّيَ مطيعاً، ومن أبى سمِّي عاصياً شقيَّاً، فإباية العبد عن إجابة الأمر ليس من حيث نفسه وحقيقته، لأنه مقهورٌ دائماً تحت الاسم الذي قهره؛ وإلا فكيف يمكن للعبد الضعيف أن يتخلف عن إجابة الأمر الإلهي؟ فالتنازع بين الأسماء واقع؛ لأنهم الأكفاء بين العبد والاسم الداعي إلى حضرته، ومؤاخذة العبد بالإباية بادعائها لنفسه وعدم إضافتها إلى الاسم الإلهي الذي هو تحت قهره، فالعبد لم يزل بين الأسماء أسيراً، يتركه اسم فيستقبله آخر، هكذا شأنه) اهـ. كلام إبليس، فانظر هذا اللعين ما أشد معرفته بحضرات الأسماء [٦٧/ أ] وما يقابلها، فافهم ذلك.

وماذا يضر العبد أن لو كان الناس كلهم مسلِّكين عارفين؟ لأن في ذلك شرفٌ لنبيِّه ﷺ، إذ من خصائص أمته أن يكون فيهم الأقطاب والأبدال والأوتاد وغيرهم، فلزم هذا المسكين الكراهة لأهل التقوى لله تعالى، ولو صدق في محبَّة رسول الله ﷺ لأحبَّ كثرة المشايخ والمسلِّكين، لأن ذلك مما يسرُّه ﷺ، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يحفظ لسانه في حقّ أقرانه، وهذه الخصلة مصيبة لا يخلص منها إلا القليل من الفقراء، فإنه إن لم يصرح بتنقيصه عرَّض به،

وكلاهما على حدٍّ سواء، لأنه يخاف أن يصرِّح بغيبته فيزدريه من يسمعه من تلامذته وغيرهم.

واعلم أنه لا بأس بتبيين بعض عيوب أهل الدَّعاوى؛ لينزجر من يريد أن يتبع طريقهم كغالب تلامذة هذا الزمان، لغلبة الهلاك فيمن ينسب إلى الطريق، مع أن أهل الطريق كلهم يَلعنوه لتصنعه وتزويقه لعمامته وعذبته واعتدال رشقها في العمامة، والنظر إليها قبل أن يلبسها ويخرج إلى الناس، وغير ذلك من الأمور التي لا تخفى على آحاد المؤمنين، فكيف يطلب أن يجوز على الله تعالى؟ إما بأن ذكر أحداً من الفقراء بسوءٍ بحضرة من لا يريد اللحوق بهم، ولا هو طالب أن يكون شخصاً من العوام [٦٧/ ب] المعتقدين، فهو حرام شديد التحريم.

واحذر أن تفتح باب الذم للتلامذة تفكهاً في عرض أحد من أقرانك بحجَّة النصح والتحذير، إذا علم العبد ذلك؛ فليحذر من قوله في حقِّ أحدٍ من أقرانه: (فلان لم يقع له شيء من التجليات والمقامات التي هي علامات السَّير في الطريق عند القوم، ولو رأيناه ذاق شيئاً ما وسعنا من الله تعالى أن ننقصه، لكن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع)، فيُكثر الغيبة في أخيه بهذا الكلام وهذه الدسائس؛ وقلَّ أن تجد اثنين من الفقراء بينهما صفاء ومودَّة، وربما يُدعى أحدهم إلى وليمة عرس فيبلغه أن أخاه هناك فيمتنع، ويكره أن يجتمع معه، ولهذا لا يزال الخلق في بلاءٍ بسببهم، ولولا البهائم لم يُمطروا لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون)؟ قال: «نعم يا عائشة إذا كَثُرَ الخبث عمَّ العقاب الصَّالح والطَّالح» فليحذر أرباب الدَّعاوى من الخروج مع الناس في الاستسقاء ونحوه، فربما توقف الإجابة لكونهم حضروا، لِما في بواطنهم من الدَّعوى، وهي منازعتهم لله تعالى، لاسيما ظنهم أنَّ الخلق إنما سُقوا بسببهم، وأنهم أقرب إلى الله تعالى من جميع من حضر، ولذلك

يتقدَّمون للدُّعاء أمام الناس، فلا يدعى لطلب الحوائج إلا المنكرة قلوبهم، أمَّا هؤلاء فقلب الواحد منهم أغلظ من الحجارة [٦٨/أ]، لاسيما إن أرسل إليه السُّلطان بخصوصه ليستسقي، فافهم.

واعلم أن الكشف المحسوس إذا كان لا يجوز الوقوف معه؛ فكيف برؤية المنامات التي يرى التميزَ بها على أقرانه؟ وليحذر من استحلاء قول الناس: (فلان انتفع على يد فلان وانتقل، وله كذا وكذا سنة عند الشيخ الفلاني؛ لم يتحول عن حالته، ولم ير شيئاً من التجلِّيات)، فإنَّ ذلك سمٌّ قاتل، فكيف بالشيخ لو ذكر ذلك عن تلميذٍ له وصرَّح به؟ نسأل الله تعالى العافية لمؤلِّفه.

ومن شأنه: أن يتنبَّه لما يحصل بسبب الإذن له في التلقين من شيخه أو غيره من ترك النصح من إخوانه وتلامذته، لأنه حين يصرِّح لهم بأنَّ الإذن جاء له بذلك؛ وأن له أن يربِّي المريدين والسَّالكين، لا يتجرأ أحد منهم أن ينصحه، لاسيما إن كان له ناموس قائم في قلوب المعتقدين؛ بالإطراق والعذبة ووضع رأسه في طوقه، وغير ذلك من الخصال، سواء كان محقّاً أو مبطلاً فيها، إذا علمت ذلك فينبغي للشيخ أن يحثهم على النصح له ويشتد عليهم في ذلك، وقد أراد السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يمتحن أصحابه به فقال: (ما تفعلون بي إذا أنا اعوججت عن طريق الحقِّ؟) فقالوا: (نضرب هامتك بالسَّيف)، ففرح بهم؛ وقال: (هكذا كونوا)، فليحذر الشيخ القاصر من قوله لتلامذته: [٦٨/ب] (إن لم يكن التلميذ يحمل جميع أفعال شيخه التي ظاهرها الفساد على موافقة الشرع، ويؤوِّلها على أحسن الوجوه لا يجيء منه شيء)، وهذا إنما يباح لكُمَّل الأولياء من ورثة الأنبياء عليهم السَّلام، وأمَّا القاصر عن درجتهم فكيف يسدُّ على نفسه باب النصح من إخوانه، وهو محتاج إلى التطهير من الدسائس والأوصاف المعيبة، وإن وقع ذلك الكلام عن الكُمَّل من المتقدمين رضي الله تعالى عنهم؛ فذلك مصلحة

للتلامذة لعلمهم بأنهم على بينة من ربهم، ويتلوه شاهدٌ منهم في كل حال سلكوها من المشي على قدم مورِّثهم؛ فيوافق أمرهم التلامذة بحملهم على الشرع حالَهم التي هم عليها، وأما من ليس له هذا القدم؛ كيف يأمر التلامذة بأن يحملوا جميع أفعاله على الشَّرع ويمنع نفسه الخير والنصيحة؟ وأين هذا الحال من حال الأولياء العارفين المتَّهِمِين جميعَ أحوالهم بالنفاق وأفعالهم بالرياء رضي الله عنهم أجمعين.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحِمَ الله من أهدى إليَّ عيوبي»، وكان رضي الله عنه يمضي إلى بيت حذيفة بن اليمان ويقول له: (يا حذيفة أنت كنت صاحب سرّ رسول الله ﷺ، وكنت تعرف المنافقين وتعهدهم على عهد رسول الله ﷺ فانظر ما فيَّ من النفاق فعرِّفني به)، فيقول: (والله يا أمير المؤمنين لا أعلم فيك نفاقاً)، فيقول: (انظر وحقق النظر)، فيبكي حذيفة ويبكي عمر رضي الله عنهما؛ فلا يزالان يبكيان [٦٩/أ] حتى يغشى عليهما، أما حذيفة رضي الله عنه فمن سماع الكلام من السيد عمر، وأما عمر رضي الله عنه فخوفاً أن يكون فيه نفاق لا يشعر به، فانظر اتهامه رضي الله عنه لنفسه بالنفاق؛ مع علمه أنه مقطوعٌ له بالخير والرضا من الله تعالى، والشهادة بأنه من أهل الجنة بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) الآية، وهو من أهل البيعة بلا شك، فإذا كان هذا حال السيد عمر رضي الله عنه؛ فكيف بحالنا؟ نسأل الله تعالى العافية.

وقال القطب الرباني سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه: (مَنْ لم يتهم خواطره دائماً؛ لا يثبت في ديوان الرجال)، وبالله التوفيق.

ومن شأنه: أن لا يستنكر على من ناداه باسمه من غير لفظ سيادة أو مشيخة، لأنه كلام صحيح ليس فيه كذب؛ بخلافِ لفظ السِّيادة والمشيخة،

---

(١) سورة الفتح، الآية (١٨).

فقد لا يكون سيِّداً ولا شيخاً عند الله تعالى، فيقع القائل له ذلك في الكذب. هذا الذي ينبغي للشيخ أن يظنه بنفسه دائماً فيحمل من لم يعظِّمه على ذلك، وأمَّا التلميذ فهو مأمور بالأدب معه، فلا يناديه باسمه فقط من غير لفظ سيادة أو مشيخة ونحوها، ولا بألقابه المذمومة وإن كانت حقّاً، فافهم ذلك.

ومن شأنه: إذا لم يطرقه بكاء ولا خشية أن لا يذكر ما فيه انتصاراً لنفسه؛ كقوله: (البكاء والرِّقة إنما يكونان للناقصين، وأمَّا الكاملون فلا يتأثرون بسماع كلام، ولا تؤثر [٦٩/ ب] فيهم الأحوال)، ويستدل بقول أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه حين رأى شخصاً يبكي عند سماع القرآن: (هكذا كنا حتى قست قلوبنا)، وبقول الجنيد رضي الله عنه لما تحرك الجماعة للسماع ولم يتحرك، فكلَّموه في ذلك فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[١] وغير ذلك من الحكايات، لأنه أولاً ليس على قدم من يحكي عنهم هذه الحكايات، وبتقدير ذلك؛ فهل كان معهم في جميع أحوالهم؟ ومن تأمل وجد الغالب على العارفين دائماً البكاء والخوف، حتى كان السيد أبو بكر رضي الله عنه يقول: (ليتني كنت طائراً أو كنت تبنة)، وقال السيد عمر رضي الله عنه: «يا ليت أمي لم تلدني»، وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (يا ليتني كنت نسياً منسيّاً)، وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: (لا أغبطُ نبياً مرسلاً، ولا ملَكاً مقرَّباً، أليس هؤلاء يشاهدون أهوال الآخرة؟ إنما أغبط من لم يُخلق)، وغير ذلك من أحوالهم المشهورة، وقد بات شخص تحت غرفةٍ للسيد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فنزل عليه ماء ولم يعرف سببه والسماء مصحية ليس فيها سحاب، فصعد سطح الغرفة؛ فوجد السيد عمر ساجداً ودموعه تجري، حتى جرت في الميزاب ونزلت على الأرض، فهل كان هذا ناقصاً وكنت أنت كاملاً؟، فافهم، والأدب خيرٌ كبير.

---

(١) سورة النمل، الآية (٨٨).

واحذر من أن تذكر الأولياء الذين مضوا بسوء، لما تنظر في كلامهم من التلوين، كسيدي عمر بن الفارض وسيدي محي الدين وغيره، فإنهم قدِموا إلى [٧٠/أ] ما قدَّموا، وتلك أمةٌ قد خلت، على أن القائل إن سيدي ونحوه من أرباب التلوين؛ لم يذق طعم التلوين الذي ينقص مقامه به، فكيف بالتمكين؟

فغالب من يقول ذلك إنما يقوله بالتقليد لما يجده في كتب فقهاء الصُّوفية؛ كرسالة القشيري ونحوها، من أن التلوين للناقصين، وهو لم يفهم مرادهم، فإن مرادهم به: التلوين بلا تمكين فيه، والكامل عندهم من تمكن في التلوين، ولولا أنَّ المراد هذا لما كان الحق سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1]، فالكامل من الرجال من يعلم ما يتقلَّب فيه في كلِّ نَفَسٍ، ومن لم يقف من نفسه ولا من غيره على اختلاف آثار الحقِّ فيه في كل نفس؛ فلا معرفة له بالله، لأنه جاهل به وبنفسه وبالعالم، فافهم؛ والزم الأدب مع الأولياء رضي الله عنهم، فإنَّ اعتراضك دليل على عدم ذوقك، وليس يترتب عليه ثمرة، لأنَّ الذين مضوا إلى الآخرة ليسوا من أهل الأخذ عنهم حتى يحمل كلامك على أنك تُبيِّن مراتبهم لمن يريد السُّلوك، وأي فائدة لقولك الآن: فلان كان ناقصاً؟ إذا علمت ذلك؛ فترك البكاء نقص وقسوة قلب منك، وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] وقول رسوله ﷺ وأما ما نقل عن السَّلف من ضد ذلك إنما كان في أوقات نادرة، ولكن الضعيف لما ينظر نفسه يستدل بحكاية مناسبة له، ولحالة وقعت من شخص مرّة في عمره، لأنه إن حكى أحواله الغالبة؛ أقام الحجَّة على نفسه، فافهم ذلك.

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٢٩).

(٢) سورة الزمر، الآية (٢٢).

ومن شأنه: أن لا يعتمد على عمل صالح، فكيف بما دخلته [٧٠/ب] النفس؟ وقد سمعت يهودياً يقول لآخر: (لا تظن بنفسك الخير أبداً، ولا تَدَعْهَا تألف شيئاً من أحوالها، لأنه لا يُتقرَّب إلى الربِّ بشيءٍ دخَلَتْهُ النفس .ا هـ). فإذا كان اليهود يتناهون عن مثل ذلك؛ فكيف حالنا؟ نسأل الله تعالى العافية.

واعلم أنَّ نصح الإخوان من المشايخ لبعضهم بعضاً قلَّ في هذا الزمان، فلا أحد ينصح أحداً مع إطلاعه على ما في قلبه من الدسائس، وربما وقع لبعض القاصرين الخوف من أنه لو نصحه فتح عليه الآخر باب النصح، فيخرجان من المشيخة بزعمهما، فكلٌّ واحد يخاف أن يَظُنَّ تلامذته به أنه لولا نقصُه ما نصحه الآخر، وقد كان السَّلف الصَّالح رضي الله عنهم ينصحون بعضهم؛ ويراسلون بعضهم بالحط على أحدهم والتوبيخ له، ويفرحون بذلك، إذا علمت ذلك؛ فاحذر من ترك النصح لأحد، ولو انخرق ناموسك عند جميع من يعتقدك، وذمَّك الخلق على ذلك.

واعلم بأنه ينبغي لك أن تعتقد في نفسك أنك ما أنت فقير إلا عند العوام، وليس لك عند الفقراء الصَّادقين قدم، وخير الناس من هو مستور ممحوٌّ اسمه من ديوان المتمشيخين، لما لا يخفى أن الفقر نور ما دام الفقير يستره، واحذر إذا اجتمعتَ بزيارة أحدٍ من إخوانك القاصرين أن تذكر له واقعةً وقعت لك، أو مناماً أو كشفاً، وتظهر فضلك عليه، فإنك تكدِّر عليه [٧١/أ] حاله، بل اسأله الدُّعاء، وساوقه بالنصح بما فيه بالتعريض والتلطف، كهيئة المتعلم منه والمستفيد، واحذر من أن يَظهَر منك طلب التمشيخ عليه، فإن نفسه تقوم ولا ينتفع بكلامك؛ لا سيما إن استشعر من تلامذته أنهم لحقوا بذلك. واحذر من قولك في حقِّ من نصحك أن فلاناً نصحنا بشيء وهو معذور؛ لأنه يظنُّ أن الفقراء محتاجون إلى مثل ما نصح به؛ لأنهم رضي الله عنهم صفَّاهم الحقُّ

من كدورات البشرية، إنما يحتاجُ إلى ما نصحَ به الفقهاء والعوام، بل من الفقراء من لا يعرف إبليس وجنوده، فإنَّ في هذا إيهاماً للخلق بأنك خالٍ مما نصحك لأجله ونسب إليك، مع نصرتك لنفسك بإدخالك لها مع الفقراء الذين مدحتهم، فافهم ذلك، ولا تُجِبْ عن نفسك بشيء ولو كنت خالياً مما نُصِحْتَ لأجله، واحذر من أن تقوم نفسك منه، وتُصنِّفَ رسالةً في الرد على كلامه، تجمع فيها كلام بعض القاصرين؛ فإنَّ ذلك انتصارٌ للنفس، ووبال ذلك يرجع عليك بغشك لنفسك، فافهم.

واحذر من أن تنسب الناصح لك من أقرانك إلى أنَّ سبب نُصحه من الغيرة إذ لم يجتمع الناس عليه كاجتماعهم عليك، ويأخذوا عنه كما أخذوا عنك، فهذا سدَّ هذا الباب عليه وليس من قدره أن يجمع قلوب الخلق عليه لا لعلة، واحذر من قولك: (الأمر [٧١/ب] ما هو بيدي)، وإن كان ذلك حقّاً أُريدَ به باطل، واحذر من قولك أيضاً: (الحقُّ سبحانه وتعالى إذا أقام عبداً لِنَفْعِ الخلق حبّبهم فيه على رغم أنفهم) ، فإنَّ النفس تستحلي ذلك، وهو سمٌّ قاتل، مع ما فيه من تزكية النفس بجعْلِكَ نَفسَكَ من الذين أُقيموا لنفع الخلق والعباد وإرشادهم، وأنك نائب رسول الله ﷺ، ولو تأملت ونظرت بعين البصيرة؛ وجدت الطباخ أو بائع الفول الحار أو الزيت الحار أو الحرَّاث أو الحصَّاد أنفع منك، ولا يشك في ذلك إلا الأعمى، ومن تأمَّل نفع الرغيف أو الطبيخ أو الزربول إذا كان جائعاً أو حافياً، ونفع كلامه الذي يلقيه لمن يجلس عنده؛ عرف صِدْقَ ما أقول؛ لأنَّ بهذه الحِرَفِ قيامُ الوجود، فأصحاب الحِرَف على خيرٍ كثير ونفعٍ تام، ومن تمام ذلك بهم احتقارهم نفوسهم، واحتمالهم قول الفقيه لهم: (يا جهلة، يا حمير)، بل يصيرون خائفين أن يقعوا معه في واقع.

واعلم أنه لو كان الشيخ يصير شيخاً بكثرة المريدين حوله؛ لكان

المشعوذون أولى بالمشيخة، فقد عدَّ بعض أصحابنا حلقة مشعوذ، فوجدها تزيد على ثلاث مائة نفس، لا يقدر شيخ يجمعهم في ورده إلا في وليمة، وكل هذا غرور، فافهم.

واحذر من أن تنسب نفسك إلى أن فلاناً انتفع بك، فإنَّ في ذلك هلاكك، وإن لم تكن ترى نسبة جميع الخلق الذين حولك إليك كما ينسب إليك أهل السوق أو جماعة [٧٢/أ] شيخ آخر فأنت مغرورٌ مفتون، لأنك ترى لك نسبة في هداية الخلق، وإن كانت الآلة والواسطة لا بدَّ منها؛ لكن هذه أحوال يغيب معها عقل الرجل ورشده، فافهم.

ومن شأنه: أن لا يقتصر على لبس الزي والهيئة، وإرخاء العذبة وحضور الولائم، وتقول له نفسه: (مِنْ حين حصل لك الاعتقاد والتلامذة أنت بخيرٍ كبير)، وكلَّما كَثُر أتباعه ومعتقدوه اغترَّ وحمد الله، وكلما قلُّوا انقبض واغتمَّ وسَخِطَ في الباطن على الله، بل لا ينبغي الالتفات لهذه الأمور بوجهٍ من الوجوه، فشأن الفقير دوامُ الإقبال على الله تعالى باطناً وظاهراً بأنواع القربات والعبادات، فهو في غفلة من أحواله الظاهرة، وهذا أهل حضرة السُّلطان، ليس لهم نظر في حال مجالسته إلى ظاهرهم ولا إصلاح عمامتهم ولا وسخ ثيابهم، ولا إلى سجادة يجلسون عليها، ولا غير ذلك من أحوال الغافلين عنه.

واعلم أنه ليس من الغفلة اشتغال العبد في حقوق أهله، لأن الله تعالى قد عيَّن لهم حقاً عليه؛ وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»، فو الله في ذلك الموطن ليس لنفسه ولا لشيء من خلقه، وسامحه الحقُّ في رجوعه إلى أهله من هذا المقام، لكونه ما يرجعه إلا الله الذي افترضه عليه، وتأمل قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾[1] تعرف أنه لا يحشر إليه إلا من ليس عنده والسَّلام.

---

(١) سورة مريم، الآية (٨٥).

ومن شأنه: أن يكون عنده شفقة على من يجتمع عليه، ولا يتسبب لهم في الوقوع فيما يغيِّر قلوبهم عليهم [٧٢/ب]، فليحذر من أخذ التلامذة معه إلى الولائم بغير طلب صادق من أصحابها، فإنَّ ذلك من أشدِّ الضرر عليهم لضعفهم عن تحمُّل أوساخ الناس، وقد كان سيِّدي الشيخ إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول لتلامذته لمَّا يريدون أن يمضوا معه إلى وليمة إن كانوا طائعين له: (ارجعوا فإني عازم على أكل السُّم، فهل تأكلون سُمّاً)؟ فيرجعوا، فيقول لهم: (أنا بحر لا تؤثِّر فيَّ الرمم يا أولادي)، لا سيَّما والتلامذة يأكلون طعام الناس من الشبهات بشهوة نفس، ويقولون لبعضهم: (هذه الأيام مع سيِّدي الشيخ تعد من الأعمار)، ويعتبون على من فاته الحضور لأجل حرفته التي يعود عليه وعلى عياله نفعٌ منها، ولو كان شيخهم لا يدعوه أحد إلى وليمةٍ ولا يلتفت إليه بالبر؛ وهو متقشِّف، يلبس الجبة الخشنة والفروة الغليظة، ويأكلون معه خبز الشعير أو الذرة اليابس بملح أو حاف، كما كان ﷺ يأكله؛ لما عدُّوا هذه الأيام من العمر؛ ورأوها كلها بلاء، وربما فارقوه ونفروا عنه، فافهم واحذر، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾(١).

ومن شأنه: أن يكتم مساوىء أقرانه ويُظهرَ محاسنهم والثناءَ عليهم؛ وينشر ذِكْرَهم بلا علةٍ تحملُه على ذلك؛ من قصد المكافآت ونحوها، فقد ينشر الشخص ذكر أخيه ويُثني عليه بقصد أن ينشر الآخر ذكره ويثْنِي عليه، وقد يثْني عليه حتى يدفع عنه نسبته إلى الغيرة ويُنسب إلى وُسْعِ الخُلق؛ [٧٣/أ] لا سيما إن كان المثنَى عليه يحط على المُثْنِي، فإن ذلك مما يزيد فيه اعتقاد الخلق خاصَّتهم وعامَّتهم، فينبغي له أن يُظهر الضجر وعدم احتمال الأذى في بعض الأوقات، ستراً لحاله، فإنه عورة، ولكل حالٍ مقال، إذا علمت ذلك؛ فيجب أن يؤوِّل أحوال أقرانه الناقصة ما أمكن في غيبتهم وليصرِّح لهم بذكرها

---

(١) سورة يوسف، الآية (٢١).

بحضرتهم، ولا عليه من تغيُّرهم من النصح؛ لأنه نَفَعَهُمْ من حيث لا يشعرون، وأقل ما في ذلك تحقيرهم لنفوسهم ساعة نصحه لهم.

ومن شأنه: أن يحذر أن يتدارك دعوى تقع منه؛ بذكر أمورٍ تُوهم السامعين تبرئته من الدَّعوى، مع أنه صار قلبه قدر الصندوق من الفرح لما رآهم صدَّقوه في دعواه وزادوا فيه اعتقاداً.

واعلم أنه يلزم من ازدراء شخص أو احتقاره الوقيعة في جميع أصحابه ومحبِّيه، لأنَّ الأرواح جنودٌ مجنَّدة، فالممقوت لا يجتمع إلا بالممقوت، والمحبوب لا يجتمع إلا بالمحبُوب، فلا يجتمع اثنان قط على صُحبةٍ إلاَّ وبينهما رابطة المشاكلة في الباطن فافهم، واحذرْ من أن تظن بمن نهاك عن خلطةِ من لا يصلح من الممقوتين؛ أنه يرى نفسه خيراً ممن نهاك عنه، لأنَّ ذلك لا يلزم لأمورٍ يُدركها الفقراء ذوقاً.

وليحذر أيضاً من مدح تلميذه ما أمكن؛ لأن ذلك ضررٌ على التلميذ وعليه، لأنَّ مدح تلميذه مدحٌ له، فليكفَّ عن قوله: فلان رأى نجوماً في الخلوة أو أقماراً أو نحو ذلك مما هو من آثار الجوع، فإنهم يقولون في المثل: [٧٣/ب] (جعت حتى رأيت النجوم)، ولو كان ما يقوله التلميذ حقًّاً صحيحاً؛ ما استتر عنه ما رآه في خلوته لما يخرج منها، وأين الرطب المعمول من الجني.

واعلم أن الكُمَّل من الأولياء رضي الله عنهم لا يحسون بشيء من هذه الأحوال، ولا ينسبونها إليهم بوجه، ولذلك كانت تلامذتهم يخبرونهم بخوارق وعلوم وأحوال اكتسبوها مدَّة صحبتهم فيتبرَّؤون منها؛ لأنهم كانوا يدعون الخلق إلى الله محض عبودية، فلذلك كانوا لا يعلمون من يجيب دعوتهم مِنْ غيره ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾(١) وصدقوا، فهكذا هو الأمر.

---

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٩).

واعلم أن الطريق موحشة، كثيرة العطب؛ دسائسها لا تحصى، لا ينجو منها إلا القليل، ولذلك قال القطب الرباني أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (الهالك ممن ينسب نفسه إلى طائفة القوم أكثر من الناجي، لا سيَّما من اشتهر بالصلاح؛ وأقبل الخلق عليه بالاعتقاد والثناء).

وقد كان سيدي الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه يقول لتلامذته: (كونوا دائماً ذنباً ولا تكونوا رأساً، فإن الضربة أول ما تقع في الرَّأس، فكم طيَّرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس؛ وأذهبت من دين)، نسأل الله العافية لنا وللمسلمين، فافهم فهَّمنا الله وإياك عنه كل خير.

ومن شأنه: إذا جلس لإرشاد الخلق بإذنٍ خاص في منامه من النبي ﷺ [٧٤/أ]؛ أن لا يرى له بذلك مزيَّةً وتخصيصاً على من لم يحصل له ذلك من أقرانه وغيرهم، فهو مساوٍ لمن لم يحصل له ذلك؛ بل ربما كان ذلك يجرُّه إلى المكر والاستدراج، وجميع الخلق مأمورون بنصح الخلق في اليقظة بنص القرآن والسنة، وما ثبت في اليقظة أصحُّ مما ثبت في النوم لعدم ضبط النائم، على أن العارفين من المحققين اتَّفقوا على أن الإذن الخاص من النبي ﷺ لا يكون إلا للقطب الحاوي الوراثة المحمديَّة، وأما غيره فإذنه راجعٌ إلى أرباب النوبة وغيرهم من أصحاب التصريف، فمن ادَّعى الإذن الخاص؛ فكأنه ادَّعى أنه القطب الغوث الفرد الجامع، ولولا أنه فقيه محجوبٌ، لمقته الأولياء؛ لكنَّ حُكمه عندهم حكم الشخص المشهور بالجنون؛ كمن يتشبَّه بأكابر الدولة في الخيال ليضحك الناس، أو كالفقير المجذوب، أو المهبول إذا قال أنا السُّلطان، أو غيرهما ممن هو بعيد عن حضرة الملك؛ بخلاف ما إذا ادَّعى أحد من أهل حضرته ذلك مُحِقًّا كان أو مبطلاً؛ فإنه يقام عليه السياسة؛ ويؤمر به إلى دار الهوان والعقوبة، فاحذر ذلك؛ فإنه يجرُّ إلى العطب، وإن وقع لك هذا الإذن في النوم في رؤية صحيحة جامعة للشرائط؛ فلا تذكرْهُ لأحد، فإن

ذلك من الضعف وقلَّة التثبُّت، فإن أُمرت في النوم بذكر ذلك للخلق، فاذكره امتثالاً [٧٤/ ب] للأمر؛ لا لعلةٍ أخرى، فافهم.

والنصح بلا قصدٍ ودعوى أقل آفات، ولو لم يكن إلاَّ أنَّ ذلك يجرُّ إلى أكل الدنيا بالدين من الأكل من الولائم وغيرها، وتوجه الخلق إليه بأوساخهم من الزكوات وغيرها، وكلُّ ذلك لاعتقادهم فيه الولاية؛ فإن اشتروا له ثوباً يسامحونه فيه، وإن رأوه محتاجاً إلى شيء بادرُوا بتحصيله له، فكلَّفهم وشقَّ عليهم، ولو طلب منهم يتيم أو مسكين عاجز ثوباً أو درهماً لا يعطونه شيئاً، ويمكن أن يخرج الشخص إلى سوق من الأسواق؛ فيأمر وينهى ألف نفس ويصير شيخهم بذلك من حيث لا يشعرون، فإنَّ كلَّ من علَّمك ما لم تكن تعلم فهو شيخك؛ شئت أم أبيت، فمن نصح وأرشد هكذا من غير قصد؛ مع قيامه في أسبابه وحرفته فهو على خيرٍ عظيم، أجره موفَّرٌ إن شاء الله تعالى، وقد تقدَّم أن كل عبادة نشأت من لقمة فهي لصاحب تلك اللُّقمة فافهم، ولا تجادل في ذلك، فإن وباله يرجع عليك كما شاهدنا ذلك في قبولنا والسلام.

ومن شأنه: أن يتثبت في ما يحكيه عن نفسه من الوقائع والأحوال وإن كان ذلك من النقص، حيث لم يترتب عليه مصلحة دينية، إذا علمت ذلك فاحذر من قولك لي: (إنما جلستُ لإرشاد الخلق بخاطر من قبل الحقِّ)، لأنَّ ذلك لا يصحُّ؛ لإجماع المحققين من العارفين على أن خاطر الحقِّ لا يكون فيه [٧٥/أ] أمر ولا نهي، إذ قد فرغ سبحانه وتعالى من الأوامر والنواهي على لسان رسول الله ﷺ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] وغيره، ولقوله ﷺ: **«ما تركت شيئاً يقرِّبكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه»**، الحديث، فلا ينزل ملك الخاطر بوحي حكم شرط على غير شيء أصلاً، ولا بأمرٍ إلهي جملة واحدة، فإنَّ الشريعة قد استقرَّت

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣).

وتبيَّنت مراتبها، فإن قال: (أمرني الله تعالى من غير واسطة)، قلنا: (هذا أعظم من ادِّعائك الأول، لأنَّك ادَّعيت أنَّ الله يكلِّمك كما كلَّم موسى ولا قائل به؛ ثُمَّ إنه لو كلَّمك؛ ما كان يلقي إليك إلا علوماً وأخباراً؛ لا أحكاماً ولا شرعاً، ولا يأمرك أصلاً، فاعلم أن الأوامر والنواهي أُغلق بابها، فمن ادَّعاها بعد محمد ﷺ فهو مدَّعٍ شريعةً أُوحي بها إليه، سواء وافق شرعنا أو خالف.

فاعلم أن كل أمرٍ أو نهي، فهو من باطن الشريعة ليس لأحد من خارجها ما يأمر منه وينهى، لأنَّ جميع الخلق تابعون؛ ليس لهم شيء إلاَّ من باطن متبوعهم ﷺ، وقد وقع هذا الغلط لشخصٍ من إخواننا، فجاء لشيخنا رضي الله عنه فحكى له ذلك، فقال: (يا ولدي هذا حظ نفس وسبب ذلك أنك لمَّا توجَّه باطنك إلى طلب المشيخة والأذن لك [٧٥/ ب] في المشيخة بالرياضة والخلوة والذكر؛ صرت تترقَّب قوة الخاطر الداعي إلى ذلك، فلما قوِيَ عليك هذا التوجه واستولى على قلبك؛ حكمتْ عليك نفسك، فظننتَ أنه خاطر من قبل الحقّ لا تقدر تتخلف عنه وعن امتثاله، وإنما ذلك من قبل النفس الطالبة لصفة الألوهية على الخلق، فما استطعتَ ردَّها عن هذا الخاطر لضعفك، ولأنَّك مترقِّبٌ لقوَّته سنين، فلما لمحتَ قوَّته من أول وهلة؛ شددت به يديك)، فسكت الشخص المذكور وقال: (أستغفر الله تعالى وأتوب إليه)، ورجع عن هذا الباب بعد أن كان لقَّن الناس الذكر واجتمعوا عليه، فتبرَّأ منهم وفرَّقهم عنه، فلو كان كلُّ من وقع له هذا الخاطر يعرضه على عارفٍ بالله تعالى؛ لكان يبين له خاطر النفس وخاطر الحقّ؛ فيكون على بيِّنةٍ من أمره مِنْ تركِ هذا الباب أو الإقدام عليه، ويكون ممن يتلوه شاهد منه، ولا يبالي بتفرقة من كان يجتمع عليه ويعتقده لأجل إشاعة الإذن المذكور عنه، ويصير ممن لم يكن زُيِّنَ له سوءُ عملِهِ فرآه حسناً، فإذا تقرَّر ذلك ولم يعرض الخاطر المذكور

على عارف بالله تعالى، ولم تظن أنه خاطر نفس، فاجعله خاطر ملك لا خاطر الحقّ، وقد وقع ذلك لسيّدي الشيخ يوسف العجمي رضي الله عنه ولم يقبله إلا بشاهدٍ منه، وهو أنه خطر له مرَّة أولى وثانية وثالثة أن ارحلْ إلى أرض مصر وأرشد الناس، فقال: (اللهم إن كان هذا خاطر حقٍّ فاقلب لي هذا النهر لَبَناً خالصاً [٧٦/أ] في هذا الوقت؛ حتى أغرف منه بقصعتي هذه وأشرب)، فانقلب النهر لوقته لبناً خالصاً، وشرب منه، ثم إنه شرع في التوجه إلى بلاد مصر، فانظر عفا الله عنك إلى تأنّيه وعدم مبادرته في مشيخته والتصدر لها، واعترافه بعجزه عن معرفة كون هذا الخاطر حقّاً أو باطلاً، لاتّهامه لنفسه في كلٍّ ما تطلبه منه رضي الله عنه.

وأما إذا سمع الإذن بخطاب له، فهو هاتف إما ملك أو جنّي أو إبليس، لأنَّ له إغواء العارفين بإرادة الله تعالى، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[١] أي إلاَّ إن أردتُ ذلك بهم، لأنه تعالى لا يصحُّ التقييد عليه بشيءٍ يفعله، لسعة الإطلاق ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[٢] و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٣] وليس المراد باليوم؛ اليوم المعهود، لأنه تعالى لا يمضي عليه زمان فافهم، ولا يخفى أنَّ هذا التأويل في حقِّ غير الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، أما الأنبياء فإنهم معصومون منه البتَّة.

واعلم أنَّ من تأمَّل ياء النسبة في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ قعد عن الدَّعوى، وخاف من تسليط إبليس عليه، لأنَّ العبد الخالص من رق الأغيار أعز من الكبريت الأحمر يتحدث به ولا يرى، ومن نظر بعين البصيرة وجد نفسه مسترقة لما لا يُحصى من الأكوان ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٤]، والمراد

(١) سورة الحجر، الآية (٤٢).
(٢) سورة الرعد، الآية (٣٩).
(٣) سورة الرحمن، الآية (٢٩).
(٤) سورة الجاثية، الآية (٢٣).

بالهوى إرادة العبد إذا خالفت الميزان الشرعي الذي وضعه الله، ولا يتخلص من ذلك إلا كُمَّل الأولياء من ورثة الأنبياء عليهم السلام [٧٦/ ب]، وأما غيرهم فأهويتهم شتَّى؛ فواحدٌ هواه عذبته، وواحدٌ هواه تركها إيهاماً للخلق أنه يكره الشهرة، فهو في حظِّ نفسه لم يَبْرَحْ؛ وواحدٌ هواه جبته البيضاء النقية، وواحدٌ هواه تركها ولبس الجبَّة الدنسة، وواحدٌ هواه الجلوس على السجادة في حلقة حزبه ووِرده؛ ويشقُّ عليه تركها، وواحد هواه تركها، وواحدٌ هواه إطراق الرأس والعزلة؛ ويشقُّ عليه تركهما، وواحد هواه تركهما، وواحد هواه أن لا يخرج من بيته إلى الزاوية وغيرها إلا في أوقاتٍ مخصوصة خوفاً من سقوط حرمته من قلوب الناس، لما شهدوا ذلك منهم حين كان يكاثرهم وحين ينقبض عنهم، وشأن الفقير عدم المبالاة بإقبال الخلق وإدبارهم.

وواحدٌ هواه حلقة الذكر في زاويته واجتماع الناس عنده؛ والتواضع له واتخاذه صَنماً يُتمسَّح به، وواحد هواه ترك ذلك، وواحد هواه إقامة المجاورين عنده؛ لظنه أنه يُرزق بهم وأنه يعطيه الناس الصَّدقات لأجلهم، وأنه يكبر بهم في أعين الناس، بخلاف من ليس عنده مجاورين؛ فإن عندهم غير شيخ أو شيخ على الفتح، لأنَّ الزائر يجده جالساً وحده كالمطر بخلاف ما إذا كان عنده تلامذة ملازمين الأدب بالإطراق بين يديه والقيام بخدمته، والمشي أمامه لمَّا يركب أو يمضي في شفاعةٍ أو وليمة، وواحِدٌ هواه [٧٧/ أ] إطعام الطعام والدقة والسعتر، وواحد هواه تقواه وورعه وزهده ونحو ذلك؛ خوفاً من ازدراء الناس له إذا فعل ضدَّ ذلك لا حياءً من الله تعالى، وواحدٌ هواه أن يرد ما يأتيه على يد الظلمة والمباشرين من البِرّ، وواحد هواه جميع هذه الخصال وزيادة عليها، وواحد هواه التنزه عن جميع الخصال المذكورة كما مرت الإشارة إليه، فاعلم من تضاعيف هذا الكلام أنَّ الهوى كما يكون في فعل الأشياء المذمومة كذلك يكون في تركها والعكس، لأنَّ النفس من

شأنها أن تنفر من الذم، فإذا رأت شخصاً من أقرانها يُزدَرَى بسبب، اجتنبتْ ذلك السبب خوفاً أن يزدروها مثله، فالاجتناب حينئذٍ من هواها، لأنه حينئذٍ ليس خوفاً من الله تعالى، وتفرح إذا سمعت الناس يقولون: فلان لا يحبُّ المشيخة ويفرُّ من طرقها، وهو قادرٌ على أن يركب بغلةً ويمشي جماعة حوله أو يتردد إلى الأكابر ويدخل فيهم، لكنه أعقل من ذلك لا يتتعتع كالجبل فافهم. فلا يخلص من دسائس هذه الأمور، إلا الكامل من الرجال، ومن تشبَّه بمن يحسن السِّباحة، وهو لا يحسن السِّباحة ونزل البحر غرِقَ وأهلك نفسه، فافهم ذلك والله يتولَّى هداك، وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن شأنه: أن لا يركن إلى الإذن له بالسُّلوك والإرشاد من شيخه أو غيره، لأنَّ الإذن لم يتضمن له من الله تعالى حال إذنه له عدم المقت أو السلب حتى يطمئنَّ إلى الإذن ويركن إليه، وبتقدير [٧٧/ ب] أن الإذن ضَمِنَ له ذلك فلا يصحُّ، لأنَّ الحقَّ لا تقييد عليه فلا يقدر الإذن على الوفاء لما ضمن، ومن فهم معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾(١) وقوله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾(٢) فَهِمَ الأمر على ما هو عليه، واستراح من التكدر من منازعة الخلق له في صحَّة الإذن له وعدمه، لأنه يرى نفسه حينئذٍ في الزيادة والنقص ليلاً ونهاراً، ففي حال نقصه يحتاج إلى شيخ يكمله؛ وفي حال زيادته يحتاج إلى إذنٍ جديد، فالأمرُ لا قرار له ليعتمد عليه، ولا يكابر في هذا إلاَّ أعمى القلب، وقد بلغني عن شخصٍ من الفقراء أنه نُوزعَ في الإذن له من شيخه؛ فأثبته على يد قاضٍ مالكي، واستحكم فيه بقصد رفع الخلاف والنِّزاع، ولَعمري هذا مسكينٌ لم يفهم من الأمر شيئاً.

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٢٩).

(٢) سورة الرعد، الآية (٣٩).

ومن شأنه: أن يكون يقظاً فطِناً لما يبرز منه، فلا يعطي كل جليس إلاَّ ما يقبله استعداده في كلِّ زمان، فإذا علمت ذلك فلا ينبغي أن تعتني بفتح باب المشيخة والإرشاد في هذا الزمان، لأنَّ العارفين بالله تعالى كلهم أمسكوا عن هذا الباب من أزمانٍ متعددة، كسيِّدي الشيخ إبراهيم المتبولي، وسيِّدي أبي العباس الغمري، وسيِّدي محمد بن عنان، وسيدي محمد المنير، رضي الله عنهم أجمعين، وقد طلبت جماعة سيِّدي محمد الغمري رضي الله عنه لما تُوفِّي؛ من ولده سيِّدي أبي العباس الغمري رضي الله عنه أن يتصدَّر لباب التسليك فأعرض عنهم، فألحوا عليه مِراراً فقال لهم: (أين طالب الله خالصاً)؟ [٧٨/أ] فما تجرَّأ أحدٌ منهم أن يتقدَّم ورجعوا؛ لعلمهم بما دخل في نفوسهم من عدم الصدق، وقد كانوا على طريقٍ ليس أحدٌ الآن من المشايخ يمشي عليها؛ من صيام الدهر وقيام الليل ولبس الثياب الخشنة، وكان من شأنهم فيما بينهم أن يهجروا بعضهم إذا تكلم بمباح مستوي الطرفين ويقولوا: (فعل المباح، ليس من طريقنا، إنما طريقنا الاجتهاد ليلاً ونهاراً). هذا ولم ير الشيخ أحداً منهم أنه أهلٌ للطريق.

وكذا وقع لسيِّدي أحمد بن الشيخ محمد بن عنان الذي بشَّر به سيِّدي الشيخ إبراهيم المتبولي رضي الله عنه لما قيل له: (يا سيدي من يتولَّى خدمة الحجرة النبويَّة بعدك)؟ فقال: (شخصٌ يقال له محمد بن عنان سيظهر من بلاد الشرقية)، هذا والأولياء إنما تبشِّر بالأولياء، فشهد له بالولاية قبل أن يوجد، ومع هذا فأبى وحلف أنه طريق الله تعالى وسدَّ عليه هذا الباب، لعلمه بعدم جدوى الشهرة في هذا الزمان، وكذلك فعل غيره رضي الله عنهم، وذلك لكمالهم وأدبهم مع الله تعالى، وشهودهم تصاريف الأقدار في الخلق؛ فلا يريدون إكمال ما أراد الله تعالى نقصه؛ لعلمهم بأنه سبحانه وتعالى أراد نقص الوجود كله لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[١] وغير ذلك من

(١) سورة الرعد، الآية (٤١).

الآيات والأحاديث، وقد طلب جماعة شيخنا الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه من الفقير التلقين لهم بعد موت الشيخ فأبيت، فألحُّوا عليَّ بقول الشيخ رحمه الله أني خليفته من بعده، فشقَّ عليَّ ذلك [٧٨/ ب] لما أعلم من نفسي، فلقنت منهم جماعة، فرأيتُ كأني أخيط النعال خياطة محكمة، فلما أنهي النعل ينفتح بنفسه كما كان أولاً، فعلمت الوجه من ذلك؛ وأن الأمر فرغ منه، فرحم الله تعالى الشيخ.

فأما إن كان الغالب عليه سلامة الصدر أو كاشف على الزمان الآتي فيرجع هذا الآمر إلى وراء، فإنَّ الفقير لا يصلح أن يكون تلميذاً، وقد رأيت لوحاً مكتوباً بين السَّماء والأرض؛ من جملة ما فيه: أنَّ الله سبحانه تعالى أراد نقص الوجود من كلِّ شيء في سنةٍ أربعٍ وستين وستمائة، فالمتصدي الآن لهذا الباب على غير بصيرةٍ من أمره إن لم يكن يرى ذلك ابتلاءً من الله تعالى، فهو قليل الأدب مع الله تعالى لإرادته إكمال ما أراد الله تعالى نقصه، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)، لكنه مغرور إن شاء الله تعالى، لأنه من أهل الحجب، فلو كشف الله تعالى له عن حال الوجود الآن كما كشف للعارفين؛ تمنى أن يُدفَنَ حيّاً وكان ترك هذا الباب، ولذلك تراه يلقِّن الألف مثلاً أو أكثر ولا ينتج منهم واحد وهو مُشاهد، ولا ينفع الضربُ في حديدٍ بارد غير مرجوٍّ أن يُحمَّى في المستقبل.

واعلم أنه ليس في هذا الذي خشينا عليه ترك للذكر والتلقين كما توهم ذلك الضعفاء، بل المراد منه أنَّ كل من يُفتح له هذا الباب ينبغي له أن يرى ذلك بلاءً؛ ويعتقد أنه ليس بأهلٍ للمشيخة والسلوك؛ وأن في ذلك هلاكه؛ وأمَّا التلامِذَة فيحصل لهم بالتلقين الخير، لأنهم طالبون الحقَّ محتقرون نفوسهم؛ فافهم ذلك [٧٩/ أ].

---

(١) سورة يوسف، الآية (٢١).

واعلم أنه لا يفيد قول الشيخ المذكور لمن يعظمه ويعتقده بلسانه دون قلبه: (لستُ بأهلٍ لهذا الباب، وهذه بلية نزلت بنا)، لأنَّ ذلك مما يزيد الخلق فيه تعظيماً؛ ويقولون: (انظروا إلى تواضع الشيخ مع كماله وجلالته كيف يحتقر نفسه)!.

واعلم أنه لو كان صادقاً في هذه الدَّعوى لسأل الله تعالى الإقالة؛ وأكثرَ من التضرُّع والدُّعاء أن يعافيَهُ من ذلك، ولكان يأخذ خاطر الفقراء أن يدعوا له بالعافية، فافهم هذه الدسائس.

واعلم أنَّ مثال من يفتح باب المشيخة الآن؛ كالفقيه الذي فتح الكتاب قبيل غروب الشمس وقعد ينتظر الأطفال ليجيؤوه فيعلمهم، لأنَّنا الآن في دهليز القيامة، وقد خرج كلُّ شيء عن موضوعه ووُسِّد كلُّ شيء إلى غير أهله لقرب السَّاعة، كما يشاهِدُ ذلك من كَشَفَ الله تعالى عن بصيرته، وانظر إلى المركب إذا قربت من البَرِّ بعد السفر كيف تطلق حبالها ورواجعها ويطوى قلعها، وكذلك الحُجَّاج إذا رجعوا من سفرهم وأشرفوا على أوطانهم ومحطِّ رحالهم؛ كيف تشتَّت جمع قطورهم وانحلَّ نظامهم، فطالبُ المشيخة الآن كمن يريد أن يجمع شملَ الحُجَّاج ويقطر قطرهم حينئذ؛ كما كانوا في ابتداء سفرهم؛ فيستخفُّ الناس عقله ولا يساعده على ذلك أحد ولا يجيبه، فهكذا حال من يتصدر للمشيخة في هذا الزمان الفاتح لكل شرٍّ والخاتم لكلِّ خيرٍ.

هذا والعامة صاروا يستخفُّون ممن يفعل ذلك ويقولون: (فلان عمل شيخاً)، فكأنَّ المشيخة صارت بالعمل والجعل، وذلك لمشاهدتهم [٧٩/ب] خموله وكسله وجهله بالحقيقة والشريعة، فكلُّ من أراد أن يعمل شيخاً سهل عليه ذلك؛ لأنها صارت في الغالب بالدَّعوى، فصاروا يستخفون بالمشايخ وإن كانوا أهلاً للمشيخة في نفس الأمر، وذلك لإرادة الله تعالى لهم عدم الكمال، ففسدت الرابطة وهي الاعتقاد، فصاروا لا ينتفعون بكلامهم ﴿لِيَقْضِيَ

ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[١]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[٢]، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٣].

فاعلم أنه ليس المانع من اكتساب درجة الولاية عدم صلاحية الشيخ لطريق السلوك والتربية؛ إنما هو لأمرٍ يعلمه من عَلِمَه، ولذلك دعا الرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام الخلق إلى الله تعالى، ولم يُطِعْهُمْ إلا القليل من الناس مع عصمتهم وصدقهم، فسقط ما يقوله بعضهم عمَّن لم ينتج أحد على يديه، ولا أثَّر كلامه في قلب السَّامع: لو كان كلام هذا الواعظ وَعْظاً بصدق لأثَّر في قلوب الخلق فافهم ذلك، ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة لنا ولإخواننا ومعارفنا وجميع المسلمين؛ فإن الموت على درجة الإسلام من غير زيادة في هذا الزمان نعمةُ كبيرة لا يعدِلُها نعمة، ومن أسقط فقد عُدَّ من الكذابين المغرورين، وربما وجد أحواله لا تطابق أحوال المسلمين، فضلاً عن أحوال المؤمنين، فضلاً عن أحوال العارفين الذين يَظُنُّ أنه منهم؛ فافهم، وتأمل ما بينتُهُ لك من الدسائس وطرق الاستدراج والمقت والطرد، واسأل الله تعالى المعونة على العمل بذلك البيان، واقبلْ هذا النصح من أخٍ ناصحٍ، فإنك لا تجد أحداً الآن من مشايخك وإخوانك يدلُّك على شيءٍ من ذلك كما هو مُشاهد، وإن لم تقبل فوبالُهُ يرجع عليك، وقد نبَّهتُكَ بذكرِ شيءٍ من بعض شؤون الفقراء تنبيهاً على غيره.

واعلم [٨٠/أ] أن جميع ما ينصح به العبد إخوانه من الدسائس والعيوب يخطر على قلب الناصح، ولولا ذلك ما نصح أحدٌ أحداً بترك عيب، لأنه لم يخطر بباله، فكيف ينصح بما هو لا يعرفه؟ فجميع الخلق مشتركون في

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٤٢).

(٢) سورة لقمان، الآية (٢٢).

(٣) سورة هود، الآية (١٢٣).

العيوب؛ لكن منهم من يدوم ذلك عليه ويَكْثُر؛ ومنهم من لا يدوم عليه ويقل؛ ومنهم من أعطاه الله تعالى الميزان؛ وهو الكتاب والسنة فوزن ما يخطر له، ويقبله إن وافق أو يردُّه إن خالف، ومن لم يعطه الله تعالى ذلك فهو تحت مشيئة الله تعالى؛ فافهم ذلك، والله يتولّى هداك وهو يتولّى الصَّالحين.

ومن شأنه: أن لا يكثر الخوض في معنى الآيات المتشابهة ومعنى الصفات والأسماء ومقطَّعات حروف المعجم وغير ذلك، وهذا واقعٌ كثيراً من فقراء هذا الزمان، فطول نهارهم كلام؛ ويظنون أنه أفضل من فعل الطاعات، وهو خطأ منهم؛ قال ﷺ: «**وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟**»[١]، فغالب من يخوض ذلك؛ خوضه بالتقليد من غير ذوق؛ فيطالع النصوص ونحوها من كتب الشيخ محيي الدين رضي الله عنه ويخبطون بالفهم والفكر، فيأتون ذلك من غير وجهه فيَضُلُّون ويُضِلُّون غيرهم، ويُتلفوا عقيدتهم، وقد كان محيي الدين رضي الله عنه يقول: (نحن قومٌ يحرمُ النظر في كتبنا على من لم يكن في مقامنا)، فخوض غير العارفين في مثل ذلك ضررٌ عليهم في دينهم وعقائدهم، فلا يليق ذلك إلا بالعارف المتمكّن [٨٠/ب]؛ ومن اشتغل بحفظ كلام الناس في ذلك وجمعِ الحقائق ولسان المتكلمين في الطريق والطرائق، فمتى يعيش عمراً آخر حتى يفرغ من علم الفناء إلى علم البقاء؟ لأنَّ القوم كانوا مُحبِّين، كلٌّ منهم يتكلّم بلسان محبَّته وذوقه، فهو كلام لا يحصى ولا يحصر، لأنَّ هذا البحر غَرِقَ فيه خلقٌ كثير، ولا وصل أحدٌ إلى قعره ولا إلى ساحله.

وقد قال القطب الربانيّ سيّدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه: (جميع المعبِّرين والمؤوِّلين والمتكلِّمين في علم التوحيد والتفسير لم يبلغوا إلى عشر

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

معشار معرفةِ كنه إدراك معنى معرفة حرفٍ واحدٍ من حروف القرآن، أو معرفة كلمةٍ واحدةٍ من كلام الله تعالى).

وقال شيخنا الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ أفضل الدين رضي الله عنه في تفسير سورة الفاتحة: (كيف يمكن التعبير عن شيءٍ من الأكوان وهو يتغير ويتنوَّع في حال تعبيرنا عنه؟ أم كيف يصحُّ التعبير عن شيءٍ من كلام الله تعالى وفيه مجموع كل شيء؟ أم كيف يحيط الحادث بالقديم؟ فأحقُّ ما اتَّصف به العالم العجز، ومن عَجِزَ عن التعبير عن بعض شيء من الموجودات الحادثة كيف لا يعجز عن تعبيره عن القديم وعن نفسه؟)، فالعجز العجز؛ فافهم.

ومن شأنه: أن لا يميل لقول الخلق: (فلان شيخ) وذكرهم له مع جملة مشايخ عصره؛ بل يرى أنه لم يشم طريق الولاية، وتقدير أنه شيخ الآن في عرف الناس فهُوَ على خطر؛ ولا يصدق اسم الشيخ إلا على من جاوز الصِّراط والميزان [٨١/أ] وتطاير الصحف؛ وخروج التوقيع له بالأمان من المقت والغضب، وما قيل: هذه الأهوال والشدائد التي أمام الخلق خبط في ظلام؛ لا عبرة به، ويدل عليه الحديث الصحيح: «**إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس؛ وهو من أهل النار**»، الحديث، ولذلك قال بعض العارفين رضي الله عنه: (لا أثق بالأمان في الآخرة أبد الآبدين، لعلمي بأنَّ الحقَّ لا يتقيد عليه في شيء يمحوه أو يثبته)، وهذا هو الأدب، ويدل عليه خوف الأنبياء والملائكة مع عصمتهم، وحال جبريل وميكائيل لمَّا طَفِقَا يبكيان حين وقع لإبليس ما وقع؛ وقول الحقّ لهما: هكذا كونا ولا تأمنا مكري، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[1] وإن كان لا يقبل التغيير لقدمه، فافهم ذلك، والله يتولَّى هداك، وهو يتولَّى الصَّالحين.

---

(١) سورة الحجر، الآية (٤٨).

فصل

اعلم أننا إنما أطلنا الكلام في هذا الباب بإرادة الله تعالى؛ لِعلْمنا بأن جميع الدَّعاوى الفاضحة والدسائس القبيحة تطرق أهل هذه الطريقة، وهي مُنابذة للعبودية من كلِّ وجه، ونحن إنما وضعنا هذه الرسالة لآدابها، لأنها هي العمدة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾(١) يعني ظاهراً وباطناً، فلم يجعل لهم في الربوبية قدماً، فإنه ليس بين الربوبية والعبودية جامعٌ بوجهٍ من الوجوه، وبقدر ما يخرج العبد من إحداهما يدخل في الأخرى، فالعبد من لا يكون فيه من الربوبية وجه [٨١/ ب]، والربُّ من لا يكون فيه من العبودية وجه، فإذا علمت ذلك؛ فشأن العبودية الذلُّ والعجز ورؤية التقصير في جميع الأحوال وإن جلَّت بخلاف الدَّعاوى؛ برؤية أضداد هذه الأمور، فإنها تعدٍّ على حدود الله تعالى، والعبودية اعتداء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٢) ومن لا يحبُّه الله لا يصلح أن يكون دليلاً عليه كإبليس: وإن كان يعرف طريق الحقِّ، فافهم ذلك والله يتولَّى هداك، وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن شأنه: أن يتهم نفسه بالسوء دائماً؛ ولا يستحسن لها حالاً ولا مقالاً؛ بل ولا يرى شيئاً من ذلك، ويتهمها بجميع ما ينسبونه إليها - من خفيِّ الفسق والفجور والرِّياء وحبِّ الرياسة والمشيخة - من أول وهلة، فما دام لم يظن ذلك بها إلا بعد تأمُّل وتفكر؛ فهو محتاج إلى العلاج؛ وفيه بقية المنازعة والانتصار لنفسه في مدة التفكر.

واعلم أن من يحسن ظنه بنفسه وبفعله لا ينتفع بموعظةٍ أبداً ما دامت هذه حاله، لظنِّه أنه سالم مما قيل فيه ووُعِظَ لأجله، ولذلك تراه يجيب عنها ما أمكن ويرى أن هذا النصح إنما يصلح في حقِّ غيره من أقرانه، لأنه يراه يعين

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٥٥).

النقص؛ ولو رأى نفسه كما رأى أقرانه لرأى صلاحية النصح له؛ فكان يتوب ويرجع، لكنه لا يرى أن فيه نقصاً؛ لأنه أعمى لا يبصر، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أنه كلما سمع كلاماً نُصحاً في حقِّ غيره يأخذه في حقِّ نفسه، ويتعظ به كأنه هو المخاطَب، وإذا برز منه وعظٌ لغيره يكون على سبيل الفرض والتقدير، لأنَّ المحو والإثبات واقع في كلِّ طرفة عين، وقال شيخنا رضي الله عنه: (في لمحة تقع [٨٢/أ] الصلحة) ويجب على كلِّ من ينصح غيره أن يكون مشاهِداً حال نصحه أنَّ الله تعالى آخذ بناصية المنصوح إلى ما هو فيه وموجه إليه، ليعطي الحقيقة حقها من الأدب، لأنه لم يخرج شيء من متحرك وساكن عن إرادته سبحانه وتعالى، وقد اعترضتُ مرَّة بالباطن على يهودي وقلت: (كيف ينشرح صدر هذا بالكفر بالله تعالى؟) فما استتم هذا الخاطر إلا وقد ابتُليت بما ابتُلي به؛ وصرت لا أقدر أن أسمع بالإسلام؛ وأنا في بسط وانشراح لا يعلمه إلا الله تعالى، وكنت أجهد أن أوحِّد فلا أقدر، وأقول: (لا يصحُّ الأمر إلا بثلاثة من غير زيادة أو نقص)، فجهدت أن أزيد فلم أقدر؛ وجهدت أن أنقص فلم أقدر، وكنت بحمد الله أُرَدُّ إلى الصحوِ والإسلام في أوقات الصَّلاة حتى أفرغ ثمَّ أرجع إلى الجنون ولم أتكلَّم إلا في دين اليهود، فمكثت على دين اليهود من عصر الجمعة إلى ثاني يوم الظهر، فكشف الله عن قلبي الأمر عند وضوئي له، فعلمت حين ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[1] وعلمتُ الحكمة في تفرقة الأديان، وصرت أعترض على الكفار وغيرهم ولا يضرني هذا الأمر، وقد وقع هذا الأمر لبعض العارفين رضي الله عنه؛ ومكث على الكفر سنين، وكان لا يُرَدُّ أوقات الصلاة ولا غيرها، فشدّد الأمر عليه لعلوِّ مقامه، إذا علمت هذا فاعرف أولاً مَنْ ناصيةُ الكافر أو العاصي بيده؟ ثم اعترض لا يضرُّك حينئذٍ، لأنك قد أتيت

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٠٨).

بالأدب مع الله تعالى وقمت بما كُلِّفت به من الأمر بالمعرف [٨٢/ب]، فإذا علمت ذلك فنازع من خالفَ أمر الله وارتكبَ نهيه، مع شهودك أنَّ ناصيته بيد الله تعالى، وأنك وهو تحت القهر مشتركان، لأنكما محلٌّ لجريان الأقدار، وما تستقبحه منه جائز أن ينتقل إليك، وقد كنت قديماً أظن أن الأمر بالمعروف يُنافي التسليم، فسمعتُ هاتفاً على لسان الحقّ تعالى يقول: (إذا شهدتَ الأمر مني وحدي؛ سلِّمْ ولا تنازعني، وإذا شهدته من غيري أنكر عليه ما خالف أمري. ا هـ).

وهذا حال يقع للناقص في أوقات لا يتصور عقله دخول نسبة للخلق في فعل من الأفعال، ويقول الفقهاء: (هذا جبري)؛ وليس من الجبر في شيء؛ إنما هو انكشاف حقيقةٍ برزت له، لا يسعه غير ما يراه ولو أتوه بكل دليل، وهذا أمر لا يدرك إلا ذوقاً ولكن الكامل يشهد الفعل لله تعالى محضاً مع شهود نسبة الخلق في وقوع الفعل؛ لا يحجبه هذا عن هذا، إذا علمت ذلك فالزم الأدب، واشهد في حال نهيك له أنه ربما يكون أحسن حالاً منك، وربما كان ارتكابه النهي سبباً لترقّيه إلى الدرجات العلى؛ لما فيه من تحقيره نفسه وعدم تصور الدَّعاوى منه، لأنَّ العاصي لا دعوى له بمعصيته؛ - بخلاف المطيع - وهذا لا يدرك إلا ذوقاً.

واعلم أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى لا يُجري على ألسنة عباده إلا خيراً وصدقاً، فمن كان من أهل الحقّ أخذ نصحه عن الحقّ نوراً على نور؛ ومن كان من أهل النفس أخذ عن النفس ظلاماً عن ظلام، (وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح)، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾(١) [٨٣/أ] وإذا علمت أنَّ المحو والإثبات واقعٌ في كلِّ طرفة عين، فلا يصحُّ للناصح

---

(١) سورة التوبة، الآيتان (١٢٤-١٢٥).

استصحاب لحال الناقص المخالف للسنة . إذا شهده الناصح من أحدٍ معين . حتى يرسلَ إليه النصح بالنهي عمَّا يشهده بفعله، لأنه ربما تحول قلبه عنه عقب رؤيتك له وتاب، فإذا ذكرت نصحاً؛ فاذكره إرسالاً من غير تنصيص على شخص معين، ولذلك كان ﷺ يقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**»؟ ولم يعين الفاعل، لأنه يشهد التحويل والتبديل كلَّ طرفة عين؛ كما ثبت ذلك عنه ﷺ، وكذلك أن تذكره أيضاً على نيَّةِ أن يسمعه من فيه شيءٌ من الدسائس الخفية فيتنبه لها، فيحصل لك التعاون على الخير، وإن لم يكن في السَّامع ما نصحت؛ حصل لك وظيفة التحذير من الوقوع فيما نصحت لأجله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[١].

وافرح إذا نصحت أحداً من إخوانك ولم يصادف نصحك محلاً بأن كان المنصوح غير واقع في ذلك؛ أكثر من فرحك برجوعه بواسطتك؛ لأنه حصل مقصودك وزيادة، فترى دائماً رجوع الخلق إلى الله تعالى . بلا واسطة كلامك . أحبَّ عندك من رجوعهم بواسطتك؛ لما فيه من تحقيق السَّلامة من آفة رؤية النفس بالنصح فافهم.

واحذر من تغيرك على الناصح بسبب نصحه؛ فإنه بذل جهده؛ ونصحك بأعلى ما وصل إليه علمه، فإن كان فيك ما قال فتغيرك عليه [٨٣/ب] حُمق، وإن لم يكن فقد حذَّرك منه؛ لأنك مُعرَّضٌ له ما دمت حياً؛ ولأنك إن كان عندك ذوق فأنت تعرف منزعه في النصح ضِيْقاً وسَعَةً، فتعذره في الضيق وتشكر صنيعته في الوسع، وذلك كاعتراض من لم يفهم مذاق القوم من العوام على من ذاق كالفقير، فلا يصحُّ للفقير أن يقابله بالغلظة والأنفة؛ ولا ينبغي له أن يأخذ نصحه إلا عن الحقّ، فالاشتغال بردِّ كلام الناصح - ولو بحقٍّ -

---

(١) سورة يوسف، الآية (٢١).

محضُ جهلٍ وغرور، ولأنَّ شرط الفقير أن لا يتغيَّر على من يذمه بما ليس فيه، فكيف يتغير على من ينصحه؟ فافهم ذلك.

واعلم أنَّ المحل إذا كان قابلاً للخير متهيئاً لأسبابه من كثرة الناصحين من إخوانه وغيرهم؛ وإذا حيل بينه وبين الخير ختم على أفواه الناصحين، فلا ينطقون بشيء من النصح؛ لعدم قبول المحل لذلك، فنصح الناصح قد يكون بشارةً لزوال الختم والطبع عن القلب، وحقُّ البشير ممن يُبشِّرهُ ويفرِّحه أن يخلع عليه من شدَّة الفرح وأن يكرمه غاية الإكرام، فهذا جزاء من حذَّر من أكل السم بعد تناوله باليد وتقريبه من الفم، فافهم ذلك.

ومن شأنه: أن يحبَّ الذم فيه بنسبة صفات النقص إليه، ويأخذ بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[(١)]، ولا يسعه من الله تعالى أن يحبَّ الثناء والمدح عليه بصفات الكمال، لأنه لا يليق إلا بسيِّده، فهو يحبُّ أن يتميز بالنقص المطلق؛ وإن أحبَّ الثناء على نفسه بالكمال فذلك على خلاف الأصل؛ لشهوده ذلك حينئذ من الملك الحقِّ، وهذا يعز[(٢)] وجوده [٨٤/أ] في الأولياء، وقد اجتمع بعض العارفين رضي الله عنه بإبليس فقال إبليس: (إني أحبُّ أن ينسب إليَّ جميع النقائص، ولا أحبُّ أن ينسب منها شيء إلى الحقّ تعالى)، فإذا كان إبليس يحبُّ الذم وقايةً عن نسبته إلى الله تعالى فالفقير أولى بذلك؛ فافهم.

ومن شأنه: التسليم لله في جميع الأمور؛ ولا ينافيه الاعتراض على الخلق فيما فعلوه مخالفاً للشرع، فهو مُسلِّم لله تعالى في جميع ما يفعله في خلقه؛ راض به؛ مشاهِدٌ أنَّ ناصيتهم بيده، منازع لخلقه فيما خالفوا فيه أمره، ولذلك جاهدت الأنبياء والرسل في الكفار؛ مع علمهم عليهم الصَّلاة والسَّلام بأنَّ

---

(١) سورة النساء، الآية (٧٩).

(٢) في المطبوع: عزيز.

ما جاهدوهم لأجله بقضاء الله وقدره؛ لأنه خلقه، ومع علمهم بأنَّ الكفار ما خرجوا عن الإرادة السّابقة فيهم، إذ للرحمة حدٌّ لا تتعداه، فالذي أمر بالرفق بالبهائم مثلاً هو الذي أمر بذبحها فافهم ذلك.

واحذر من قولك لمن نصحك: (مالك ولهذا الباب؟ سلّم للقدرة؛ واسترخْ وانصحْ نفسك)، فإنَّ هذا القول محضُ جهل، وهو دليل على شقاوتك، ولو قُبِلَ من الخلق الاحتجاج بالإرادة لتساوت جميع الأديان، ومن اعتقد التساوي كفر بالإجماع، وإنما نهيتك عن هذا؛ لأنه يقع كثيراً للمصلحين ويظنون أنهم على قدم عظيم، وهو من تسويلات الشيطان، وغالب وقوع ذلك ممن يتبع طريق القوم من غير اقتداء بشيخ حُقَّ له التقدُّم لهذا الباب، فافهم والله يتولَّى هداك [٨٤/ب]؛ وهو يتولَّى الصَّالحين.

* * *

خاتمة
في بيان ما خرج من مقامات السالكين الساقطة بالعبودية

اعلم أن جميع المقامات سقطت عند العبيد الخلَّص؛ فلذلك استراحوا من صلاح الأعمال وسيئها وما يشوب كمالها، لأنَّ من سلك من باب العبودية من الذلّ والإفلاس باطناً وظاهراً وعدم الحظوظ ورؤية التقصير في جميع أحواله؛ لا يحتاج إلى علاج شيءٍ من ذلك، لأنه يرى أعلى أحواله نقصاً بالنسبة لما يستحقه جلال الله تعالى، فلا يرى نفسه مستحقاً لثواب أبداً؛ وكذلك من ماتت نفسه، أمَّا من نفسه حيَّة تسعى، فإنَّ علاجَهُ لا آخر له؛ فانظر حركة العبوديَّة وتقريبها للطريق! لأنَّ العبد لما عرف وصفه وذلَّه، ميَّز وصفه من وصف ربِّه فترك منازعته؛ فخلع عليه ما لاق به من الأخلاق الحسنة بلا تعبٍ ولا نصب لأدبه معه، فإنَّ جميع النقائص والدسائس إنما دخلت على العبد من رؤية الكمال في نفسه، ولو تأمَّل ما شرَّعه الله تعالى من التكاليف؛ عَلِمَ يقيناً أنه عبد لا رائحة فيه من الربوبية، لأنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى إنما شرع الصَّلاة مثلاً ليسمّى عبده بالمصلّي وهو المتأخر؛ وكذلك الأمر في جميع العبادات، وتأمل نقص إبليس لما تكبر عن امتثال الأمر كيف لعنه الله وطرده ومقته، هذا مع قوّة حجَّته وشبهته عند نفسه في مجادلته الحقَّ وقوله: (كيف تأمرني بالسجود لآدم ولم ترده مني؟ فلو أردته منّي لوقع)، لكن نَسَيَ أنَّ لله الحجَّة البالغة على خلقه، وقد قال تعالى: متى علمتَ [٨٥/أ] أني لم أرد منك السجود بعد وقوع الإباية منك وذهاب زمان الأمر وقبل ذلك؟ فقال له بعدما وقعت الإباية: (علمت أنك لو أردت السجود مني لسجدت)، فقال

تعالى له: (بذلك آخذتك) فلم يؤاخذ إلا بالجهل وقلّة الأدب لا بعدم السُّجود، فافهم.

وتأمل كمال حال أبينا آدم عليه الصَّلاة والسَّلام وقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(١)، مع علمه بما الأمر عليه؛ فاصطفاه الله تعالى وقرَّبه واجتباه، فباب العبودية كلُّه أدب، ولذلك جعلت الطائفة الشريعة وهي التزام العبودية، فإنَّ العبد محكوم عليه أبداً، لأنَّ حكم الشريعة لا يتركه يرفع رأسه بنفسه، فماله من حركة ولا سكون إلا وللشرع في ذلك حكم عليه بما يراه كما قيل: وفي كل إنسان لسلطان شرعه قضاءٌ يُرمى كالسهم ليس له ردُّ ولكنه أمضى وأرضى، ولا يرى لمرميه من أن يصاب به بدُّ. فليس في الطريق إلى الله تعالى أقرب من باب العبودية، لأنه محضُ ذلّ وخضوع ورؤية تقصير، وإن حصل الاعتزاز والتكبُّر وعدم الذل فهو على خلاف الأصل، واسم العبودية منسحبٌ عليه سواء كان مطيعاً أو مخالفاً، لأنَّ العبد الآبق لا يخرجه إباقه عن الرِّق، وإنما يخرجهُ عن تعاطيه بجهله لوازم العبودية من الوقوف بين يدي سيِّده لامتثال أوامره ومراسمه.

فاعلم أنَّ العبد لا يخلو أمره في نفسه عن حالين: إما أن يشهد قيمته فيصحبه الانكسار والتسليم والخضوع [٨٥/ب]، وإما أن يقام في مقام الاعتراف بسيده فيظهر عليه العجب بذلك، والنخوة كعتبة(٢) الغلام لما زهى، فقيل له في ذلك فقال: كيف لا أزهو وقد أصبح لي رباً وأصبحت له عبداً؟ كما هو الأمر في نفسه، ولكن الفضل في أن يكون ذلك الأمر مشهوداً، فهاتان الحالتان محمولتان والتحقيق فيهما: أنَّ كل موطن طلب ظهور الاعتزاز بالله كالجماد لا ينبغي أن يظهر فيه العبد إلا بالاعتزاز بالله، وكل موطن طلب بذاته

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٣).

(٢) في المطبوع: كعبة.

شهود العبد قيمته لا ينبغي أن يظهر فيه العبد إلا بشهود قيمته، فافهم هذا الكلام فإنه من النفائس، والذي أميل إليه الذل؛ لأنه على الأصل.

واعلم أنه على قدر القرب يكون الخوف من الله تعالى، لأن جانب العبودية وقوف العبد عند حدّه من العجز، وجانب الدّعاوى خروج لجانب الألوهية ومنازعتها، فلذلك كان الخوف لا يفارق قلوب العارفين طرفة عين؛ لخوف التحويل والتبديل مع كلّ نفسٍ، لأنه لا تقييد على الحقّ في الدنيا والآخرة؛ فباب الخوف مفتوح أبداً.

واعلم أنه ورد في الحديث ميزان يسند إليه علامة الشقاء من الآن نعوذ بالله من ذلك، وهو أنه ﷺ لما ذكر من سبق الكِتَاب على العبد بالشقاوة أو بالسعادة قالت الصحابة: يا رسول الله، ففيم العمل؟، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اعملوا وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له»، فلا تقع الأمور إلا على ما هي عليه في نفسها، فقد بين بهذا أسباب الخير وطرقه، وأسباب الشقاء والشرّ [٨٦/أ] وطرقه، وجعل السُّلوك في طريق الخير للبشرى، فانظرها في نفسك؛ فإن وجدت الأمر عندك في باطنك وظاهرك على السواء فتلك البشرى فافرح لها في السعادة فإن الله ما يبدلك، وإن رأيت الخير في ظاهرك ووجدت في باطنك نكتة من شك أو اضطراب فيما أنت فيه من عبادة ووقع لك خاطر يقدح في أصلها بما يخالف ظاهر الفعل، فاعلم أن الله تعالى لم يعطك إيماناً ولا نوّر قلبك بنوره، فابكِ على نفسك أو اضحك؛ فمالك في الآخرة من خلاق، فهذا ميزانك في نفسك، وأنت أعرف بنفسك وما يخطر لك فيها، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة»، أي فيما يبدو للناس، أي لأنه لا يبدو لله منه في باطنه إلا هذا الخاطر الذي يقدح في الإيمان من الشك العالم به أن الأمر الذي هو فيه من الشرع ماهو على ما يعطيه الظاهر؛ هذا هو البلاء المبين. «وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما

يبدو للناس» يعني من المخالفات؛ والذي يبدو لله من باطنه خلاف هذا من نور الإيمان، والصدق مع الله تعالى في أن هذا الحال الذي هو عليه مخالف لأمر الله، فيبكي باطناً ويخالف ظاهراً، فيبدو لله منه مالا يبدو للناس. فقد أبان ﷺ في هذا الخبر ما للناس عليهم في أنفسهم؛ فافهم هذا فإنه من النفائس.

واعلم أنه لا غاية للعبد يقف معها دون معرفة سيده، ولا سبيل له إلى معرفته حق المعرفة مع الترقي دنيا وعقبى، وتنقضي أعمار العارفين [٨٦/ب] وهم مع الحقّ على أول أقدامهم، فلم تقف لهم أعمارهم إنما تعلقت به هممهم من إقامة حقوق الحقّ التي عليهم، ولذلك قال ﷺ: **«سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك، سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك، سبحانك لا نحصي ثناء عَليك أنت كما أثنيت على نفسك»**، فصلى الله وسلم على معلِّم الخير وأعبد العبيد.

فإذا علمتَ ذلك كنتَ دائماً على عدم الاستقرار في طلب مقام من المقامات لتكون مع الحقّ تعالى فيه، لأنه سبحانه وتعالى مع كلّ شيء، لأنَّ نسبة العلوّ والسفل عليه على حدٍّ سواء، فهو مع عبيده في درجاتهم ودركاتهم كما يليق بجلاله. فوجبَ عليك أن ترضى بجميع أحوالك؛ لأنَّ الحقَّ معك فيها، فكُنْ أنت كذلك معه فيها، لأنك مطَالَبٌ بأن تكون معه لأنْ تَعْلَمْ أنه معك، لأنه تحصيل الحاصل، فأعلى المقامات من حيث المعية - وإن اختلفت أوصافها - كأدناها على حدٍّ سواء، إذا شهدت هذا المشهد، ولأنَّا لم نعط الأمان من المقت والغضب في أعلى الأحوال ولا أدناها؛ لأنَّ المحو والإثبات ليلاً ونهاراً، ولا أمان معهما لأحد غير الأنبياء ومَنْ أراد الله تعالى، فالزم الذلَّ دائماً والفقرَ من كلِّ شيء إلى الغني الحميد تكن عبداً - إن شاء الله تعالى - غير واقف مع شيء من الحظوظ دنيا وعقبى، فلا يُعرف لك مقام في

شيء؛ لأنه لا يعرف له مقام إلا من وقف معه؛ ومن لا يقف مع شيء لا يعرف له مقام في شيء، فهو مستور في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى، ولذلك قال المحقِّقون: (تعريف الولي منزلته من غير إذنٍ إلهي ولا إذن رباني [٨٧/أ] من هوى النفس بتأويل ظهر له، وهي من المزَلأت؛ لأن الموطنَ الدنيويَّ لا يقتضي التعريف بالمقام إلا للأنبياء خاصة إذا أرسلوا، وأمَّا الأولياء فحضرتهم العبودية المحضة؛ فهم في ستر مقامهم وحالهم لربهم لا لأنفسهم).

فاعلم أنَّ أعلى طوائف العبيد من لا مقام له، وذلك لأنَّ المقامات حاكمة على من كان فيها، والرجل من له الحكم لا من يُحكم عليه، فأصحاب المقامات هم الذين انحصرت هممهم إلى غايات ونهايات، فإذا وصلوا إلى تلك الغايات تجددت لهم في قلوبهم غايات أخرى تكون تلك الغاية التي وصلوا بها بدايةً لهذه الغايات الأخرى، فتحكم عليهم الغايات بالطلب، ولا يزال لهم هذا الأمر دائماً، وأما العبيد فمالهم هذا الحكم ولا هذا الحصر، لأنهم علموا اتساع الحقّ، وأنه ليس له غاية في نفسه ينتهي إليها وجوده، فلا غاية له في شهوده لأن الحقَّ مشهودهم، ولذلك كان القطب المحمَّدي لا يتميز عن غيره إلا بأنه لا مقام له يتعين، فمقامه مقام، ونسبة المقامات إليه نسبة الأسماء إلى الله تعالى، فلا يتعين في مقام ينسب إليه، بل هو في كلّ نفس وفي كلّ زمان وفي كلّ حال بصورةٍ ما يقتضيه ذلك النفس أو الزمان أو الحال، فلا يستمر تقييده؛ فإن الأحكام الإلهية تختلف في كلّ زمان فيختلف باختلافها، وهو عزّ وجلّ كل يومٍ في شأن، فكذلك المحمدي.

فإذا علمت ذلك فلنذكر جملةً من أحوال السَّالكين ومقاماتهم السَّاقطة بالعبودية؛ لتعلم أنَّ العبودية هي المرادة منك وأنها أقرب [٨٧/ب] الطرق وأخصُّ مراتب الأنبياء والصِّدِّيقين، ولذلك لما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أن

يكون نبيًّا ملكاً أو نبياً عبداً؛ اختار العبودية، وقوله: «**أنا سيّد ولد آدم ولا فخر**»[١] أي: لا أفتخر بالسيادة؛ إنما الفخر لي بالعبوديّة لله تعالى ولأجلها كان الإيجاد ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢]، وأيضاً فإنه ما قال ﷺ ذلك إلا لعلمه بأنه صاحب الشفاعة العظمى، ولذلك لما يأتون لغيره في القيامة ليشفع؛ يأبى إلا هو، فقصد تقريب الأمر على أمته ليبادروا إليه أولاً.

واعلم أن روح العبودية عِلمُ العبدِ بأنه عبدُ الله، فإنَّ العبودية نفسها ليست بحال قربة؛ لأنها تقتضي البعد من وصف السيد لما فيها من الذل والعجز المباينين لرتبة السِّيادة ولذلك لما حار أبو يزيد في القرب؛ وما عرف بماذا يتقرَّب إلى الحقِّ قال له الحقُّ: (تقرَّب إليَّ بما ليس لي؛ الذلّ والافتقار)، فنفى عن نفسه الذلَّ والافتقار، وما نفاه عنه فإنه صفة بعد منه فافهم.

واعلم أنَّ العبد ما خُلِقَ بالأصالة إلا ليكون لله عبداً فيكون عبداً دائماً، فإذا خلع الله عليه خلعة السِّيادة وأمره بالبروز فيها برز عبداً في نفسه، سيِّداً عند الناظر إليه، فتلك زينة ربِّه وخلعته عليه، وقيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه في تمسح الناس به وتبرُّكهم فقال: (ليس بي يتمسَّحون وإنما يتمسَّحون بحلية ربِّي التي حلاني بها، أفأمنعهم ذلك وذلك لغيري).

واعلم أن صفاتك ليست من صفات سيِّدك لتستريح من دعوى ما ليس لك ولا من وصفك، وترى أنَّ وصفك إنما هو الذل والعجز ورؤية التقصير في جميع أحوالك [٨٨/ أ] وإن جلَّت؛ هذا أشرف أحوالك، وقد تبختر بعض العارفين رضي الله عنه في مشيه شبه المعجب التائه بنفسه، فقيل له في ذلك فقال: (وكيف لا أتيهُ وقد أصبحت عبداً محضاً خالصاً لا أعرف للربوبية

---

(١) عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر». أخرجه الترمذي (٣١٤٨).

(٢) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

طعماً؟)، وهذا مقام عزيز لا يكون إلا لواحد زمانه في كلّ عصر، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحقّقنا بالعبوديّة، وأن لا يحول بيننا وبينه إلى أن نلقاه، ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1]، فمن ذلك رؤية العبد أنه تاب مما سوى الله تعالى إذا حصلت له هذه الرتبة، لأنَّ رؤيته هذه تسترقه فيخرج عن العبودية، فيتوب عن هذه الرؤية امتثالاً لأمر الله تعالى أن لا يتخذ من دونه وكيلاً، وإذا وقف العبد مع ما مُنح من العطاء حُجب عن المانح، وقد قال الشبلي رضي الله عنه: (حدُّ التوبة أن لا تشهد في الدارين سوى الله تعالى)، (ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل)، ومن ذلك التفكير في ملكوت السموات والأرض يشهد الحقَّ فيه؛ لأنه طلب لحالة ما يكون مع الحقّ سبحانه وتعالى، والعبد يشهد سيِّده دائماً في كلِّ مكان بلا مكان، فهو دائم الوقوف بين يديه لا يطلب منه شيئاً لا بلسانه ولا بقلبه إلا على وجه الذلّ والفقر عبودية محضة؛ لا ترجيح فيها للعطاء على المنع بوجه، فمتى ترجح عنده العطاء على المنع أو السّعادة على الشقاء فهو في حظ نفسه لم يبرح؛ مع ما في ذلك من التحكم على الله تعالى؛ وهذا لا يُدرك إلا ذوقاً، فكم من شخص طلب من الله تعالى شيئاً معيناً؛ فلما أبطأ أدركه الندم على ما عيَّن، وتمنى أن لو لم يكن سأل ولا عيَّن، وذلك واقع كثيراً في الأمور الرفيعة سواءٌ كانت [٨٨/ب] دنيوية أو أخروية، كمن تمنى أن يكون شيخاً مثلاً؛ فلما أعطاه تعالى المشيخة جاءه البلاء وتوجَّهت إليه الآمال، وتمنى أنه لو كان لم يعرف، كمن تمنى وهو فقير أن يعطيه الله تعالى المال فلما أعطاه طلس قلبه وأُعمي عن الخير وصار يقول: (هنيئاً للفقراء الراضين الذين لا يبالون بما زوي عنهم من الدنيا).

واعلم أن كلَّ من كان مبتلى بالله تعالى أخف ممن كان مبتلى بنفسه؛ على أن بعض العارفين رضي الله عنه، قال: (لا يخرج الأولياء عن حظوظ أنفسهم

---

(١) سورة الحج، الآية (٦).

إذا كان لهم طلب إلى حالة من الأحوال، حتى في حال طلبهم الحقّ، فإنه لا يصحُ أن يُطلب الحقُّ للحقّ؛ وإنما يطلب للحظ، فإن فائدة الطلب التحصيل للمطلوب، والحقُّ لا يحصل لأحدٍ منهم، فلا يصحُ أن يكون مطلوباً، فلم يبق إلا الحظ) فافهم.

فليحذر العبد من التفكير الذي لم يؤمر به، لأنه طلب للحقّ وللكون وقد عرفت مافيه، وفي الخبر: (إن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم)، فاشتركنا في الطلب مع الملأ الأعلى ولكن اختلفنا في الكيفية؛ فمنا من يطلبه بفكر ومنا من يطلبه به، وأما الملأ الأعلى فيطلبه بالعقل و ماله الفكر، وليس منه من يطلبه به، وسببه كون الكامل منا على الصورة وليس الملك عليها، فلهذا صحَّ من الكامل منا أن يطلبه به، ومن طلبه به وَصل إليه وأنه لم يصل إليه غيره.

واعلم أن الذات مجهولة غير مقيدة بتقييد معين ولولا هذا لتخيرت، كما أشار [٨٩/أ] إليه الحديث في قرب محمد ﷺ ليلة الإسراء قاب قوسين، وقرب يونس وهو في بطن الحوت في قعر البحار؛ وهما على حد سواء في القرب مع الحقّ، فالصعود والهبوط على السواء، فحكمه على العرش كحكمه تحت الثرى، فإن كان ولابدَّ من التفكير فالتفكير في نفسه، لقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾(١) ولا يتعداها لجانب الحقّ تعالى فإن مآله إلى الحيرة، وكيف يحيط الحادث بالقديم مع أن الاشتغال بالتفكر وبعدم الشكر؟! فيكون صاحب عذابين، وغاية مايصل المتفكر إلى ما ولَّده فكره، وقد يفهم ذلك من الإشارة عقب قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾(٢) فإن كان العاقل مؤمناً كان طعناً في إيمانه، وإن لم يكن مؤمناً فيكفيه أنه ليس بمؤمن، فذات الله

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٢١).

(٢) سورة الإخلاص، الآية (٣).

سبحانه وتعالى لا تدرك بالفكر والعقل، لأنَّ كل دليل عقلي يقبل الشبهة، ولهذا اختلف العقلاء؛ فكلٌ واحد من المخالفين عند دليل مخالفه في شبهة لمخالفه، لكونه خالف دليل هذا الآخر، فعين أدلتهم كلها عين شبهتهم، فأين الحقُّ وأين العقل؟ وأصل الفساد إنما وقع من حيث حكموا الخلق على الحقّ الذي أوجدهم، مع أنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد؛ ولا يدرك ولا يعرف إلا تقليداً، ولولا إخباره بصفاته ما دلَّ عليه عقل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا [٨٩/ب] كُنتُمْ﴾(١)، ولم يقل: وأنتم معه؛ لأنه مجهول المصاحبة، فهو سبحانه وتعالى يعلم كيف يصحبنا ولا نعرف كيف نصحبه، فالمعية له ثابتة لنا منفية عنه، فافهم.

واعلم أن عِلْمَ كل أحد بالله سبحانه وتعالى على قدر نظره واستعداده وما هو عليه في نفسه، فما اجتمع اثنان قط على علمٍ واحدٍ في الله من جميع الجهات كما لا يجتمعان على مزاج واحد كذلك، وهنا أسرار يفهمها أهل الله تعالى.

واعلم أنه لم يسلم أحد من التفكير في ذات الله تعالى مع النهي عن التفكير فيها حتى الغزالي رحمه الله، وخطَّأه العارفون في جميع ماقاله، وهو مسؤول عن ذلك، لأنه رجَّح عقله على إيمانه وحكَّم نظره على عِلْمِ ربِّه، وقد حار العارفون رضي الله عنهم في ذاته سبحانه وتعالى، وكذلك خطَّؤه في قوله: (إن الله تعالى يعرف من غير نظر في العالم)، فإن راموا أن يفصلوا نسبة الحقّ من العالم لا يقدرون، وإن راموا أن يجعلوه عين العالم لا يقدرون؛ ولا يتحقق لهم ذلك، فهم متحيرون؛ فيقولون في وقت: (هو) وفي وقت (ماهو) فلا يستقر لهم فيه قدم، وغالب الخلق الذين يطلبون معرفة حقيقة الذات حائرون في عمياء يخبطون فيها خبط عشواء، وماثم نور الإيمان تدرج

---

(١) سورة الحديد، الآية (٤).

الأدلة فيه، فغاية المعرفة العجز عن المعرفة، كما قال السيد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولعله سبحانه وتعالى إنما أحالنا في معرفته على معرفة نفوسنا لعلمه أنَّا لا ندرك ولا نعلم حقيقة نفوسنا ونعجز عن معرفتنا بنا فنعلم أنا به أعجز، وإن قلنا: [٩٠/أ] (لا نحصي ثناءً عليك)، فهذا الإطلاق يقيده، فقد قيدنا بالإطلاق؛ فثناؤنا عليه بنا تقييد له من باب أولى، فظهر من تضاعيف الكلام أن الحيرة في الحقِّ هي عين الوصول إليه.

واعلم أنَّ البهائم مفطورة على الحيرة في الله تعالى، فأعلى ما يصل إليه أهل النظر الصحيح وأهل التجلي مبتدأ البهائم، لأنَّ أهل النظر يريدون أن يخرجوا بنظرهم عن الحيرة إلى معرفة الحقِّ يقيناً، فيؤدِّيهم ذلك إلى ما فروا منه، والبهائم ليس لهم فكر ولا نظر لينتقلوا بهما عن حال فطرتهم التي خلقوا عليها، فأشدُّ الناس حيرة في الله تعالى أكثرهم علماً به، ولذلك كان أشد آية على العارفين قوله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾(١) لما فيها من التداخل والشبه على من استدل بفكره وعقله؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يحكم عليه خلق من عقل وعاقل؛ وإنما يُعرَفُ الحقُّ من الحقِّ كشفاً وشهوداً بوحي، فتكون المسألة منه وشرحها منه؛ فلا يعرف من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٢) وصف شيء بنفسه، فكلٌّ من وصف الحقَّ بوصفٍ لم يصفه الله تعالى بنفسه فهو قاصر في وصفه لأنه ربُّ العزة، ولأنه وصفٌ لا يقيده نعت ولا يدل على حقيقته اسم، وإلا فليس بربِّ العزة؛ فإنَّ العزيز هو المنيع، ومن يوصل إليه بنعت أو وصف أو علم أو معرفة فليس بمنيع الحمى، فلذلك عم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾(٣)

---

(١) سورة الصافات، الآية (١٨٠).

(٢) سورة الشورى، الآية (١١).

(٣) سورة الصافات، الآيتان (١٨٠-١٨١).

لأنهم أكمل الخلق معرفة بالله، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[١] على ذلك الكمال؛ فلا يخوضون في شيءٍ من صفاته الآية.

واعلم أن الأدلَّة [٩٠/ب] العقلية اجتمعت من كل طائفة؛ بل من ضرورات العقول أن لهم موجداً أوجدهم يستندون إليه في وجودهم وهو غنيٌّ عنهم، ما اختلف اثنان في ذلك قط، وهو الذي طلب الحقّ من عباده الافتقار إليه والعبودية؛ أي إثبات وجوده، فلو وقفوا هنا حتى يكون الحقُّ هو الذي يعرفهم على لسان رسوله ﷺ بما ينبغي أن يضاف إليه ويسمى به أفلحوا، لكنهم لم يقفوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٢] لأنه رأى لنفسه قوة فكرية فتصرَّف بها في غير محلِّها؛ فتكلَّم في الله بحسب ما أعطاه نظره فأخطأ، فافهم ذلك.

واعلم أنَّ المراد بكلام الصدِّيق السابق العجز عن الحكم على الله بما لا ينبغي له فقط بطريق دليل العقل، أما من أخذ العلم به من الله لا من دليله ونظره فهذا لا يعجز عن حصول العلم بالله؛ لأنه علم موهوب من حكيم حميد، فالقائل: (سبحان من لا يُعرَف إلا بالعجز عن المعرفة به)؛ صاحب عِلْم نظر لا صاحب علم تعريف إلهيّ، فالحقّ سبحانه وتعالى يعلم ويرى؛ لأنه إنما خلق المعرفة المحدثة به لكمال مرتبة العرفان ومرتبة الوجود، فتأمل هذا المحل فإنك لا تجدُه في كتاب؛ والكلام عليه يستدعي مجلَّدات، وسيأتي في الكلام على مقام المعرفة مزيد بيان.

وسئلت عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[٣] فرأيت في عالم الخيال العرش وما حواه علواً وسفلاً وأنا داخله، فجاء طائر أبيض طويل العنق فالتقط العرش بما فيه، فشهدته مع الطائر الذي التقطه [٩١/أ] بالنسبة

---

(١) سورة الصافات، (١٨٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية (١١).

(٣) سورة طه، الآية (٥).

لما لا يتناهى من سائر جوانب العرش كالهباء في الكوة إذا فتّشته لم تجد شيئاً، لأنه لم يأتنا في كتاب ولا سنة أن الله تعالى خلق فوق العرش شيئاً؛ فليس فوق العرش سقف إلى ما لا يتناهى، فلا خلا ولا ملا وليس تحته قرار إلى ما لا يتناهى كذلك؛ وكلُّ هذا مخلوق وقد وقعت فيه الحيرة فكيف بخالقه؟ وكيف يتوهم أنَّ العرش مُستَقَرُّ الحقّ سبحانه وتعالى، تعالى الله عمّا يصفون، والحمد لله رب العالمين.

ومن ذلك الحزن، فالعبد لا يحزن على فوات شيءٍ؛ لأنه لو قسم له ما فاته، فإنَّ الوقت الذي قسم له فيه طاعة لا يمكن خلوه عنها؛ والوقت الذي قسم له فيه بطالته من كسل وخمول وغيرهما لا يمكن خلوه عنه؛ ووقت النوم لا يكون يقظة؛ ووقت اليقظة لا يكون نوماً، وغير الولي لا يكون ولياً وهكذا.

ففي الحقيقة لم يفته شيء قُسم له ثم فاته حتى يحزن عليه؛ وإنما هو توهم على غير حاصل، والوقت الماضي ذهب بما فيه من خمولٍ وكسل، والحزن يعطل وظيفة الوقت الحاضر عن كمال الإقبال، والعبد مأمور بالإقبال على الله تعالى في كلّ نفس ولو في أسبابه، فيشهد إقامة الله له فيها.

واعلم أنَّ من حزن على شيء من الدنيا والآخرة لاستبعاد أن إيجاد ضد ما وقع له كان أولى فقد تعرض لمقت الله تعالى، لأن الحزن سوء أدب معه تعالى، فإنه طلب لما لم يقسمه له كالتمني المنهي عنه، وصاحبه مع نفسه؛ فلو كان مع ربّه رضي بكلّ حالة برزت [٩١/ب] على يده؛ لأنه تحت القهر.

واعلم أنه ليس في هذا الذي قررناه ترك للأمر بالعمل، لأن ذلك لا يصحُ، لأنَّ قولنا للعبد لا تُصَلِّ مثلاً لا يصحُ امتثاله إلا إن سبق في عِلْم الله تعالى أنه لا يصلي ونؤاخَذُ نحن بأمرنا بالمنكر، وقولنا له: صلِّ؛ مثلاً لا يصحُ امتثاله إلا إن سبق في عِلْمِ الله تعالى أنه يصلي وحصل لنا وظيفة الأمر

بالمعروف، والأمر بالعمل باقٍ على وجوبه في كلّ وقتٍ، وكلُّ شيءٍ برز بعد الأمر أو النهي من الموافقة أو المخالفة. وهو السَّابق في علم الله تعالى. فإنَّ العبد لا يعرف ما سبق له في علم الله تعالى إلا بعد وقوعه، وأما المحو والإثبات في نفس الأمر فلا عِلْمَ للعبد به، لأنه لا يعلم ما برز على يديه إن كان محواً بعد إثبات أو إثباتاً بعد محو، ولا يخفى أنَّ العبد يعطي كل ما برز على يديه حقَّه، فما فيه مخالفة للأمر يتوب ويستغفر منه، وما فيه موافقة له يحمد عليه، ومن فهم معنى قوله ﷺ: «كلٌّ ميسرٌ لما خُلِقَ له»(١) حقق هذا الأمر إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك الخوف والرجاء، أما الخوف فالمطلوب فيه أن يكون على سبيل الإجلال والتعظيم لله تعالى؛ وتعظيم كل إنسان وإجلاله بحسب رتبته ومعرفته بالله تبارك وتعالى، قال ﷺ: «أنا أعرَفُكم بالله وأخوَفُكم منه».

وأما الخوف المعلول فهو لأهل الحُجُب، والعبد الكامل لا حجاب له عن سيِّده ولا مراد له مع مراده، فكيف يخاف لعلة من عقاب أو غيره؟ لأنَّ في خوفه هذا احترازاً على النفس لدفع مكروه [٩٢/أ] عنها - في زعمه - ولا يخفي عجزه عن دفع ذلك عنها مع ما في ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى.

وأما الرجاء فالمطلوب منه أن يكون على سبيل إظهار الذلّ والمسكنة؛ لا طلباً لوقوع ما يرجوه، هذا رجاء العارفين رضي الله عنهم؛ لأنهم على بصيرة من أمرهم، فلا رجاء عندهم لشيء، وحلاوة المنع عندهم كحلاوة العطاء رضي الله عنهم أجمعين، وهذا لا يدرك إلا ذوقاً، ولأنَّ في طلبه الوقوع لما يرجوه معارضةً للحقّ وتحجيراً عليه في ملكه، مع ما فيه من سوء الأدب

---

(١) عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

مع الله تعالى، لأنه طلب لما لم يستحق وجوده وقسمته له كالتمني، فهو رعونة نفس واختيار لحظها؛ والعبد ليس له مع الله سبحانه وتعالى إرادة ولا اختيار ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1] فمن ادَّعى أنَّ له إرادةً واختياراً مع الله تعالى حقيقةً فهو مشركٌ مدَّعٍ للربوبية بلسان حاله؛ وإن تبرَّأ من ذلك بمقاله، لأنَّ ما لله تعالى لا ينبغي أن يكون للعبد، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[2]، ولا يخفى أنَّ كلَّ من شهد له إرادة واختياراً ليس له من نسبتهما إليه سوى الاسم؛ كما هو مشاهد عند جميع الفِرَق؛ فهما فانيان في إرادة الله سبحانه وتعالى واختياره، ولا بأس بهذا الشهود بقصد الاعتراف لله تعالى بالحجة البالغة عليه، فإن نفى العبد إرادته واختياره يقع في العكس، فيصير للعبد الحجّة على الله تعالى، نسأل الله تعالى العافية بمنِّهِ وكرمه.

واعلم أنَّ كلَّ أحد يعلم تقرير هذه [٩٢/ ب] المسألة من نفسه يقيناً؛ لأنه فيها ليلاً ونهاراً؛ فإنه يختار فعل الشيء ولا يقدر على فعله ويكره فعل الشيء فيفعله على رغم أنفه ويتكدَّر لذلك، ومن كابر في هذا فهو مكابر في المحسوس.

واعلم أنه ليس من الاختيار المذموم الاختيار الذي هو ملازم الفعل، لأن ذلك من لازم العبودية؛ إذ لا يصحُّ امتثال الأمر واجتناب النهي إلا بعد توجه القلب للفعل أو الترك، فلا يتصور لنا فعل من غير اختيار إلا في المكره وحركة المرتعش، فلو خرج العبد عن العبودية بهذا الاختيار تفسخت عزائم العبيد في كلِّ شيء يراد منهم.

ثم اعلم أنه ليس من الأدب القول: أريد أن لا أريد، كما يقع ذلك لكثير

(١) سورة القصص، الآية (٦٨).
(٢) سورة القصص، الآية (٦٨).

من الفقراء، لأنَّ هذا إرادة؛ بل الأدب أن يقول: أريد ما تريد، هذا هو الذي تعطيه حقيقة الإنسان، فكما أراده الشْرع يريده؛ فيتصفُ بالإرادة لما أراده الشَّرع خاصة، فلا يبقى له غرض في مرادٍ معين، لأنْ جميع مختارات الشْرع وترتيباته ليس للعبد فيهما اختيار، لاندراج إرادة العبد في إرادته، فلا ينخدع عقل قاصر عن درك الحقيقة فيظن أنَّ الوظائف والأوراد ورواتب السنن يخرج بها العبد عن صريح العبودية، لأنَّ كلَّ شخص مخاطب بالخروج عن إرادته واختياره لإرادة الشارع واختياره فافهم، ولعل هذا هو المراد بقول أبي يزيد رضي الله عنه: (أريد أن لا أريد)، وبقول أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (لن يصل الولي إلى الله تعالى ومعه تدبير من تدبيراته [٩٣/أ] أو اختيار من اختياراته) فافهم وتأمل هذا الموضع فإنك لا تجده في كتاب.

ومن ذلك الزهد في حظوظ الدنيا والآخرة، لأنَّ رؤية كونه زاهداً فيها يحجبه عن سيِّده، ولأنَّ العبد ناظر إلى تصرف سيِّده في العطاء والمنع والأخذ والترك، فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً، ولأنه لا يصحُّ أن يزهد فيما قسم له، وما لم يقسم له لا يحتاج في تجنبه إلى الزهد فيه؛ لأنه ليس له، فالزاهد قسم الله له عدم الميل إلى تحصيل ما لم يطلبه؛ فأراحه من التضييق في معيشته من الأزل بالنسبة لما لم يحصل له لحكمةٍ يعلمها؛ ثم مدحه فضلاً منه كسائر النعم التي أعطاها لعباده وألبسها لهم، والراغب قسم له ما رغب فيه من وسع المعيشة وذمه عدلاً منه سبحانه وتعالى، فالعارفون عرفوا الوجه في ذلك؛ والجاهلون وقفوا عند المدح وفرحوا به ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾[1]؛ ولأنَّ جميع ما يرى الزاهد أنه تركه من الدنيا بتقدير كونه لا يساوي عند الله تعالى بعض جناح بعوضة، فلا يصلح أن يكون تركه كبير قربة إلى الله تعالى إلا من حيث إتيانه بصورة الصفة المحمودة عنده تعالى، ولا

---

(١) سورة المائدة، الآية (٤٨).

يخفى أن زهد كل إنسان على حسب رتبته عند من يقف معه ويرى أنه زاهد، فزهد الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام وورثتهم في أمور لا يذوقها غيرهم؛ كلٌ على قدر حظّه ونصيبه، فلا سبيل لنا إلى الكلام على منازلهم؛ لأنه لا ذوق لأحد منا في مقامات الأنبياء والرسل فلا يتكلم في مقام الرسل إلا رسول [٩٣/ب]، ولا في مقامات الأنبياء إلا نبي أو رسول، ولا في مقام الوارثين إلا رسول أو نبي أو ولي أو من هو منهم، هذا هو الأدب الإلهي، فلا نعرف مراتب الرسل إلا من الختم العام الذي يختم الله تعالى به الولاية في آخر الزمان، فكلٌ عن مقامه يترجم ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾[١]، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[٢].

واعلم أنه لا ينافي مقام أهل الزهد تجارتهم وبيعهم وسفرهم في أمور الدنيا الظاهرة، لأنَّ دنياهم لآخرتهم وآخرتهم لربهم، وعلى ذلك يحمل أصحاب التجارات والأموال من الصَّحابة والسَّلف الصَّالحين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣]، وبقوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[٤] وغيرهما من الآيات. ولا ينافي هذا قوله تعالى في حقّهم في آية أخرى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾[٥]؛ لأن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي للآخرة بذلاً وإيثاراً؛ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي لفضل الجهاد لا غيره ولم يطلب غنيمة ولم يلتفت إليها، فمِنَ الصحابة الفاضل والأفضل، والكامل والأكمل، فاحذر أن تظن به غير ذلك فتهلك، واحذر من الإنكار على المتسببين في

(١) سورة الصافات، الآية (١٦٤).

(٢) سورة السجدة، الآية (١١).

(٣) سورة النور، الآية (٣٧).

(٤) سورة الجمعة، الآية (١٠).

(٥) سورة آل عمران، الآية (١٥٢).

الدنيا من إخوانك وغيرهم إذا كنت متجرداً عنها، لأنّ الغالب عليهم عدم الدّعوى ورؤية التقصير واعترافهم بفضل المتفرغين لطاعة الله سبحانه وتعالى، والغالب على المتجردين من غير أهل الطريق الكبر والرياء والإعجاب والتزين للخلق لطاعة الله تعالى استجلاباً لما في أيديهم، وعلامة ذلك ذمهم الناس والأخذ عليهم إذا لم يكرموهم(١) [٩٤/أ]، وغيبهم(٢) الناس إذا لم يخدموهم؛ كما يشاهد منهم حين يسألون أحداً حاجة فلم يقضها؛ فإنهم يجدون استبعاداً في باطنهم، كأنهم يطلبون على عبادتهم أجراً من الناس؛ فالذي يخدمهم يحبُّونه ويقربونه ولا يعبسون في وجهه ولا يستثقلون جلوسه عندهم؛ والذي لا يخدمهم يفعلون معه ضد ذلك.

ومن ذلك **الورع** عن كلّ ما يشغل عن الحقّ سبحانه وتعالى، فمن رأى نفسه في ذلك شغل عن الحقّ تعالى، ولأنَّ العبد راضٍ بما أقامه سيّده فيه، فأعلى المراتب كأدناها عنده إذا شهدها منه، ولأنه سبحانه وتعالى معه في كلّ حالة على حدّ سواء، وشهوده البعد وهمٌ منه لحجابه، ولأنَّ كل حالة يكون للعبد فيها طاعة ومعصية هي المراد منه، وإن خالف الأمر فهو مطيع للإرادة، ولذلك قال بعض العارفين رضي الله عنهم: (ولا يتوقف الفتح على الطاعة، فقد يفتح في غير الطاعة أعظم مما يفتح فيها، فإنَّ الفتح جودٌ ومِنَّةٌ والأعمال للجزاء في الدار الآخرة).

واعلم أنه من المحال أن يأتي مؤمنٌ معصيةً توعَّد الله تعالى عليها بالعقوبة إلا ويجد بعد الفراغ الندم على ما وقع منه، وفي الخبر «**الندم توبة**»، فلا يتصور ترك الندم للمؤمن العاصي؛ فلا بدَّ أن يكره المخالفة ولا يرضى بها، فهو مؤمن بأنها معصية ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا

(١) في المطبوع: يلزموهم.

(٢) في المطبوع، عيبهم.

وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾(١) فالعمل الصالح إيمانه بأنها معصية؛ والعمل السيء كونه فاعلاً لها.

واعلم أن العبد أصغر قدراً وأحقر من أن يخالف الله سبحانه وتعالى باطناً وظاهراً [٩٤/ب] مستقلاً بلا إرادة سابقة؛ لأنَّ ذلك إنما يكون للعبد المستقل بما يفعل وذلك محال؛ فجميع الخلق ولو ادّعوا الإلهية تحت القهر والقضاء السَّابق لا يخرجون عنه، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾(٢) فتسمية الخلق عصاة ومخالفين إنما هو بحسب الأمر الظاهر؛ وفي الحقيقة لا يخرج أحد عن طاعته فيما يريده منه، فمن أراد له طاعة الأمر لا يمكنه المخالفة، ومن أراد له معصية الأمر لا يمكنه الطاعة، ومع معرفتنا هذا الأمر نقوم بما كُلِّفنا به من الأمر بالمعروف لمن خالف الأمر بالإرادة أيضاً، فقد يريد هنا السكوت على المنكر فلا يمكننا النطق بالنهي عنه؛ وقد يريد منا التغيير له فلا يمكننا السكوت عليه، وهذا مشاهدٌ كثيراً، فالعبد تحت تصاريف الأقدار، وأحقُّ ما اتَّصف به العجز، وأحسن أحواله الاعتراف بالتقصير في جميع معاملاته مع الله سبحانه وتعالى.

واعلم أن من كمال الوجود إرادة الحقّ أن يكون في عباده المخالفة والمعصية، فالنقص من ذلك نقص في العالم لقوله ﷺ: «**لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم وجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»، وإنما لم نأمر بعضنا بالمعاصي والفساد إذا كان نقصاً من الوجود أدباً مع الله تبارك وتعالى، لأنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾(٣)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٢).

(٢) سورة الإنسان، الآيتان (٢-٣).

(٣) سورة الأعراف، الآية (٢٨).

﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[1] ونسب الأمر بذلك إلى الشيطان في مثل قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[2] وأمثالها؛ لأنه منديل هذه الدار يمسح [٩٥/أ] فيه أوساخ النسب، وهي نسبة إضافة وإسناد لا نسبة خلق وإيجاد، ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[3]، والمراد من الله خلقاً وإيجاداً ومن نفسك إضافة وإسناداً فافهم.

فتعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، ولم تزل الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام تضيف الفعل المعيب إلى نفسها؛ والحسن إلى الله تعالى أدباً مع الله بما الأمر عليه، فقال الخِضر عليه السَّلام: فأردتُ أن أعيبها، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[4] فأضاف العيب إلى نفسه والمحاسن إلى ربه، وقال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾[5]، فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربّه؛ ولم يقل أمرضني، وقال نبينا عليه الصَّلاة والسَّلام: «**والخير كله بيديك والشر ليس إليك**»، فالتزم ﷺ أدب التعبير؛ مع علمه بأن الله تعالى خالق الشر، وإنما قلنا أن وجود المعصية من خلقه كمال له؛ ليظهر فضله على خلقه وحلمه عليهم ولطفه بهم مع كثرة عصيانهم ومخالفتهم؛ بخلاف ما لو كانوا كلهم مطيعين، فالعاصي داخلٌ في سياج الإرادة لم يخرج، ولهذا قال شيخنا رضي الله عنه: لا يتخلص لمؤمن معصية محضة قط فلابد أن يشوبها طاعة، وهي موافقة الإرادة؛ ومرادنا الموافقة في حال فعلها، لأنَّ أهل الله سبحانه وتعالى يشهدون [٩٥/ب]

(١) سورة القصص، الآية (٧٧).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٦٨).

(٣) سورة النساء، الآية (٧٨-٧٩).

(٤) سورة الكهف، الآية (٨٢).

(٥) سورة الشعراء، الآية (٨٠).

جريان الأقدار عليهم فيبادرون لامتثالها؛ ليستوفوا المقدر الذي لا مرد له، ولهم حجاب رقيق يعرفونه يغشاهم لا يمكن التعبير عنه؛ لأنه لا يصحُّ من أهل الشهود مخالفة للحقِّ مطلقاً، وقد ورد أنه ﷺ قال: «**إذا أراد الله إمضاء قضائه وقدره سلب من ذوي العقول عقولهم؛ حتى إذا أمضى فيهم قضاءه ردها عليهم**»(١). الحديث، فلابدَّ من أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى يزين لهم ذلك العمل المخالف بتأويلٍ يقع لهم فيه وجه الحقِّ لا يقصدون به انتهاك الحرمة، فإذا وقع منهم المقدَّر أظهر الله لهم إفشاء ذلك التأويل الذي أدَّاهم إلى ذلك الفعل؛ وتقدَّم تقرير ذلك في الكلام على معصية آدم فراجِعْهُ.

وبالجملة فهذا مسلك ضيق يدقّ، وأما من تخلف شهوده لذلك عند الفعل فهي معصية محضة في زعمه شديدة القبح، لقوة جراءته حينئذ على مخالفة الله تعالى ومعصيته، وذلك قدح في الخطاب والتكليف ومباهتة للحسّ.

واعلم أنه يقع للسالك في حال نفسه غلبة شهود الفعل لله تعالى فيقول: «**ما عصى الله تعالى أحد ولا أطاعه أحد بل الأمر كله لله**»، وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾(٢)؛ لأنه يشهد أفعال العباد خلقاً لله تبارك وتعالى، والعبد محل لذلك الخلق فيه أو به أو عنده على حسب ما يعطيه نظر كل ناظر، لأنَّ كون الأفعال طاعة أو معصية ما هو عينها، وإنما ذلك حكم الله تعالى فيها؛ فيؤاخذ العصاة بما فعلوا؛ لأنهم سبب في إيجاد المعصية وإقامة [٩٦/أ] نشأتها؛ وهي معصيةٌ في حقهم لكنها نشأت مطيعة لله تعالى تستغفر للسبب الموجب لها لوجودها، ولا علم لها بكونها طاعة أو معصية؛ لأنها غير مكلَّفة، وما في العالم إلا منشأ صور أعمال متعدية في الشرع لطاعة أو

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١/ ١٠٠).

(٢) سورة هود، الآية (١٢٣).

معصية؛ فلا طاعة ولا معصية، فإذا نشأت فلا غذاء لها إلا التسبيح بحمد الله، وتسمَّى هذه حضرة الأفعال؛ لأنه يتساوى عنده الطاعة والمعصية ولا يسعه غير هذا، ولما دخلتها خلَّصني الله تبارك وتعالى فيها من تناول ما حرَّمته الشريعة في مدَّة يسيرة، وساعدني على ذلك ما عندي من العلم بتفرقة الشَّارع بين الطاعة والمعصية - وإن كان الكلُّ فعله - فإنَّ غالب من يكون فيها ممن لم يكن عنده علم بذلك يصير عند صاحبها نعيم لا يعادله نعيم، لأنه يصير لا خوف عنده ولا رجاء.

واعلم أنَّ العبد لا يقدر على تخليص الفعل بجانب الحقِّ تعالى لارتفاع حكمة الخطاب بالتكاليف، ولأنه لا يأمر وينهى إلا من له قدرة على فعل، وقد ثبت التكليف للخلق بالأوامر والنواهي وكون الإنسان خُلِقَ على الصورة من الاستخلاف على غيره، ويؤيد ذلك أنه حينئذ يطلب وجود الفعل له والحقُّ يشهد له، ولذلك قال بعض مشايخنا بالميل إلى الكسب جزماً؛ لأنه أقوى في الدلالة؛ ولا يقدح فيه رجوع كلُّ ذلك إلى الله سبحانه وتعالى بحكم الأصل، فإنه لا ينافي هذا التقرير، فما ضعفت [٩٦/ب] حجَّة القائلين بالكسب عند من لا يقول به من كونهم قائلين بالكسب؛ لأنَّ ذلك لا خلاف فيه عند الفريقين، لأنه خبر شرعي وأمر عقلي؛ وإنما ضعفت حجَّتهم من نفيهم الأثر عن القدرة الحادثة فافهم، وكذلك أيضاً لا يقدر أحد على تخليص الفعل لجانب الخلق لا من طريق النقل ولا من طريق الكشف، وجميع شرائع الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام على هذا الحكم، فلم تأت شريعة تخلص الفعل لأحد الجانبين، لأنك إن نسبت الفعل إلى قدرة العبد كان لذلك وجه في الأخبار الإلهية، وإن نسبت الفعل إلى الله تعالى كان لذلك وجه فيه أيضاً.

وأما الأدلَّة العقلية فهي متعارضة - وإن كانت غير متعارضة في نفس الأمر - وإيجاد الفعل لا يكون بالشركة، ولهذا لم يُلحق المعتزلة بالمشركين لأنهم

أضافوا أفعال العباد للعباد، فما جعلوهم شركاء وإنما أضافوا الفعل إليهم عقلاً وصدَّقهم الشَّرع في ذلك، والأشاعرة أضافوا فعل الممكنات كلّها من غير تقسيم لله عقلاً، وساعدهم الشَّرع على ذلك، وهذا أقوى عند أهل الكشف من أهل الله تعالى، فاعلم أنَّ هذه مسألة لا يتخلص فيها توحيد لجانب البتَّة؛ فيقرها كما أقرها الله تعالى، فلابدَّ لك في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١) من عينين: عين تدرك بها أن الرمي لله تعالى؛ وعين تدرك بها أن الرمي للعبد، وصاحب العين الواحدة أعور - من فقير وغيره - فلا يعلم حقيقة هذه المسألة إلا أهل الكشف خاصَّةً، وأما غيرهم فلا يزالون مختلفين دنيا وأخرى، غير أن الجنة لا نزاع فيها كالدنيا، لأنَّ كل واحد قد قرره الحقُّ على اعتقاده، فما في المسائل [٩٧/أ] الإلهية ما يقع فيه الحيرة أكثر ولا أعظم من مسألة الأفعال المحمودة والمذمومة لا سيما في الكلام على تحقيق ذلك، وهنا يقال بوجوب الإيمان بطريقين متناقضين وهو من أعجب الأمور!.

فإذا علمت جميع ما قررناه علمتَ أن حجَّة الله لم تزل قائمةً على عبده في كلِّ حالة هو فيها علوّاً وانخفاضاً، لأنَّ العلم تابع للمعلوم وما هو حاكم على المعلوم، فإذا قال العبد: لِمَ تؤاخذني؟ قال له الحقُّ: وهل آخذتك إلا بما أنت عليه في حال عدمك؟ فما أبرزتك في الوجود إلا على قدر ما أعطيتني من ذاتك بقبولك، فيعرف العبد أنه الحقّ فتندحض حجَّة الخلق في موقف العرفان، فاعتراف العبد بالعجز والتقصير أولى به في كلِّ أحواله، فتأمَّل في هذا المحل فإنك لا تجده في كتاب.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التبتل: وهو الانقطاع إلى الله تعالى دون غيره من الأنام على وجه الإرث عنه ﷺ: ، وهو - أي الفقير - لم يصل إلى

---

(١) سورة الأنفال، الآية (١٧).

ذلك، لأنه نازع إلى طلب قرب ووصول وطلب الحقّ من جهة مخصوصة وحال مخصوص. سواء كان بالخلوة والجوع أو بغيرهما. لأنّ العبد الكامل لا طلب له في سكونه وحركته وعزلته ومخالفته، وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من أقبح الذنوب عند بعض أهل الله تعالى التملّق بالطاعات والأوراد لنيل قربه أو غيره، وقد جفّ القلم بما هو كائن فلا تقوى تقيٍّ تزيده ولا فجور فاجرٍ ينقصه ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ [٩٧/ب] مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[١]، إذا علمت ذلك فدعوى المتبتل منا أنه خرج عن كلّ ما سوى الله إلى الله جهلٌ محضٌ؛ لأنه يتخيل أن العالم بمعزل عن الله؛ والله بمعزل عن العالم، فطلبَ الفرار إلى الله بحسب ما خيل وهمه، وسبب ذلك عدم الذوق للأشياء؛ وكونه سمع في القرآن: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[٢] وهو صحيح إلاّ أن الفارّ بهذه المثابة لم يجعل باله إلى ما ذكر الله في الآية التي عقبها وهو قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾[٣] فلو عرف هذا؛ عرف أن المراد بالفرار أن يفرّ من الجهل إلى العلم لا غير، لأنّ الحقّ أقرب إليه من نفسه؛ وهو مع كلّ شيءٍ على حدٍّ سواء، وبالجملة فحكم الفارّ من الخلق. إذا حصل له صفاء قلب ورقة حجاب. حُكْمُ الرطب المعمول؛ بخلاف من وهبه الله سبحانه وتعالى الاشتغال به عمن سواه، فإن حكمه كالرطب الجني، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾[٤]، فافهم ذلك وبالله التوفيق.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل المراقبة لله تعالى تحجبه الرؤية عن المراقبة، فإذا كان يشهد أفعاله صادرةً من سيده فيراقب في ماذا؛ وكيف يصحُّ من العبد

---

(١) سورة الزمر، الآيتان (٢-٣).

(٢) سورة الذاريات، الآية (٥٠).

(٣) سورة الذاريات، الآية (٥١).

(٤) سورة المزمل، الآية (٨).

مراقبة، والله رقيب على مراقبته وعلى كل شيء؟! فرؤية التقصير أولى بالعبد، فإن حصل له مراقبة لا يقف معها؛ وإن لم تحصل له لا يطلبها؛ لأنه لا يعلم ما فيه صلاحه، فقد تكون الغفلة أولى لعدم خلوصه من الدعوى في اليقظة، وقد تكون اليقظة أولى له كما يشاهد ذلك أهل الله تعالى في جميع أفعاله معهم [٩٨/أ]، ولا يدرك هذا الأمر إلا بالذوق فافهم، والتسليم أسلم، ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾(١).

ومن ذلك رؤية كونه من أهل العبودية، لأنَّ العبد غائب عن رؤية عبوديته شغلاً بربّه؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى عليه في وقت رؤيته سهم من العبودية يطلبه منه بحكم الربوبية، فأين فراغه لغير ذلك؟ ولأنَّ العبد لا يرى أنه أعطي شيئاً من النعم الظاهرة والباطنة بسبب عبوديته، لأنه غارقٌ في نِعَم سيِّده، فلا يتأتى من جانبه عوض يقابل به المنة؛ لأنه مفلس على الدوام، وجميع أفعاله خلق الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢) ونحوها من الآيات محض فضلٍ كأصل الفعل، وإذا كان نسبة الفعل إلى العبد فضلاً، فأثر الفعل من باب أولى.

فمواهب الحقّ لا تتوقف على العلل ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾(٣)، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(٤) ومن ذلك رؤية كونه مخلصاً؛ أو شهود غيبته عن هذه الرؤية بشهود إقامة له في الإخلاص من غير تعمل وهو الدين الخالص وما قبله مخلصاً، فالخالص قام في العبد من غير استخلاص؛ وصاحبه ليس من العباد الذين أمروا أن يعبدوا الله مخلصين؛ إذ لا فعل له في الاستخلاص؛ لأنه لم يعرف إلا هذا الدين الخالص من غير شوب خالطه حتى يستخلصه منه

(١) سورة الحج، الآية (٦٨).
(٢) سورة السجدة، الآية (١٧).
(٣) سورة هود، الآية (١٢٣).
(٤) سورة الأنبياء، الآية (١٠٤).

فيكون مخلصاً، هذا لم يذق له طعماً مثل ما ذاقه الغير، ومن كان هذا [٩٨/ب] حاله من الدين فهو صاحب العمل الخالص فلا يشقى؛ لأنه لا يعرف الشقاء إلا أهل المكابدة والاجتهاد في استخلاص الدين، فمن أمرهم الله تعالى أن يستخلصوه منه - وليس على الحقيقة إلا هوى أنفسهم - وإنما كان العبد غائباً عن جميع النسب والدعاوى؛ لأنه لا يرى له نسبة في شيء، لأن جميع ما يجريه الله تعالى على يديه ليس له منه شيء، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[1]؛ ولأنَّ العبد إنما يعمل لنفسه فكيف يطلب أجراً على عمله، لأنَّ من خاط لنفسه قميصاً مثلاً؛ لا يَحسُنُ منه أن يطلب أجرته من أحد؛ بل يستخف الناس عقله، وكذلك الحكم فيمن يشهد الفعل محضاً لله تعالى فافهم، فالعبد إنما وظيفته امتثال أمر سيِّده واجتناب ما نهاه عنه بمعونة الله تعالى، ولا يخفى أن من يشهد أفعاله خلقاً لله تعالى يهون عليه أمر الخلاص وعلاجه وتنقية العمل مما يشوبه؛ لأن الشخص إذا أهدى الملك صنعته بلا تغيير وتدنيس منه لها؛ فلا عتب عليه ما دام يشهد هذا المشهد، وهذا لا يدرك إلا ذوقاً؛ فمن جهة كون الفعل فعل الحقّ سبحانه وتعالى لا عتب عليه وهو في غاية الكمال؛ ومن جهة كونه على يد العبد بروز وتدنس فهو مأمور بتنقيته مما يشوبه، ولا يصحُ له ذلك أبداً، فغاية صورة الإخلاص في العمل أن يقف العبد كشفاً، على أن الفاعل لذلك العمل هو الله سبحانه وتعالى، كما هو في نفس الأمر أي عمل كان، وكون [٩٩/أ] ذلك العمل محموداً أو مذموماً فذلك هو حكم الله سبحانه وتعالى فيه ما هو عين العمل، وأما إذا أهدى العبد للملك صنعة نفسه فإنه يحسنها جهده بل ذلك واجب على العبد ما دام يشهدها منه، فإذا علمت هذا فكلُّ عبادة وقعت على يديك معلولةً برياءٍ وغفلة، فمن الأدب إذا أعدتها أن لا تنوي بها تدَارك الخلل الواقع في العبادة وتستدرك بتلك عبادة

---

(١) سورة الصافات، الآية (٩٦).

الوقت الماضي وقد ذهب بما فيه، وهذه عادة الوقت الحاضر بل انْوِ بها امتثال الأمر، لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(١) وصلاتك أبداً لا تسلم من الخلل، ورؤيتك الكمال في الصلاة للعادة خطأ منك؛ لأن الفعل الخالي من الخلل - صلاة كانت أو غيرها - من خصائص رسول الله ﷺ، فاعترافك بالنقص والتقصير أولى دائماً - ولو في أعلى المراتب - فافهم ذلك.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الاستقامة، ومن أين للعبد ادّعاؤها وسيد المرسلين ﷺ يقول: «شيبتني سورة هود وأخواتها»(٢)، قال بعض علماء الصحابة رضي الله عنهم: (لا نرى ذلك إلا من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(٣) فافهم ذلك، وإن شهد العبد الاستقامة فهي مِنّةٌ من سيّده سبحانه وتعالى؛ لأنه هو المقيم له في الاستقامة، فلا ينبغي للعبد أن يقف مع هذه الرؤية فيحجب.

واعلم أنّ من الاستقامة ترك الدّعوى؛ سواءٌ كان المدّعي محقّاً أو مبطلاً ظاهراً وباطناً.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التوكل؛ لأنّ هذه الرؤية [٩٩/ب] للعوام؛ وأما العبيد الخلص فقد علموا أن الحقّ تعالى وكَل جميع الأمور إلى نفسه؛ فليس للعبد من الأمر شيء، فكيف المالك على ملكه؟ مع أنه سبحانه وتعالى أعلم بالمصالح ومواضع الإنفاق التي لا يدخلها حكم الإسراف ولا التقتير، فمن جعله وكيلاً بهذا الوجه فلا بأس، فالعبيد الخلّص ترقوا عن هذا التوكل المعلول، فتوكلهم شهودهم أن الأمر لم يزل موكولاً إليه سبحانه وتعالى،

---

(١) سورة الزمر، الآية (٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٤١).

(٣) سورة هود، الآية (١١٣).

وقولهم: (توكلنا على الله أو وكلنا أمرنا إلى الله)؛ امتثالاً للأمر لهم بأن يقولوا ذلك تعبداً وخضوعاً وإقراراً بالعجز عن أن يملكوا من أمرهم شيئاً، وأما الذين لم يشهدوا أن الأمر كله لله من العوام فتوكُلهم جَعْلهم الحقّ تعالى وكيلاً في أمرهم، ولا يخفى ما في هذا من سوء الأدب، لكن ذلك إن شاء الله تعالى جائزٌ لأمثالهم، فيخاطَبون على قدر عقولهم، لأنهم يوكلون المالك على ملكه، ولا يذوقون غير ذلك، فهم متخيلون أن الملك لهم وأنهم أصحاب الأموال؛ لتوهمهم أن إضافة الحقّ سبحانه وتعالى الأموال لهم بقوله: ﴿أموالُكُم﴾ إضافة مُلك، ولم يعلموا أن تلك الإضافة كإضافة سرج الدابة وباب الدار، وأيضاً فإن الحقّ سبحانه وتعالى لما تنزّل لهم ولعقولهم من كبريائه وتبرّع بكونه وكيلاً لهم؛ أورثهم هذا التنزل الإدلال، فغفلوا من لذته عن الأدب معه، فتجوزوا عليه وجعلوه وكيلاً لهم، وسلوك الأدب [١٠٠/أ] أولى من الانبساط؛ لأن الانبساط يجرُّ إلى المقت، ومن ادَّعى القرب من الله تعالى مع الإدلال فلا علم له بمقام التقريب؛ لأنَّ الإدلال على الله تعالى لا يصحُّ من المقربين، ومن كلام بعضهم: (مَنْ مرتبته الإذلال ماله وللدلال)، ويقال للمتوكلين: (في ماذا وكلتم فيه ربكم؟ إن وكلتم الأمر له فيما هو له فالأمر كله له قبل أن تُوكلوه إليه؛ وإن وكلتم إليه ما رأيتم أنه لكم فليس لكم من الأمر شيء»، فافهم والله يتولّى هداك، وهو يتولّى الصَّالحين.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التفويض؛ وهو معلولٌ أيضاً، لأنَّ الأمور كلها بيد الحقّ سبحانه وتعالى، فأي معنى لتفويض العبد الأمر إليه تبارك وتعالى والأمر لم يزل مفوّضاً إليه قبل العبد ومعه وبعده؛ فتفويض العبيد شهودهم أن الأمر لم يزل مفوضاً إليه، فهم متبرئون من مُلك ما نسب الحقّ إليهم من الأمور، معترفون بالعجز؛ هذا معنى قولهم فوضنا أمرنا إلى الله، ولكن ضاقت عليهم العبارة؛ لأنهم ممتثلون أمر سيدهم بهذا القول من غير

نظر وفكر إلى ماذا أراد بهم، لأنهم علموا من الحقِّ سبحانه وتعالى أنَّ جميع أفعاله عين الحكمة فلا تتعلل بالحكمة؛ إذ لو تعللت أفعاله بالحكمة لكانت الحكمة موجبة له، فيكون الحقُّ محكوماً عليه وهو محال، ولذلك كان ليس لهم نظر إلى عاقبة فعلهم وكلٌّ عن مقامه يتكلم [١٠٠/ب] فافهم.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الثقة بالله تعالى، ولا يخفى أنها معلولة؛ لأنها خلاصة مقام التوكل المعلول والتفويض المعلول، والعبيد الخلص لمَّا شهدوا ما قسم لهم في الأزل؛ أغناهم عن الطلب وعن التوسل بالوسائط، وإن توسلوا بها فهم غير واقفين معها فلا تحجبهم عن سيدهم؛ لأنهم يشهدون أنه لابدَّ من الوسائط؛ للحكمة الإلهية السَّابقة، لا سيما بعد وقوع ذلك، إذ ما أبرزه الله تعالى تبين أنه كان لا بدَّ منه، وكل واسطة قائمة بالمرتبة التي جعلها الحقُّ سبحانه وتعالى على يديه، فلا يمكن قضاء تلك الحاجة التي هي واسعة فيها إلا من بابه، فلا يسع العارفين أن يأتوا إلا من الباب أدباً مع الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾(١) فلو طلبوا قضاءها من غير واسطة عكسوا الحكمة ولم تنقضِ لهم، هذا فيما كشف لهم أنه لا يقضي إلا بالواسطة؛ أما ما علموه أنه لا يتوقف عليها فلا تحجير عليهم فيه - هذا حكم العارفين - وأمَّا العوام فإنهم واقفون مع الوسائط دائماً في جميع أحوالهم ولا يشهدون غير ذلك جملةً فهذا حدُّهم، وقد وقع لي في أول دخولي في طريق المحبّة للقوم أني كنت لا أرى منة للخلق في شيء؛ وإنما أرى المنة لله سبحانه وتعالى وحده، ولو جاءني شخص بطعام شهي لذيذ؛ أو بماء بارد بعد شدَّة الجوع والعطش، لا أشهده ولا أرى له منَّةً، وأرى رؤية المنَّةِ [١٠١/أ] منه شِركاً وقلَّة أدب مع الله سبحانه وتعالى؛ ثم خلَّصني الله تعالى منه وأطلعني على الحكمة في إثبات الوسائط، فعلمت أنه لا بدَّ منها؛

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٩).

فصرت أرى لها المنّة نسبة وأرى الوسائط كلها من جملة نِعَم الله عليَّ، وكنت في ذاك الحال لا أدعو لي ولا لغيري حتى في صلاة الجنائز ولا أقدر أنطق بذلك، كما لا أقدر أنطق بكلمة الكفر لغلبة شهود السوابق التي جفّ القلم بها، وكنت أعطيت قوة الأدلّة على ذلك والاستنباط، ولو أتوني بألف دليل أُخرِّج لها وجوهاً، وكنت أرى الحقَّ أقرب إليَّ مني فلا أجد للواسطة محلاًّ، ثم خلّصني الله من هذا بعد أيامٍ بحمد الله تعالى، وقد مكث بعض العارفين عشرين سنة لا يتجرأ أن يسأل، فنودِيَ: (اسألنا عبودية)، لا ترجيح فيها للعطاء على المنع، فدعا حينئذ، إذا علمت ذلك؛ فالأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام مُبرَّؤون ممن يقف من أممهم دون الله تعالى، لأنهم إنما كانوا يدعون الخلق إلى الله تعالى لا لأنفسهم، فهم طريقٌ لنا في حصول الأحكام المتوجهة إلينا بالتكاليف المقربة إلى الله تعالى والمبعدة عنه فقط، وليسوا مفيضين علينا الإمداد بلا قسمة أزلية من الله تعالى، فالوسائط كالقناة الجاري لنا منها الماء، فالحقيق بالحمد مَنْ أجرى القناة، فإن أَمَرَنا السيد سبحانه وتعالى بالثناء على الوسائط امتثلنا أمره من غير وقوفٍ معها، إلا أن هذا الوقوف عند العارفين سوء أدب مع الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ [١٠١/ب] قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(١) الآيات، فافهم ذلك، والله يتولّى هداك وهو يتولّى الصَّالحين.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التسليم، ولا يخفى أنه للعوام؛ لأن حقيقته في عرف اللسان تسليم ما دون الحقّ إلى الحق، ولا يخفى ما فيه من الجهل والدعوى، لأنه لا يملك شيئاً من باطنه ولا من ظاهره حتى يسلّمه، والعبيد الخُلّص لما شهدوا ذواتهم وصفاتهم وجميع الكائنات في قبضة الحقّ يتصرف فيها كيف يشاء؛ لم يجدوا شيئاً خارجاً عنها فيسلموه له فلذلك سلموا من

(١) سورة المائدة، الآية (١١٦).

رؤية التسليم ودعواه، ولا يخفى أن تسليم الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وورثتهم لا كلام لنا فيه، لأنَّ ذلك في أمور لا يذوقها غيرهم، ولا شك أن صفاتهم من أعلى مراتب صفات الخلق مع تفاوت مراتبهم فيما بينهم.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الصبر، لأنَّ في ذلك دعوى قوة الثبات على المحن والبلايا، وليس لنا سوى الله تعالى قوة أصلاً؛ لأنَّ القوة لله جميعاً، والعبيد الخُلَّص لما شهدوا عجزهم في كلِّ شيء ردُّوا الأشياء إلى الله تعالى، والصابرون لما رأوا صبرهم ردُّوا الأشياء إلى نفوسهم، وإثبات صفات النفس المباينات والصفات المحمودة في طريق الخواص منكرٌ منافٍ للتوجيه عند من يرى أنه موحد.

واعلم أنَّ من الأدب أن يتلقى العبد البلاء من المبلي ولا يشكو في انتفاء البلاء عنه إلا لمن أنزله به وهو الله سبحانه وتعالى، والبلاء عبارة عن وجود [١٠٢/أ] الألم وإحساسه به لا غير، إذا علمت ذلك فقد غلِط كثيرٌ من أهل الطريق فحبسوا نفوسهم عن الشكوى إلى الله تعالى فيما نزل بهم، وشبهتهم في ذلك أنهم يقولون: (لا نعترض على الحقِّ فيما يجريه علينا)، لأنه يؤثر في حال الرضا عنه، إذ لا يعلمون أنه قد حصل مقام الرضا بمجرد الإحساس بالبلاء وعده طلب دفعه هذا حده، وأما استصحابه فلا يشترط؛ لأن النفس كارهة لوجود الألم، ولذلك عبرنا أول الكلام بالألم لا بسببه - الذي هو البلاء - فافهم، واسأل الله أن يرفع عنك ما نزل بك لما يؤدي إليه البلاء من كراهة فعل الله سبحانه وتعالى بك، ولهذا وقع من الأكابر ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[١]، إذا علمت ذلك فمن الأدب أن ترجع بالشكوى إلى الله تعالى إذا كوشفت بالإجابة في السؤال، والإجابة رجوع أيوب عليه السَّلام أدباً مع الله تعالى حتى لا يقاوم القهر الإلهي، كما يفعله أهل الجهل بالله؛

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٨٣).

مدَّعين في ذلك أنهم أهل تسليم وتفويض وعدم اعتراض، فجمعوا بين جهالتين.

واعلم أنه قد وقع أيضاً التعليم لنا في السؤال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾(١) فافهم ذلك والله يتولَّى هداك، وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الرضا بما قسمه الله له في جميع الأحوال، لأن هذا الرضا فرع من الإرادة، والعبد لا إرادة له في جميع الأحوال مع الله تعالى ولا اختيار [١٠٢/ب]، وتقدَّم تقرير هذا بشروطه في جميع الرجاء فراجعه، فلذلك كان العبد لا يرى لنفسه سخطاً ولا رضاً ولا يرجح شيئاً على شيء، ولا يؤثر حالاً على حال، فهو راضٍ عن الله تعالى في كلِّ حالة هو فيها، وإن كانت معصيةً في الشرع فيرضى بها من حيث كونها فعل الله تعالى؛ ويتوب منها ويستغفر من حيث كونه اكتسبها، وخالف أمر الله تعالى بعد أن نصب له الدلائل وأرسل إليه الرُّسل وخلق له العقل، فالعبد يرضى بالقضاء لا بالمقضيّ، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾(٢)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣)، وكذلك قال بعض العارفين: (ينبغي للعبد أن يكون حيّاً في أفعاله الظاهرة والباطنة في الأمور التي يتعلق بها النهي الإلهي؛ ويكون ميتاً بالتسليم بموارد القضاء في كل ذلك لا للمقضيّ).

واعلم أن من الأدب مع الله تعالى أن لا يطلب العبد منه زيادة من المنح ولا نقصاً من المحن، لأنَّ أهل القرب يعدون هذا سوء أدب؛ لأنهم علموا أن الحقَّ أعلم بمصالحهم منهم؛ ولهم هنا أسرار لا تفشى فافهم. وقد طلب بعض العارفين ذلك فنُودِي: (ما اخترناه لك أولى مما تختاره لنفسك، فاصبر

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٢) سورة الزمر، الآية (٧).

(٣) سورة الأعراف، الآية (٢٨).

تحت جريان أحكامنا)، وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: (سألت الله تعالى أن يرزقني قيام الليل فعوقبت بحرمان الفرائض ثلاثة أيام، ثم نوديت: [كن عبداً لنا تسترح، فإن أنمناك نم وإن أقمناك قم]، وقال: فصرت عبداً فاسترحت [١٠٣/أ] وتساوى عندي نومي ويقظتي؛ لعلمي بأنَّ كلَّ شيء هو السَّابق عنده لي والخيرة فيه)، وقد سألت الله سبحانه وتعالى مرَّة أن لا يُقدِّر عليَّ معصية؛ فترادفتْ عليَّ المعاصي حتى خشيت أن أموت على ذلك، فرجعت إلى الله تعالى عن اختياري فكشف ذلك عني، فلا ينبغي ممن هو بعيد عن مقامهم غارق في حظوظ نفسه من علمه وعمله ومحبَّة ديناره ودرهمه أن يُنكر عليهم، فإنَّ هذا لا يدرك إلا ذوقاً، فمن ذاق فَهِمَ معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٢) وغيرهما من الآيات، ولا يخفى أنَّ طلب الزيادة من الخير وغيره على سبيل إظهار الذلِّ والعجز لا بأس به؛ قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٣)، فاعلم منه أنه لا ينبغي للعبد أن يكتفي بما عنده فيُظهر الغنى، فيخرج عن حده ولا يجد منعماً غير ربه، فهو محتاج إليه شاء أم أبى، وإن لم يسأل اختياراً سأل اضطراراً، فالطلب لا يُنافي العبودية، وتقدَّم في مقام الصبر ماله تعلق بهذا فراجِعْه.

واعلم أن الله تعالى لم يخلق الإنسان عالماً بكل شيء، فهو في كلِّ حال يستفيد من العلم ما به سعادته وكماله أو شقاوته ونقصه؛ ليتصف بالأولين ويجتنب الآخرين، ولذلك قال الله تبارك وتعالى لنبيِّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وأما العلم الذي فطر الله العالم والإنسان عليه فهو العلم بوجود الله والعلم [١٠٣/ب] بفقر المحدث إليه، فهو لا يقبل الزيادة فافهم ذلك.

---

(١) سورة طه، الآية (١١٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٧٤).

(٣) سورة القصص، الآية (٢٤).

واعلم أنَّ ما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السلام لا ينافيه قول الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام لجبريل لما قال له وهو نازل في الهواء من المنجنيق: (ألك حاجة)؟ قال: (أما إليك فلا؛ حسبي من سؤالي علمُهُ بحالي)، لأنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام يعاملون كل موطن بما يفقهون عن الله تعالى من الأحوال اللائقة بهم، فإبراهيم عليه السَّلام فَهِمَ أنَّ المراد في ذلك الموطن عدم إظهار الطلب واكتفى بالعلم السابق؛ فكان ما فهمه عن ربه، وموسى عليه السَّلام عَلِمَ أنَّ مراد الله تعالى منه في ذلك الوقت إظهار الفاقة فقام بما يقتضيه وقته، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[1] وكلٌّ على بينة وهداية صلى الله عليهم وسلم.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الشكر لله تعالى، لأنَّ غير الكامل ربما شهد في ذلك دعوى كونه صار شاكراً لله تعالى على إنعامه مكافئاً له عليها، والعبد أصغر قدراً من أن يكافئ سيده بشيء؛ لأنَّ جميع ما يرى أنه يكافئ به برز من خزائن سيِّده لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾[2] ولا يصحُّ المكافأة إلا بشيءٍ خارجٍ عنها ولا خارج، فليحذر العبد مما يتخلل باطنه عند تجديد نعمة أو دفع نقمة عنه من طلب تحصيله المكافآت وقوله لنفسه: (أحيي هذه الليلة لسيدك الذي أغرقك في النِعَم؛ وما جزاء السيِّد [١٠٤/أ] إلا أن تعبده كما رزقك وعافاك)، لأنَّ هذا ضعف إيمان وعقل، فلهذا كان العبيد الخُلَّص غائبين عن رؤية كونهم شاكرين؛ لملاحظتهم للمنعم، فهم فارغون عن رؤية ما سواه؛ فحيث ما أشار إليهم بفعل شيء أو تركه وجدهم فارغين غير غافلين، ومن كانت هباته لا تتعدى يديه فلا واهب ولا موهوب فافهم ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٤٨).

(٢) سورة الحجر، الآية (٢١).

ومن ذلك رؤية كونه صار صادقاً في أفعاله وأحواله؛ لأنَّ العبيد الخُلَّص يرون نفس وجودهم زوراً؛ فأفعالهم وأحوالهم أولى، فأحسن أعمال العبد الذي يشهد منه: ذنب، لأنه يعتقد أنه الفاعل لأعماله لشهوده العمل من نفسه عياناً ومن الله إيماناً، والإيمان لا يقوّي العيان، ولسنا نقول إنها ذنب في الشرع بل من باب: (حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين)[1]، لأن المقربين يؤاخذون بنسبة الفعل إلى أنفسهم؛ لأنَّ قسطهم من السنة المحمدية ما جاء به التعرف من جانب الحق، وإن نسبوا الفعل لأنفسهم فهو أدب منهم مع الله سبحانه وتعالى؛ حيث نسبه إليهم فيقبلونه على علم منه أنه ليس لهم، لأنَّ مِنْ صفتهم عدم الاعتراض؛ فهم أهل التسليم الذاتي المحض ومن رد إليه تعالى فعله فقد أعطاه حقَّه فافهم.

وأما الأبرار فإنهم لا يؤاخذون بذلك؛ لأنَّ قسطهم من السنة ما جاء به العلم وهذا لا يدرك إلا ذوقاً.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل [١٠٤/ب] المعرفة بالله تعالى - المعرفة الخاصَّة عند القوم - وإلا فكل حادث يعلم أن له موجداً، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[2]، وتقع هذه الدَّعوى كثيراً من الفقراء، حتى سمعت منهم من يقول: (إن الذات المقدسة تعلم)، وهذا جهل، ولذلك ورد: (لا تتفكروا في ذات الله)، وقال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[3] يعني أن تتفكروا فيها فتحكموا عليها بأمر أنها كذا وكذا.

واعلم أن ما بأيدينا من العلم به سبحانه وتعالى إلا صفات تنزيه أو صفات

---

(١) هو من كلام أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته. انظر: «كشف الخفاء» (١١٣٧)، والمقاصد الحسنة (٤٠٤).

(٢) سورة الإسراء، الآية (٤٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٢٨).

أفعال؛ ومن زعم أن عنده علماً بصفةٍ نفسيةٍ ثبوتية فزعمُهُ باطل؛ لأنها كانت تحده ولا حد لذاته، فهذا باب مغلق دون الخلق لا يصحُّ أن يفتح؛ انفرد به الحقُّ سبحانه وتعالى، وقد قال سيِّد العارفين والمرسلين ﷺ: «اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في عِلْم الغيب عندك...» فهذه أسماء لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، فانظر أدبه ﷺ وادخل في سلك الموتى في عجزهم عن إدراك أمر الدنيا على ما هو عليه، إذا علمت ذلك فلا يصل الخلق في معرفتهم إلا إلى أفعال المقاربة. وهي كاد وأخواتها. فلذا زجر العارفون وردعوا من ادَّعى أنه عَلِمَ ذات الحقِّ تعالى لما فُهِمَ من قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1] فهي من أشدِّ الآيات على العارفين، لأنَّ الأمر لا قرار له، ولو لا ما شرع الله تعالى للعقلاء بنصبه الأدلَّة ما ساغ التفكر لأحد؛ ولا طالبه الحقُّ [١٠٥/أ] بمعرفته، لعلمه أنَّ الخلق عاجزون عن معرفته حقَّ المعرفة: (سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك؛ لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، فَعَلِمَ ﷺ أنَّ ثَمَّ أمراً لا يحاط به، ولهذا قال الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه: (العجز عن درك الإدراك إدراك، وحجَّة الله سبحانه تعالى قائمة على العبد في طلب معرفته بطرقها المأذون فيها؛ ولا يكشف العبد العجز الكلي عن الإدراك الكلي إلى يوم القيامة)، وقد سمعت شيخنا يقول: (هذا تقسيم حسن)، فأحببت أن أذكره، وتقدَّم في مقام التفكر ما له تعلق بهذا.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الإيثار، لأنَّ في ذلك دعوى الملك والملك حقيقةً لله تعالى لا للعبد، فاحذر من نسبة الملك إلى العبد حقيقة، لأنَّ ذلك

---

(١) سورة الزمر، الآية (٤٧).

شرك، وتقدَّم تقريرُ ذلك أول الرسالة، إذا علمت ذلك فلا يصحُ من جانب العبد إيثارٌ حقيقةً، لأنَّ ما يؤثر به غيره ليس برزقه بل هو رزق من أخذه، لأنه لو كان للمؤثر ما خرج عنه، فمدْحُ الله سبحانه وتعالى المؤثرين في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١)؛ محضُ فضل بقية ما في أيديهم من النعم المتعدية إلى غيرهم؛ وذمُّهُ تعالى لغير المؤثرين محضُ عدل، فالكريم جعل رزق الخلق على يديه، والبخيل لم يجعل لهم رزقاً على يديه؛ فلو جعل لهم رزقاً على يديه لوصلَ إليهم [١٠٥/ب] ولو بالغصب والسَّرقة، ومدح هذا وذم هذا فضلاً وعدلاً ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾(٢) فافهم ذلك.

ومن ذلك رؤية كونه صار ذا خُلُقٍ حسن؛ لأنَّ شأن العبد الغيبة عن الأخلاق وعن رؤية كونه متخلِّقاً بها شغلاً بربه سبحانه وتعالى. ومن ذلك رؤية كونه من أهل الأنس بالله تعالى، لأن هذه الرؤية تخرجه عن حضرة ربه سبحانه وتعالى.

واعلم أن أقلَّ درجات الأنس بالله تعالى أن يكون العبد - مع إعراض الخلق عنه - أشدَّ أنساً من إقبالهم عليه؛ فليحذر العبد من الاغترار بصفاء الأوقات، فإنَّ في طيِّها آفات لا يعرفها إلا من أشهده الحقُّ إياها، على أني أقول: إنَّ اللذة بالأنس من حظوظ النفس، فالعبد الخالصُ مَنْ تساوى عنده الأنس وعدمه، وكيف يأنس بالحقِّ من لا يدركه ولم يجانسه ولم يألفه ولم يره؟ والأنس لا يكون إلا بالمألوف؛ والألف لا يكون إلا بالمجانس والمشاكل والمقارب، وإذا لم يره فليس يرى إلا نفسه؛ وكيف يأنس العبد بنفسه؟ وهذا لا يفهم إلى ذوقاً فافهم ذلك.

---

(١) سورة الحشر، الآية (٩).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٢٣).

ومن ذلك رؤية القاصر كونه صار من الذاكرين الله تعالى على كلّ حالة تحجبه هذه الرؤية، لأنَّ من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسي في جنبه كل شيء، ولأنَّ جميع الكائنات ذاكرة لا تفتر؛ كما يشاهد ذلك أرباب الكشف، وقد ذقت هذا الحال من صلاة المغرب إلى أن مضى ثلث الليل الأول فكنت أسمع أصوات الكائنات بالتسبيح برفع الصوت؛ حتى [١٠٦/أ] خشيت على عقلي ثم حُجِبَ عني رحمةً من الله لسبب علمته، وسمعت السمك يقول: (سبحان الملك القدوس، ربّ الأرزاق والأقوات والحيوانات والنباتات)، ولم أسمع من تسبيح جميع ما سمعته سوى هذا، وإذا كان الحقُّ سبحانه أقرب إلى اللسان من نطقه إذا نطق؛ فكيف يصحُّ من العبد ذكرٌ خالصٌ خال من العلل؟ وكيف يصحُّ دعوى كونه من الذاكرين وهو لم يتخلق بأخلاق الله تعالى؛ لأنه قال: أنا جليس من ذكرني، فكل ذاكر لا يزيد علماً في ذكره بمذكوره فليس بذاكرٍ وإن ذكر بلسانه، لأنَّ الذاكر هو الذي يعمُّه الذكر كله، فلو صحَّ الذكر صحَّت المجالسة؛ ولو صحَّت المجالسة صحَّت المسامرة؛ ولو صحَّت المسامرة حصلت المواهب، لأنَّ المانع لها عدم تهيؤ المحل لقبولها؛ فلا يجالس إلا ذا محل؛ قال: فذلك هو جليس الحقّ سبحانه وتعالى، فأي خُلُقٍ اكتسبه هذا المدّعي من مجالسة الحقّ تعالى؟ فإنه لو كان صادقاً كانت جميع أفعاله موافقة للكتاب والسنة باطناً وظاهراً، فإذا علمت هذا فاذكر الله سبحانه وتعالى امتثالاً لأمره فقط من غير علّة؛ من قصد أنس وتنزيه ونحوهما، فإنه تعالى له الكمال المطلق، فما ثمّ شيءٌ تنزّهه عنه تعالى الله ربُّ العالمين.

واعلم أنه تعالى قال: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[(١)] وما قيّد حالاً من حال، وقال ﷺ: «الحمد لله على هذا الحال وعلى كل حال» وقال تعالى: «عهدت إلى عبادي أن يذكروني فأنفوا أن يذكروني إلا على طهارة»، فاحذر من ترك

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤١).

الذكر بحضرة الغافلين خوفاً [١٠٦/ب] أن يذكروا الله تعالى مع الغفلة عن التعظيم، لأنَّ في هذا ترك الوفاء بما عهد الله تعالى، وهذا يقع فيه بعض الفقراء الناقصين؛ لأنهم لم يعلموا أنه لا يشترط في الذكر الحضور، وأما الكاملون فهم يشهدون أنه تعالى ما ذكره أحد من غفلة قط، فمن غار على الله أن يذكر إلا بحضور فهو لم يعرف الله تعالى؛ وغيرته له لا عليه، فالكاملون غيرتهم إنما هي على الله أن يذكره غيره، فيشهدون أنَّ الله هو الذاكر نفسه بلسان عبده فذكروه وهم يعلمون أنهم ما ذكروه، ولذلك يقول من غار عليَّ لم يذكرني، لأنه عرف من الذاكر ومن المذكور فصار بمعزل من الذكر في نفس الذكر، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] فمن ذكره به لم يذكره؛ لأنه واسطة، والأسماء تذكر بعضها بعضاً فافهم ذلك.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الغنى بالله تعالى لحجبه بها، وغاية درجة الغنى أن يستغني بالله تعالى عمَّا سواه، وليس ذلك عند العبيد الخُلَّص بمقام محمود؛ فإنَّ في ذلك قدراً لما سوى الحقِّ سبحانه وتعالى، ولأنَّ ذوقهم سرى في كلِّ ما سوى الله تعالى أنه عبد عاجز كما هم عبيد، ورأوا أن ما سوى الله تعالى محل لجريان تعريفات الحقِّ لهم؛ فما افتقروا إلا إلى الله تعالى، فلذلك لم يروا شيئاً يفتقرون إليه في نفسه، فالغنى وإن كان بالله تعالى محل الفتنة العمياء، لأنه يعطي الزهو على عباد الله تعالى ويورث الجهل بالعالم وبنفسه، بل قال شيخنا رضي الله عنه: (لا يصحُّ الغنى بالله تعالى أبداً لأحد، لأنه لو استغنى أحدٌ عن الله تعالى لاستغنى عن الله تعالى، والاستغناء عنه محال، فالاستغناء بالله [١٠٧/أ] محال، لكن الله يعطيه أمراً ما من الأمور الذي يحدث الله فيه عند هذا الطلب يغنيه ويرسل عنده ما يجده، فالافتقار للعبد ذاتي والغنى عرضيّ، فالجاهل يغيب عن الأمر الذاتي له بالأمر

---

(١) سورة الأنفال، الآية (١٧).

العارض؛ والعبد الخالص لا يزال الأمر الذاتي من كلّ شيء ومن نفسه مشهوداً له دنيا وعقبى، فلا يزال عبداً فقيراً لا يستغني في نفسه بربه عن ربه أبداً، فافهم ذلك.

ومن ذلك رؤية كونه صار من الفقراء الذين لا يملكون شيئاً من الأكوان، لأنَّ العبد غائب عن هذه الدعوى؛ صفرُ اليدين من دعوى شيء من الأحوال والمقامات؛ مفتقرٌ إلى سيّده غير ملتفت لسواه؛ وإن التفت لسواه من الأسباب فهو على سبيل العبودية والحضور معه سبحانه وتعالى، وفيها لاطلاعه على حكمته في وضع الأسباب، فكان رجوعه إلى السبب عين الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ولكن يبقى الأمر خطراً أيضاً وهو في خوف الركون إلى الأسباب والاعتماد عليها، بعد أن كان قطع النظر عنها، إذا علمت ذلك فينبغي أن يتفقد نفسه بقطع الأسباب؛ لأنَّ الطبع من عادته أن يصرف صاحبه إلى الركون بمألوفه، فلينتبه السَّالك لذلك، ولهذا يقبض الله تعالى التصريف عن أوليائه في بعض الأحيان لطفاً بهم واعتناءً فافهم ذلك، والله يتولَّى هداك وهو يتولَّى الصَّالحين.

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التوحيد؛ أعني توحيد الألوهية لا توحيد الذات؛ لأنها لا تصحُّ أن تُعلم أصلاً على طريق الشهود [١٠٧/ب] الكشفي والذوقي وغاية العلم بها بدليل فكري، وأين التوحيد فيها مع ما قد ورد من الصفات المعنوية واختلاف الناس فيها وغير ذلك مما ينافي توحيد الذات، أما توحيد الألوهية فلا ينافيه ذلك لأمور تقصر عنها العبارة، وإذا علمت ذلك ورأيت أنك موحد للألوهية فاعلم أن هذه الرؤية مخرجة لك عن التوحيد الذي ترى أنك وحدت به، لأنك تشهد اثنين: نفسك والحق، فلا يصحُّ التوحيد إلا مع الغيبة عن الأكوان كلها، فالتوحيد من جانب العبد لا يخلص من العلل؛ والتوحيد من جانب الحقّ توحيد الله إياه نقمه بنفسه من غير أثرٍ لسواه، لأنَّ

حضرته أزلية لا تقبل السوى ولم تزل، «كان الله ولا شيء معه»[1] الحديث، وهنا أسرار يعلمها أهل الله تعالى لا تُفشى؛ وقد ذقناها ولله الحمد، وحفظني الله تعالى من تضييع الفرض وغيره من التكاليف، إذ الغالب على أهل هذا الحال ترك الفرائض وغيرها لأمور يعرفونها لا يمكنهم معها فعل شيء من ذلك؛ لتوحيد الأمر والمأمور عنده، والعبودية لا بدَّ في إثباتها وفعلها من رؤية الثنويَّة والأمر لا يدرك له قرار، ثم خلَّصني الله تعالى منه لجانب العبودية وامتثال الأوامر والنواهي؛ فلله الحمد في السموات وفي الأرض، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، فلهذا سكت المحققون من العارفين عن التعبير عنه، وأما المتكلمون: فأعلى ما عبروا به وأطبقوا عليه أنه إسقاط الحديث وإثبات القديم [١٠٨/أ] ولا يخفى ما فيه، وبالجملة فالخوض في هذا الباب لا يدرك إلا ذوقاً؛ فلهذا قصرت العبارات والإشارات عن تعريفه، لأنَّ الموحِّد وجميع ما يعبِّر به عن توحيده مخلوق حادث، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾[3].

فاعلم أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى إنما تنزه بتنزيه التوحيد الذي هو صفته إياه؛ لا بتنزيه من نزهه من المخلوقين بالتوحيد، وليس هذا التوحيد هو الذي أمر العبد أن يعلمه أو يقوله، لأنَّ توحيد الأمر مركب والمأمور بذلك مخلوق، ولا يصدر من المخلوق إلا ما يناسبه، فهو مخلوق عن مخلوق، فكيف يليق ذلك بالجناب العزيز؟ وإن كنا قد تعبَّدنا به شرعاً فنقرُّه في موضعه ولقوله كما أمر به على جهة القربة إلى الحقِّ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[4]، وله التكليف بالمحال.

انتهى ما أردنا ذكره من المقامات السَّاقطة عند العبيد الخُلَّص.

---

(١) سورة القصص، الآية (٧٠).

(٢) سورة البروج، الآية (٢٠).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٤).

ومن فهم ما أشرنا إليه في هذه الرسالة، عَلِمَ يقيناً أن جميع ما يكشف للعبد من ملكوت السَّموات والأرض مكون مخلوق مثله، ليس يشعر بعلو مقام ولا برضا الله تعالى عن العبد، وغاية أمر من كشف الله له عن جميع ذلك أنه مخلوق رأى مخلوقاً وأحاط به وعرفه، فهل ثَمَّ شيء غير ذلك؟ ولم يتعبدنا الحقُّ سبحانه وتعالى بطلب كشف شيء من ذلك، وعالم الشهادة كافٍ في الاعتبار والتفكر لمن يستدلّ به على معرفة الحقِّ سبحانه وتعالى، والعبد لو دخل دار السُّلطان مع جملة الناس وعرف جميع ما في خزائنه [١٠٨/ب] من الذخائر وهو غير ممتثل لأمره ولا مجتنب لنهيه؛ لا تفيده معرفته بذلك شيئاً؛ وهو متعرض للعقوبة والغضب، وأين من يطلب شيئاً من ذلك ممن قال في حقه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾[(١)]. على أن المحققين قالوا: (جميع ما تسميه العامة كرامات وخوارق ليس له حقيقة؛ إنما هو إيجاد كوائن يظهرها الله سبحانه في أوقاتٍ مخصوصة لأمرٍ يريده من إقامة الحجَّة على عباده وغير ذلك، وما ثَمَّ في نفس الأمر عوائد تنخرق، لأنه ما ثم تكرار فما ثم ما يعود، وإليه الإشارة بقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[(٢)]، فأهل الحقِّ تعالى يشهدون جميع ما يحدث في الأكوان ليس للعبد فيه أثر؛ ولا يحجبهم عن سيِّدهم ما يمنحهم به من المواهب، ومن هذا المقام قال أبو يزيد رضي الله عنه: (لو شفَّعني الله يوم القيامة في جميع الخلائق لم يكن عندي بعظيم؛ لأنه ما شفَّعني إلا في لقمة طين - يعني خلق آدم من طين - ونحن منه» كما قال تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[(٣)].

فاعلم أن المقام المحمود ما عَظُمَ لمجرد الشفاعة، وإنما عظم لما فيه من

---

(١) سورة النجم، الآية (١٧).

(٢) سورة ق، الآية (١٥).

(٣) سورة النساء، الآية (١).

عواقب الثناء الإلهي الذي يثني به رسول الله ﷺ على ربّه، فما حمد الله إلا من أجل الله لا من أجل الشفاعة؛ ثم جاءت الشفاعة تبعاً في هذا المقام.

وقد أحببت أن أختم هذه الرسالة بكلامٍ جامعٍ لأحوال الخلق ولخلاصة جميع الكتب المنزلة؛ ولخلاصة ما يسلك به المسلكون إلى يوم القيامة، لأنَّ خلاصة جميع ما أمر الأنبياء وورثتهم أن يقولوا لأممهم بعد أن يبينوا لهم الحرام والحلال: افعلوا ما علمتم أنكم مأمورون به، واجتنبوا ما علمتم أنكم نُهيتم عنه، هذا ما عليهم، وأما الامتثال فراجعٌ إلى الله تعالى.

واعلم أنَّ كلَّ العوام المخالطين للعلماء - إلا قليلاً - يعرفون الحرام والحلال لا يجهلون منهما إلا بعض مسائل دقيقة لا تقع إلا نادراً، فإذا تقرر ذلك فأقول وبالله التوفيق: جاءني هاتف في المنام وقال لي: (اسمع هذا الكلام الجامع لكل كلام، فقلت له: نعم، فقال على لسان الحق: (ليس للعبد أن يشغل قلبه في كل نفس بالاختيار لفعل شيء أو تركه في المستقبل؛ وإنما عليه أن يعطي ما أبرزناه على يديه حقَّه، فإن كان طاعةً حَمَدَنا عليها واستغْفَرَنا من تقصيره فيها؛ وإن كان معصيةً حمدنا على تقريرها عليه واستغفرنا من ارتكابه مخالفة أمرنا؛ وإن كان غفلةً وسهواً أو نحوها فعل ما هو اللائق بها، وقد قربنا لك طريق الأدب في كلِّ ما يجريه على يديك انتهى. فافهم ذلك فهَّمنا الله وإياك.

ونسأل الله تعالى أن يحقّقنا بالعبودية له إنه على كلّ شيءٍ قدير وعفوه واسع.

والحمد لله وحده كما أثنى هو على نفسه، فإنَّ الحمد الصَّادر من العبد ملك الله أيضاً فنحمده امتثالاً لأمره فنقول: الحمد لله ربِّ العالمين. آمين [١٠٩/ب].

تمت الرسالة المباركة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، ووافق الفراغ من تعليق هذه النسخة المباركة يوم الإثنين المبارك، غرة ربيع الثاني، الذي هو من شهور سنة ألف ومائتين وواحد، على يد الفقير الذليل علي بن علي الأزبكاوي الشافعي، غفر له وللمسلمين آمين [١١٠].

* * *

الأنوار في
آداب الصحبة

للعارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني

حققه

رشاد الخطيب

دار التقوى

سورية . دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مقدمة المؤلف

الحمد لله ربِّ العالمين، وأُصلي وأُسلمُ على سيدنا محمدٍ النور المبين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

هذه رسالة اقتضتها البطالةُ، تشتمل على ثلاثة فصول وخاتمة، **أسألُ الله أن** ينفعَ بها جاهلَ العصر وعالِمَه.

* * *

الفَصْلُ الأوَّلُ
فِي ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الصُّحْبَةِ فِي اللهِ تَعَالَى

اعلمْ - وفقني اللهُ وإياك إلى ما يحب - : أنَّ الصحبة في الله تعالى من أوثق عرى الإسلام، ومن أكبر أبواب الخير، وقد رغَّب العلماءُ فيها سلفاً وخلفاً[١]، وأما من حذَّر منها وقال: إن العزلة أقربُ للسلامة من الآفات، وأبعدُ من تحمل الحقوق في المخالطات، وأحزم للاشتغال بالطاعات. فإنما ذلك في حقِّ المريد ما دام قاصراً، فإذا انتهى سلوكه وكَمُل حاله، بأن صار يشهد الله مع خلقه كان الأفضلُ في حقه الخلطة، بل الخلطةُ في حقِّ مثل هذا واجبةٌ كما قال بعضهم[٢]، لكن العارف في أواخر عمره يحنُّ إلى الوحدة

---

(١) قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠]، وقال رسول الله ﷺ: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عِنَانَ فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعةً طار عليه يبتغي القتل أو الموت مَظَانَّه، أو رجل من غُنَيْمةٍ في رأس شَعَفَةٍ من هذه الشُّعَفِ، أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبدُ ربَّه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير». أخرجه مسلم (٤٨٨٩).

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ العبد التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ». أخرجه مسلم (٧٤٣٢).

(٢) قال الإمام النووي: باب استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان؛ أو الخوف من فتنة في الدين؛ أو وقوعٍ في حرامٍ وشبهات ونحوها.

باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جُمعهم وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم، لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى.

اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار الذي كان عليه رسول الله ﷺ، وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخيارهم، وهو مذهب أكثر التابعين ومن =

كالبداية، فلا يصير له وقت يسع الناس، كما وقع لرسول الله ﷺ حين أنزلت عليه سورة النصر(١)، فَعُلم أنه لا يقال: العزلةُ أفضلُ مطلقاً [ولا الخلطة أفضل مطلقاً](٢).

ثم لا يخفى أن صحبة الأدنى للأعلى ليست بصحبة في الحقيقة، وإنما هي تعليمٌ وخدمة؛ إذ صاحب الإنسان هو من [٢/أ] يشرب من بحره ويحيط بمقامه.

فإطلاق الصحبة بين المريد والشيخ؛ والصحابي والرسول إطلاقٌ مجازي لا حقيقي.

إذا علمت ذلك فنورد عليك شيئاً من الأخبار الواردة في فضل المتحابين في الله؛ لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل.

فروى الشيخان في «صحيحيهما»: «سبعةٌ يظلهمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمساجد، ورجلانِ تحابّا في اللهِ، اجتمعا عليهِ وتفرَّقا عليهِ، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ

= بعدهم، وبه قال الشافعي وأحمد وأكثر الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة. [رياض الصالحين، ص ١٦٠-١٦١].

(١) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رُئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [سورة النصر]، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٩٧٠).

(٢) غير موجودة في المخطوط.

فقال: إنّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ»[(١)].

وروى مسلمٌ: «والذي نفسي بيدِهِ؛ لنْ تدخلوا الجنَّةَ حتَّى تؤمنوا، ولنْ تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أوَلا أدلُّكُمْ على شيءٍ إذا فعلتُمُوه تحاببْتُم؟ أفشوا السلام بينكُمْ»[(٢)].

وروى أيضاً: «زارَ رجلٌ أخاً لهُ في اللهِ، فأرسلَ اللهُ له مَلَكاً على مدرجتِهِ، قال: أينَ تريدُ؟ قال: أريد أخاً لي في هذهِ القريةِ، قالَ: فهلْ لكَ عندَهُ من نعمةٍ تربُّها؟ قال: لا، غيرَ أنِّي أحببتُهُ في الله، قال أبشرْ؛ فإني رسولُ الله إليكَ: أنَّ اللهَ قد أحبَّكَ كما أحببتَهُ»[(٣)].

وروى ابن عساكر وغيره: «سبعةٌ في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رَجلٌ ذكرَ اللهَ فَفَاضَتْ عيناه، ورجلٌ يحبُّ عبداً [٢/ب] لا يحبُّهُ إلا للهِ، ورجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمساجدِ؛ من شدَّةِ حبِّهِ إيَّاها، ورجلٌ يعطي الصدقةَ بيمينِهِ فيكادُ يخفيها عن شمالِهِ، وإمامٌ مقسطٌ في رعيتِهِ، ورجلٌ عَرَضَتْ عليه امرأةٌ نفسَها فتركَها لجلالِ اللهِ، ورجلٌ كان في سريَّةٍ معَ قومٍ فلقوا العدوَّ فانكشفوا [فحمى آثارهم][(٤)] حتى نَجَوا ونجا أو استشهد»[(٥)].

وروى البيهقي في «الأسماء»: «سبعةٌ يظلُّهُمُ الله تحتَ ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمساجدِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٦٠) وأطرافه، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٤). «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا» قال الإمام النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٦): هكذا هو في جميع الأصول والروايات، «ولا تؤمنوا» بحذف النون من آخره وهي لغة معروفة صحيحة. «ولا تؤمنوا حتى تحابوا»: معناه لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحابّ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٤) غير موجود في المخطوط.

(٥) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٦/ ٢٣٤)، وأخرج نحوه البخاري في «صحيحه» (٦٦٠).

فقال: إني أخافُ الله، ورجلان تحابًا في اللهِ، ورجلٌ غضَّ عينيه عن محارم الله، وعينٌ حرستْ في سبيل الله، وعينٌ بكتْ من خشية الله»[١].

وروى أيضاً في «شعب الإيمان»: «رأسُ العقلِ بعد الإيمان بالله التودُّدُ إلى الناس، وأهلُ التودُّد في الدنيا لهم درجةٌ في الجنة، ومنْ كانتْ له درجةٌ في الجنة فهو في الجنةِ»[٢].

وروى أيضاً: «رأسُ العقلِ بعد الإيمان التحبُّبُ إلى الناس، واصطناعُ الخير إلى كلِّ برٍّ وفاجرٍ»[٣].

وروى الدارقطني: «المؤمنُ يألفُ ويُؤلفُ، ولا خير فيمن لا يألفُ ولا يؤلفُ، وخيرُ الناسِ أنفعهمُ للناسِ»[٤].

وروى أبو داود: «من أحبَّ للهِ وأبغضَ للهِ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكملَ الإيمان»[٥].

[وروي أيضاً: «أفضل الأعمال الحبُّ في الله، والبغض في الله[٦]»][٧].

وروي أيضاً: «أفضلُ الإيمانِ أن تحبَّ للهِ، وتبغضَ للهِ، وتستعملَ لسانَك في ذكرِ [٣/أ] اللهِ، وأن تحبَّ للناسِ ما تحبُّ لنفسِكَ، وتكرَهَ لهم ما تكرهُ لنفسِكَ، وأن تقولَ خيراً أو لتصمُتْ»[٨].

وروى الإمام أحمد: «أن اللهَ يقول يومَ القيامة: أينَ المتحابونَ لجلالي؟ اليومَ أظلُّهُمْ في ظلي»[٩].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٦٢).
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٥٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٦٢).
(٤) أخرجه الدارقطني (٧٩٠).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٨١).
(٦) أخرجه أبو داود (٤٥٩٩).
(٧) غير موجودة في المخطوط.
(٨) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٠٣١).
(٩) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٨٤٣٦).

وروى أيضاً: «المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمنِ الذي لا يخالطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم»(١).

وروى أيضاً: «إنَّ أوثقَ عُرى الإسلامِ أنْ تحبَّ في اللهِ وتبغضَ في الله»(٢).

وروى أيضاً بسند صحيح: «إنَّ المتحابينَ في اللهِ لَترى غرفُهم في الجنَّةِ كالكوكبِ الطالعِ الشرقيِّ أو الغربيِّ، فيقالُ: مَنْ هؤلاءِ؟ فيقالُ: هؤلاءِ المحتابونَ في اللهِ»(٣).

وروى أيضاً: «أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في الله»(٤).

وروى أيضاً: «مَنْ سَرَّهُ أن يجدَ حلاوةَ الإيمانِ فليحبَّ المرءَ لا يحبّهُ إلا للهِ»(٥).

وروى الطبراني: «رأسُ العقلِ بعدَ الإيمانِ باللهِ التحبُّبُ إلى الناسِ»(٦).

وروى أيضاً: «إنَّ المتحابينَ في اللهِ في ظلِّ العرشِ»(٧).

وروى أيضاً: «ثلاثةٌ في ظلِّ العرشِ يومَ القيامةِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رجلٌ حيثُ توجَّهَ علم أنَّ الله معهُ، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ إلى نفسِها فتركَها من خشيةِ اللهِ، ورجلٌ أحبَّ لجلالِ اللهِ»(٨).

وروى أيضاً: «المتحابونَ في اللهِ على كراسيَّ من ياقوتٍ حولَ العرشِ»(٩).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٩٩٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١١٦٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢١٩٠١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٩٥٤).

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٠٦٧).

(٧) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦١٦).

(٨) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٤٧٠).

(٩) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣٠٢).

وروى [٣/ب] أيضاً: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتباذلين فيّ، والمتزاورين فيّ»[١].

وروى أيضاً: «لو أن عبدين تحابًا في اللهِ، واحدٌ في المشرقِ، وآخرُ في المغربِ لجمعَ الله بينهما يومَ القيامةِ، يقولُ: هذا الذي كنتَ تحبُّهُ فيّ»[٢].

وروى أيضاً: «ما تحابَّ رجلانِ في اللهِ إلا وضعَ اللهُ لهما كرسيًاً فأُجْلِسَا عليه حتى يفرغَ اللهُ من الحسابِ»[٣].

وروى أيضاً: «مَنْ أحبَّ قوماً حُشِرَ في زمرتِهِم»[٤].

وروى أيضاً: «المتحابونَ في الله في ظِلِّ اللهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّهُ، على منابرَ من نورٍ، يفزعُ الناسُ ولا يفزعونَ»[٥].

وروى أيضاً: «إنَّ للهِ عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ، يغبطهمُ النبيونَ والشهداءُ على منازِلِهم وقربِهِم من اللهِ، قيلَ: مَنْ هُم يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ناسٌ من بلدانٍ شتَّى لم تصلْ بينهم أرحامٌ متقاربةٌ، تحابُّوا في اللهِ وتصافحُوا، يضعُ اللهُ لهم يومَ القيامةِ منابرَ من نورٍ قُدَّامَ الرحمنِ فيجلسهم عليها، يفزعُ الناسُ ولا يفزعونَ»[٦].

وروى أيضاً: «ليبعثنَّ اللهُ أقواماً يومَ القيامةِ، في وجوهِهِم النورُ على منابرِ اللؤلؤِ، يغبُطهم الناسُ، ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ، قيلَ: مَنْ هم؟ قال: المتحابونَ في اللهِ، من قبائلَ شتَّى وبلادٍ شتَّى، يجتمعونَ على ذكرِ اللهِ يذكرونَهُ»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، والطبراني (٧٤٨٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٢٢).
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣٤٧).
(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٧٩).
(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧٣).
(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٥٢٤).
(٧) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٩٠٤).

وروى أيضاً: «إنَّ في الجنَّةِ غُرفاً [٤/أ] يُرى ظواهرُها من بواطنها، وبواطنُها من ظواهِرِها، أعدَّها اللهُ للمتحابين فيه، والمتزاورين فيه، والمتباذلين فيه»(١).

وروى البزار وأبو الشيخ عن أبي هريرة: «إن في الجنَّة لعُمُداً من ياقوتٍ عليها غرفٌ من زبرجدٍ لها أبوابٌ مفتَّحةٌ، تضيءُ كما يضيءُ الكوكبُ الدريُّ، قلنا: يا رسولَ اللهِ من يسكنُها؟ قال: المتحابون في الله، والمتباذلون في الله، والمتلاقونَ في الله»(٢).

وروى الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح -: «قال الله تعالى: المتحابونَ في جلالي لهم منابرُ من نورٍ يغبطهمُ النبيونَ والشهداءُ»(٣).

وروى أيضاً: «المرءُ مع من أحبَّ، ولهُ ما اكتسبَ»(٤).

وروى أيضاً: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ، وأن يكرَهَ أن يعودَ في الكفرِ بعدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ منهُ كما يكرَهُ أن يلقى في النارِ»(٥).

وروى أيضاً: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً»(٦).

وروى ابن النَّجار: «استكثروا من الإخوانِ؛ فإنَّ لكلِ مؤمنٍ شفاعةً يومَ القيامةِ»(٧).

وروى الحكيم: «نظرُ الرجلِ لأخيهِ على شوقٍ خيرٌ من اعتكافِ سنةٍ في مسجدي هذا»(٨).

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٠٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٠٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٦٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢).
(٦) أخرجه الترمذي (١٩٢٨).
(٧) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (١٧٨٠).
(٨) أخرجه الترمذي في «نوادر الأصول» (٤٢٠).

وروى ابنُ أبي الدنيا: «[قال الله تعالى][1]: حقت محبتي للمتحابين فيَّ، اليوم أظلُّهم في ظِلِّ العرشِ يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلا ظلي»[2].

وروى أيضاً: «مَا أحدث رجلٌ [٤/ب] إخاءً في الله إلا أحدث اللهُ لهُ درجة في الجنةِ»[3].

وروى أيضاً: «أصبْ بطعامِكَ مَنْ تحبُّ في اللهِ»[4].

وروى الحاكم وغيره: قال الله تعالى: «المتحابون فيّ على منابر من نورٍ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء»[5].

وروى البيهقي: «من أحبَّ أن يجدَ طعمَ الإيمانِ فليحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا لله»[6].

وروى أيضاً: أن الله تعالى يقول: «إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرتُ إلى عُمَّار بيوتي والمتحابين فيَّ، والمستغفرين بالأسحار صرفتُ عذابي عنهم»[7].

والأخبار في فضل المتحابين في الله كثيرة، ونقتصر منها على هذا القدر.

وأما الآثار عن السّلف الصّالح، والعلماء العاملين فكثيرة أيضاً، ونذكر لك - يا أخي - شيئاً منها:

فعن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - قال: كل من اتَّبع [طريقة][8]

---

(١) غير موجودة في المخطوط.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الإخوان» (ص ١٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (ص ٣٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (ص ١٥٦).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠).

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٨٨).

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٥١).

(٨) غير موجودة في المخطوط.

طاعة الحقّ تعالى لزمتك مودَّتُه، ومن أحبَّ رجلاً صالحاً فكأنما أحبَّ الله عزَّ وجلَّ.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لولا صحبة الأخيارِ، ومناجاةُ الحقِّ تعالى بالأسحارِ ما أحببتُ البقاء في هذه الدار.

وقال أيضاً: لقاء الإخوان ليس يعدلُه عندي شيء.

وقال مطرِّف بن الشخِّير: أوثق أعمالي عندي، حُبّي للرجل الصَّالح.

وقال أبو نصر بشر الحافي رحمه الله: عليك بصحبة الأخيار، إن أردت الراحةَ في تلك الدار، وأن تحسنَ ظنَّك بالأشرار، وتنفكَّ من رقِّ الأغيار [٥/أ].

وقال سيدي أحمد ابن الرفاعي رحمه الله: مصاحبة أهل التقوى نعمةٌ عظيمةٌ من نعم الله على العبد.

وقال أبو السعود بن أبي العشائر رحمه الله: من أراد أن يعطى الدرجة القصوى يوم القيامة فليصاحبْ في الله، ومن أحبَّ أن تصرفَ عنه مرارةُ الموقف فليطعم أخاً في الله شيئاً من الحلوى.

وفي الحديث: «من وافق من أخيه شهوة غفر له»[(١)].

وقال شيخ الوفائية رحمه الله: لا تبع ذرة من الحب لله أو في الله بقناطير من الأعمال، قال رسول الله ﷺ: «المرءُ معَ مَنْ أحبَّ»[(٢)].

وقال سيدي علي وفا: إذا أحببت أخاً في الله فاحفظْه، تزددْ به ممن أحببته من أجله.

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلي رحمه الله: عليك بتكثير سوادِ القومِ؛ فإن من كثَّرَ سوادَ قوم فهو منهم.

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني عن أبي الدرداء والبزار، وفيه زياد بن نمير النميري، وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه غيره، وفيه من لم أعرفه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦١٦٩)..

وقال أيضاً: إذا رأيت نفسك معرضة عن موادَدَة أهلِ الله فاعلم أنك مطرودٌ عن باب الله.

وقال أيضاً: عليك بصحبةِ الفقراء؛ فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة مع ما يحملون عن أصحابهم في دار الدنيا من المصائب لكان في ذلك كفاية، وكم استضيءَ لصحبتهم فقير، وجُبِرَ كسير، وارتفع وضيعٌ، وسُتِرَ شنيعٌ، وهلك ظالم، وارتفعت مظالم، وفيهم ورد الحديث: «بهِمْ ترزقونَ وتمطرونَ وترحمونَ»(١) [٥/ب].

وقال الشيخ سليمان الخضيري رحمه الله: من أراد أن يعطى الخيرَ الكثيرَ فليصاحب أهل المراقبة.

وقال سيدي علي الخواص رحمه الله: من أراد أن يكمل إيمانه وأن يحسن ظنه فليصاحب الأخيار.

وقال سيدي أفضل الدين رحمه الله: عليك بالودِّ في الله؛ فقد ورد أن الله يقول لعبده يوم القيامة: «هل واليت لي ولياً، أو عاديت لي عدواً؟»(٢).

وقال أيضاً: من أراد أن يكون من أكابر أهل المقابر فليصاحب في الله.

قلت: يؤيده ما حكاه اليافعي في كتابه «روض الرياحين» عن بعض الأولياء أنه قال: سألت الله تعالى أن يريني مقاماتِ أهل المقابر، فرأيت في ليلة من الليالي كأن القيامة قد قامت، والقبور قد انشقت، وإذا منهم النائمُ على السندس، ومنهم النائمُ على الحرير والديباج، ومنهم النائم على الريحانِ، ومنهم النائم على السرر، ومنهم الضاحك، ومنهم الباكي، قال:

---

(١) أخرج الإمام أحمد في «مسنده»: ذُكرَ أهل الشام عند علي رضي الله عنه وهو بالعراق، فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «البدلاء بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨٩٣).

فقلت: يا رب! لو شئت ساويت بينهم في الكرامة، فنادى منادٍ من أهل القبور: يا فلان! هذه منازل الأعمال:

أما أصحاب السندس: فهم أهل الخلق الحسن، وأما أصحاب الحرير والديباج: فهم الشهداء، وأما أصحاب الريحان: فهم الصائمون، وأما أصحاب الضحك: فهم التائبون، وأما أصحاب البكاء: فهم المذنبون، وأما أصحاب المراتب [٦/أ]: فهم المتحابون في الله تعالى.

قال اليافعي: هكذا ذكر في الأصل الذي نقلت منه، أعني فسّر أصحاب المراتب ولو لم يتقدم للمراتب ذكر، وتقدم ذكرُ السرر ولم يفسر أصحابها بعد منهم، فلعله أراد بالمراتب السررَ المتقدمَ ذكرها؛ لأن حقيقة المراتب هي المناصبُ الشريفة، والمقاماتُ العالية المنيفة، ولا شك أن أصحاب السرر أشرف مرتبة، وأعلى منزلة ممن على الأرض، وإن كان أهل الأرض على الحرير وغيره، مع أن السرر المذكورة المعدة للإكرام لا تخلو من الفرش العزيزة غالباً، وإن لم تذكر معها كما قال الله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[1] فلم يذكر سبحانه الفرش في هذه الآية، ومعلوم أن السرر المذكورة عليها الفرش المذكورة في آيات أخر، وإذا قال قائل: جلس الملك على سريره وجلسنا عنده علم من ذلك شيئان:

أحدهما: أن السرير مفروش.

الثاني: أن الملك إنما جلس على السرير ليرتفع على من عنده برفعة المجلس، مع رفعة المملكة ولا يرضى أن يجلس معه على السرير غيره.

قال: فعلى هذا يكون المتحابون في الله أفضل من سائر المذكورين في هذه الحكاية، وقد ورد حديث الترمذي الصحيح: «قال الله تعالى: المتحابون

---

(١) سورة الحجر، الآية (٤٧).

في جلالي لهم منابرُ من نورٍ يغبطهم النبيون والشهداء»(١)، فقد ظهر من هذا الحديث ما يؤيد المنام المذكور، أنهم [٦/ب] أصحاب المراتب، وناهيك بها من مراتب، وأكرمْ بها من مناصب، احتوت على شرفٍ جلَّ قدره وعظم فخره، مع ما لهم من السلسبيل. كذا في الأصل السلسبيل. الأهنا، والجمال الأسنى، والنعيم المقيم في جوار المولى الكريم، وأما ذكر السرر في المنام المذكور، وذكر منابر النور في الحديث المشهور فليس بينهما تناقض، ولا قادح مذكور؛ فالمنابر تكون في القيامة، والسرر تكون في القبور، كما روي في المنام المذكور. انتهى كلام اليافعي رحمه الله تعالى.

والآثار في فضل المتحابين في الله كثيرة، وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠).

الفصل الثاني
في ذكر شيء من حقوق الصحبة

اعلم - وفقني الله وإياك إلى ما يحبُّ - أن حقوق الصحبة كثيرة، ولكن نذكر لك جملة من الحقوق التي لا بُدَّ منها في طريق العشرة والمخالطة، واعلم أيضاً أن المشايخ قد حثُّوا على الاعتناء بحقوق الإخوان، وقالوا: من ضيَّعَ حقوق إخوانه ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه، وإذا ابتلى الله عبداً بذلك مقتَهُ، وإذا مقت الله عبداً طرحه في النار.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق:

من حقّ الأخ على الأخ: أن يتعامى عن عيوبه؛ فقد قال المشايخ: من نظر إلى عيوب الناس قلَّ نفعه وخرب قلبه. وقالوا: إذا رأيتم [٧/أ] الرجل موكلاً بعيوب الناس، خبيراً بها فاعلموا أنه قد مُكِر به.

وقالوا: من علامات الاستدراج للعبد، نظره في عيوب الناس، وعماه عن عيوب نفسه.

وقالوا: ما رأينا شيئاً أحبط للأعمال، ولا أفسد للقلوب، ولا أسرع في هلاك العبد، ولا أقرب من المقت، ولا ألزم لمحجة الرياء والعجب والرياسة من قلة معرفة العبد عيوبَ نفسه، ونظره في عيوب الناس.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يحمل ما يراه منه على وجهٍ من التأويل جميل ما أمكن، فإن لم يجد تأويلاً رجع على نفسه باللوم.

وفي وصية سيدي إبراهيم الدسوقي: لا تنكروا على أخيكم حاله، ولا لباسه، ولا طعامه، ولا شرابه؛ فإن الإنكار يورث الوحشةَ والانقطاعَ عن الله تعالى، ولا إنكار على أحد إلا إن ارتكب محظوراً صرحت به الشريعة

المطهرة، فإن الناس خاص، وخاص الخاص، ومبتدئ، ومُنْتَهٍ، ومتشبه، ومتحقق، والقوي لا يقدر [على المشي][١] مع الضعيف، وعكسه، والله تعالى يرحم البعض بالبعض.

ومن كلام الإمام سعيد بن المسيَّب: ما من شريف، ولا ذي فضل إلا وفيه نقص، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه، وُهِب نقصه لفضله.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يرجو له من الخيرات، والمسامحة وقبول التوبة، ولو فعل من المعاصي الإسلامية[٢] ما فعل، كما يرجو ذلك لنفسه.

ومن حقِّ [٧/ ب] الأخ على الأخ: ألاَّ ينظر إلى زلَّةٍ سبقت، ولا يكشف له عورة سُترت، وفي الحديث: «**مَنْ رأى عورةً فسترها كانَ كمَنْ أحيا موءودةً من قبرِها**»[٣].

وقال المشايخ: كل من لم يستر على إخوانه ما يراه منهم من الهفوات فقد فتح على نفسه باب كشف عورته، بقدر ما أظهر من هفواتهم.

وقالوا: إذا رأيتم أحداً من إخوانكم على معصية لم يتجاهر بها فاستروه، فإن تجاهر بها فوبِّخوه بينكم، وإن لم ينزجر فوبخوه بين الناس مصلحةً له لا تشفياً فيه؛ فلعله يرعوي وينزجر، وما دام يعصي في قعر داره ويغلق بابه عليه فهو لم يتجاهر، إلا إن كان هناك أطفالٌ يحكون ما يرون؛ فإنهم كالرجال.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يعيِّره بذنبٍ ولا غيرِه؛ فإن المعايرة تقطع الوُدَّ، أو تكدر صفاءه.

ومن كلام الحسن البصري: إذا بلغكم عن أحد زلة، ولم تثبت عند حاكم فلا تعيروه بها، وكذِّبوا من أشاعها عنه، لا سيما إن كان هو بينكم، ذلك لأن

(١) في المطبوع: على المشي.

(٢) المعاصي الإسلامية: المقصود بها المعصية التي لا يكفر بها.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٢٦٥)، وأبو داود (٤٨٩٢).

الأصل براءة الساحة، حتى تقام البينة العادلة عند الحاكم، ثم بعد ثبوت ذلك عنده، فإياكم أن تعيروه أيضاً، فربما عافاه الله وابتلاكم.

وفي الحديث: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعملَ ذلك الذنب»(١).

ومن كلام سيدي علي وفا: لا تَعِبْ أخاك بما أصابه من [٨/أ] مصائب دنياك؛ فإنه في ذلك إما مظلوم سينصره الله، أو مذنب عوقب فطهَّره الله، ومن الرعونة أن تفتخر بما لا تأمن سلبه، أو تعيِّر أحداً بما لا يستحيل في حقك، وأنت تعلم أن ما جاز على مثله جاز عليك.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ ينظر له بعين الاحتقار؛ فقد قال المشايخ: من نظر إلى أخيه بعين احتقار عوقب بالذل [والخزي](٢).

وفي الحديث: «من نظر إلى أخيه نظرة وُدٍّ غفر الله له»(٣).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: إذا اطلع على عيب فيه أن يتهم نفسه في ذلك، ويقول: إنما ذلك العيب فيَّ؛ لأن المسلم مرآة المسلم، ولا يرى الإنسانُ في المرآة إلا صورة نفسه.

وقد صحب رجل أبا إسحاق إبراهيمَ بن أدهم، فلما أراد أن يفارقه قال له: نبهني على ما فيَّ من العيب، فقال له: يا أخي! إني لم أر لك عيباً؛ لأني لحظتك بعين الوداد، فاستحسنت منك ما رأيت، فسل غيري عن عيبك. وفي هذا المعنى أنشدوا:

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... كما أنَّ عينَ السخطِ تبدي المساويا

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يرى نفسه دونه على الدوام، وذلك على سبيل [اليقين، لا على سبيل](٤) الظن والتخمين؛ فقد قالوا: من لم ير نفسه دون أخيه، لم ينتفع بصحبته.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥).
(٢) غير موجودة في المخطوط.
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٨٤٥).
(٤) لم ترد في المخطوط.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: لمّا علم أهل الله تعالى أن كل نبات لا ينبت ولا يثمر، إلا بجعله [٨/ب] تحت الأرض تَعْلُوه الأرجل جعلوا نفوسهم أرضاً للكل.

ومن كلام سيدي علي وفا: إنما جعل لكم الأرض بساطاً؛ ليعلمَكم التواضع، فتواضعوا تنبسطوا.

ومن حقّ الأخ على أخيه: أن يؤثره على نفسه في كل شيء؛ فقد قالوا: لا يسود أحد على أقرانه إلا إن آثرهم على نفسه، واحتمل أذاهم، ولم يشاركهم في شيء مما استشرفت إليه نفوسهم.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يخدمه إذا مرض؛ فقد ذكروا أن الفتوة في خدمة الإخوان.

ومن كلام الأستاذ الجنيد رحمه الله: ينبغي للإنسان أن يخدم إخوانه، ثم يعتذر إليهم بأنه ما قام بواجب حقّهم، ويقر لهم بالخيانة على نفسه ولو علم أنه بريء الساحة، ما لم يترتب على ذلك حدٌّ أو تعزير، وإلا دخل فيمن ظلم نفسه، وذلك حرام.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: من تعزز على خدمة إخوانه أورثه الله ذلاً لا انفكاك له منه أبداً، ومن خدم إخوانه أُعطي من خالص أعمالهم.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يحترمه ويوقره، لا سيما إذا استحق ذلك كأنْ كان من العلماء، أو من حملة القرآن الكريم، أو من عترة رسول الله ﷺ.

وفي وصية الإمام النووي: لا تستصغر أحداً؛ فإن العاقبة منطوية، والعبد لا يدري بِمَ يختم له، فإذا رأيت عاصياً فلا تقدّم [٩/أ] نفسك عليه، فربما كان في علم الله أعلى منك مقاماً، وأنت من الفاسقين، ويصير يشفع فيك يوم القيامة، وإذا رأيت صغيراً فاحكم بأنه خير منك، باعتبار أنه أحقر منك ذنوباً،

وإذا رأيت من هو أكبر منك سناً فاحكم بأنه خير منك، باعتبار أنه أقدم منك هجرة في الإسلام، وإذا رأيت كافراً فلا تقطع له بالنار، لاحتمال أنه يسلم ويموت مسلماً.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يثني عليه في غيبته وفي حضوره بطريق الشرع؛ فإن ذلك مما يزيد في صفاء المودة.

وقد روى الطبراني وغيره: «**إذا مُدِحَ المؤمنُ** . يعني الكامل . **في وجهه ربا الإيمانُ في قلبِهِ**»[1] أي: لأن المؤمن الكامل إذا مُدِحَ شكر الله على ستر نقائصه، وإظهار محاسنه فيزيد إيمانه بذلك، ثم لا يخفى أن ذلك إنما يكون قبل صفاء المودة وصحتها، أما إذا صفت المودة وصحّت فإن الثناء حينئذٍ ليس بجيد، وأنشدوا:

إذا صفتِ المودّةُ بينَ قومٍ وصحَّ ولاؤُهُمْ سَمُجَ الثَّناءُ

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يكرمه إذا ورد عليه، بأن يتلقاه بالترحيب، وطلاقة الوجه، ويأخذه بالعناق إن كان رجلاً، ويفرش له شيئاً يقيه من التراب.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يوسّع له في المجلس [٩/ب] إذا رآه؛ فإن ذلك مما يزيد في تقوية المودة، وفي الحديث: «**إن للمسلمِ حقاً إذا رآه أخوه أن يتزحزحَ لهُ**»[2].

ومن حقّ الأخ على الأخ: ألاّ يدعوه باسمه فقط.

ومن وصية بعضهم: إذا ناديت أخاك فعظّمْه تثبت مودته، ومن الجفاء للأخ نداؤه الخالي عن الكنية واللقب، ولفظ السيادة، وكذلك أولاده وأحفاده، غيبةً وحضوراً.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٦٥٣٥).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٣٣).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يعترف له بالفضل، وأن يظهر له عدم مكافأته، لا سيما إن كان قد بادأه بهدية؛ لأنه لا يقدر على مكافأة بداءته، كما قال الشيخ محي الدين ابن العربي.

وفي الحديث: «من أودع معروفاً فلينشره، ومن نشره فقد شكر، ومن كتمه فقد كفر، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس»(١).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يزوره كل قليل من الأيام؛ ففي الحديث: «امش ميلاً عدْ مريضاً، امش ميلين أصلح بين اثنين، امش ثلاثة أميال زر أخاً في الله تعالى»(٢).

وفيه أيضاً: «الزائر أخاه في بيته، الآكل من طعامه أرفع درجة من المطعِم»(٣).

وفيه أيضاً: «إذا زار أحدكم أخاه فألقى له شيئاً يقيه من التراب وقاه الله عذاب النار»(٤).

وفيه أيضاً: «زر في الله؛ فإنه من زار في الله، شيَّعه سبعون ألف ملك»(٥).

وحكى اليافعي عن بعض الأولياء أنه قال: رأيت [١٠/أ] القطب بمكة، على عجلة من ذهب، والملائكة يجرونها في الهواء، بسلاسل من ذهب، فقلت: إلى أين تمضي؟ فقال: إلى أخ من إخواني اشتقت إليه، فقلت له: لو سألت الله أن يسوقه إليك، فقال: وأين ثواب الزيارة يا أخي؟! انتهى.

ومن كلام سيدي إبراهيم المتبولي: اسع إلى إخوانك، وإياك أن تنقطع

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩١١٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣١٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (ص٢٣).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٤٥٦).

(٥) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: فيه عمرو بن الحضمي وهو متروك.

عنهم بحيث يستوحشون فيأتون إلى زيارتك؛ فإن جميع ما مع الفقير من المدد في هذا الزمان لا يجيء حق طريقٍ واحدٍ يُمْشَى إليه.

وقد كان الإمام الشافعي يزور تلميذه الإمام أحمد بن حنبل كثيراً، ويزوره الآخر كذلك، فقيل للشافعي في ذلك، فأنشد رضي الله تعالى عنه:

قالوا يزورُكَ أحمدٌ فتزورُهُ ... قلتُ: الفضائلُ لا تفارقُ منزلَهْ

إن زارني فبفضلِهِ أو زرتُهُ ... فلفضلِهِ فالفضلُ في الحالينِ لَهْ

فأجابه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه:

إن زرتنا فبفضلِ منكَ تمنحنا ... أو نحنُ زرنا فللفضلِ الذي فيكَا

فلا عدمنا كلا الحالينِ منكَ ولا ... نالَ الذي يتمنى فيكَ شانيكَا

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: الزيارة للإخوان تزيد في الدين، وتركها ينقصه؛ لأنها كتلقيح النخل، وقد قال القوم: إذا قلَّ رأس مالك فزر إخوانك.

قلت: زيارة الإخوان، لا تزيد في الدين إلا مع لزوم أدب الزيارة، والله أعلم.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يصافحه كلَّما لقيه بنية التبرك وامتثال الأمر، وقد روى الطبراني: «**إذا تصافح المسلمان لم تُفَرَّق أكفُّهما حتى يغفر لهما**»[1].

وروى أبو الشيخ: «**إذا التقى المسلمان، وسلَّم أحدهما على صاحبه كان أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه، فإذا تصافحا أنزل الله عليهما مئة رحمة**»[2].

ومن حقِّ الأخ على الأخ: إذا لاقاه وصافحه أن يصلي ويسلِّم على النبي ﷺ ويذكِّره بذلك، وقد روى أبو يعلى: «**ما من عبدين متحابين، يستقبل**

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٨٤٠).

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: فيه من لم أعرفه.

أحدهما صاحبه، ويصليان على النبي ﷺ إلا لم يتفرقا حتى نغفر لهما ذنوبهما، ما تقدم منها وما تأخر»(١).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يهاديه كل قليل من الأيام، لا سيما إذا بلغه أن عنده وقفة وفي الحديث: «تهادوا تحابُّوا، وتصافحوا يذهب الغلّ عنكم»(٢).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يرشده إلى ترك البغي على من بغى عليه، وأن ينتصر بالله تعالى، إذْ إرشاد الأخ المظلوم إلى الانتصار بالله تعالى والتسليم إليه سبحانه من أكبر نصرة الأخ.

وفي زبور السيد داود ﷺ: «يا داودُ! لا تبغي على مَنْ بغى عليك، فمَنْ بغى على من بغى عليه تخلفت عنه نصرتي».

ومن حقِّ الأخ على الأخ [١١/أ]: مساعدته له في التزويج، وقد ذكروا أن الإعانة في ذلك أفضل من إعانة الغزاة والمكاتبين؛ إذ هو أفضل نوافل الخيرات، والأجر يعظم بعظم السبب، فلولا النكاح ما وُجِد مجاهد ولا عابد لله تعالى.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يغفل عن عيادته إذا مرض، ولا عن خدمته، لا سيما في الليل، وفي الحديث: «ما من رجل يعود مريضاً ممسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى يصبح، ومن أتاه مصبحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرن له حتى يمسي»(٣).

وينبغي للعائد ألاّ يأكل عند المريض؛ ففي الحديث: «إذا عاد أحدكم مريضاً فلا يأكل عنده شيئاً»(٤).

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٤٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤٠٥)، والترمذي (٢١٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٩٠)، والترمذي (٩٦٩).

(٤) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٣٨٩).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يرشده إلى الوصية إذا حضرته الوفاة، ولا يتبع الحياء الطبيعي في ذلك، والفائدة في ذلك معلومة.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يسهر عنده إلى الصباح، إذا كان في حالة تفضي إلى الموت، فربما كان الأجل في ذلك الوقت، فيفارقه على وفائه بحقه.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يصدقه إذا انتسب إلى أحد من الأكابر من أولياء، أو علماء، أو أمراء.

ومن وصية الشيخ محي الدين ابن العربي: إذا انتسب أخوك إلى أحد من الأكابر فاحذر أن تطعن في نسبه ولو في نفسك، فتدخل [١١/ب] بين ذلك الشخص وبين الله تعالى، وبين صاحب الفراش، فتقع في إثم كبير، بل ورد: أن الطعن في الأنساب كفر.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يكفره بذنب ولو لان الناس به؛ إذ لا تخفى قلة ورع الناس اليوم في الكلام، وعسر معرفة جميع الألفاظ التي يكفر بها الإنسان، والتكفير - كما قال شيخ الإسلام السبكي -: أمر هائل، أقل ما فيه أنه أخبر عن إنسان أنه خالد في النار، لا تجري عليه أحكام الإسلام، لا في حياته ولا بعد مماته.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يبغض ذاته إذا وقع فيما لا ينبغي.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: عداوتنا لأفعال مَنْ أمرنا الحق تعالى بعداوته عداوة شرعية، وعداوتنا لذاته عداوة طبيعية، والسعادة في الشرعية لا في الطبيعية، والغالب في الناس بغضهم لذات مَنْ سمعوا عنه أنه وقع في محرم، وأما إن سمعوا عنه أنه تكلم فيهم بشيء يكرهونه فإنهم يكرهون أولاده، فضلاً عن ذاته، ويحتقرونه زيادةً عن ذلك، وربما يزعم بعضهم أنه مصيب في احتقاره له، وغاب عنه أن من الجهل المحض احتقار عبدٍ اعتنى به الحق تعالى، وأخرجه من العدم إلى الوجود.

فاحذر - يا أخي - من ذلك، فإن الحق تعالى ما أمرك أن تحتقر أحداً من خلقه، وإنما أمرك أن تنكر على أفعاله المخالفة لشرعه [١٢/أ] لا غير، فتأمر العاصي وتنهاه، وأنت غير محتقر له.

وتأمل قوله ﷺ في شجرة الثوم: «**إنها شجرة أكره ريحها**»[(١)] فما كره ذاتها، وإنما كره ريحها الذي هو بعض صفاتها، فعلم أن عداوتنا للكفار عداوة صفات، بدليل أنهم إذا أسلموا وحسن حالهم حرم علينا عداوتهم.

ومن حقّ الأخ على الأخ: إذا حصل بينه وبينه وقفة أن يزيد في بثّ محاسنه أكثر مما كان قبل الوقفة؛ مراعاة للوُدّ.

وقد كان السَّلف الصالح يمدحون عدوهم كلَّما ذكر اسمه بحضرتهم، بحيث يظن الظانّ أنه من أعظم المحبين لهم، فاقتدِ - يا أخي - بهم، ولا تتوقف في ذكر أخيك بالمعروف أيام غيظك عليه، واحذر من الوقوع في عرضه، فربما وقع الصلح، فيصير ذلك يكدر صفاء المودة، وتذكَّرْ ما أكلت عنده من الخبز، وما سبق من المعروف، وقلَّ من يفعل ذلك.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يقدِّم حوائجه الضرورية على عباداته المسنونة، ومعلوم أن الخير الذي يتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله.

ومن حقّ الأخ على الأخ: إذا وقع في حقه بشيء وبلغه أن يبادر إلى الاستغفار وإلى كشف الرأس وإطراقه الأرض [١٢/ب]، والوقوف عند النعال، وإظهار الندم على ما وقع منه في حقّ أخيه، ويديم ذلك إلى أن يرحمه أخوه، ثم إن لم يرحمه رجع على نفسه باللوم، واعترف بأنه ظالم، وقلَّ من يفعل ذلك.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يقبل اعتذاره ولو كان مبطلاً؛ فقد روى الترمذي وغيره: «**من أتاه أخوه متنصلاً من ذنب فليقبل اعتذاره، محقاً**

---

(١) أخرجه مسلم (٥٦٥).

كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرِد على الحوض»، وفي معنى ذلك أنشدوا:

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيكَ معتذراً إن برَّ عندكَ فيما قالَ أو فجرا
فقدْ أطاعكَ من يرضيكَ ظاهرُهُ وقدْ أجلَّكَ مَنْ يعصيكَ مستترا

وأنشدوا:

قيلَ لي: قد أسا إليك فلانٌ ومقامُ الفتى على الذلِّ عارُ
قلتُ: قدْ أتى وأحدثَ عُذراً دِيةُ الذنبِ عندنا الاعتذارْ

وأنشدوا:

إذا اعتذرَ الصديقُ إليكَ يوماً فجاوزْ عن مساويهِ الكثيرة [١٣/أ]
فإنَّ الشافعيَ روى حديثاً بإسنادٍ صحيحٍ عن المغيرةْ
عنِ المختارِ أنَّ اللهَ يمحو بعذرٍ واحدٍ ألفي كبيرةْ

وروى ابن ماجه: «مَنِ اعتذرَ إليهِ أخوه بمعذرةٍ فلم يقبلْها كانَ عليه من الخطيئةِ مثلَ صاحبِ مَكْسٍ»[١].

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: إذا جاءكم أخوكم معتذراً فاقبلوه، لا سيما إن طال به الوقوف، فإن لم يجد أحدكم في قلبه رقة لأخيه فليرجعْ على نفسه باللوم، وليقل لها: يأتيكِ أخوك معتذراً فلا تقبليه؟! فكم وقعتِ أنتِ في حقه فلم تلتفتي إليه، فأنت إذاً أسوأ منه.

وقال بعضهم: الأخ الذي يُحْوِج أخاه أن يعتذر إليه ليس بأخ صادق، ولا من أهل الطريق، فإن أهل الطريق يقيمون للخلق المعاذير قبل أن يعتذروا إليهم.

ومن حقّ الأخ على الأخ: كثرة فرحه له، إذا كثرت طاعاته، وانقلب الناس

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٨).

إليه بالاعتقاد، ومن لم يكن كذلك قام به داء الحسد، وفي الحديث: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»(١).

ومن وصية سيدي علي وفا: إياك أن تحسد من اصطفاه الله عليك [١٣/ب]؛ فيمسخك الله كما مسخ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية، لمَّا حسد السيد آدم ﷺ.

وفي مناقب سيدي أحمد البدوي نفعنا الله ببركاته: أن صاحب الإيوان بطنتثنا المسمى بوجه القمر، كان ولياً عظيماً فثار عنده حسد حين جاء سيدي أحمد البدوي إلى طنتثنا(٢)، وانقلب الناس إليه بالاعتقاد، فسلب حاله، وانطُفِئ اسمه وذكره، وموضعه الآن في طنتثنا مأوى الكلاب، وانتصر له خطباء طنتثنا، فعملوا له وقتاً، وبنوا لزاويته منارة عظيمة، فجاء سيدي عبد العالِ ورفضها برجله فغارت لوقتنا هذا.

ومن حقّ الأخ على الأخ: إذا أراد سفراً أن لا يخرج حتى يودعه بالعناق إن كان رَجُلاً، وبالإشارة إن كان صغيراً، ففي الحديث: «**إذا خرجَ أحدُكم إلى سفرٍ فليودِّعْ إخوانَهُ؛ فإنَّ اللهَ جاعلٌ له في دعائِهِمُ البركةَ**»(٣).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: إذا رجع من سفر أن يذهب إليه في منزله، ويسلِّم عليه ويهنئه بالسلامة، وكذلك ولده، وسائر أعزته إذا رجعوا من سفر، أو شفوا من مرض، فمن حقه أن يذهب إليه أخوه ويهنئه بالسلامة.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يشاوره [١٤/أ] في كل أمر مهمٍّ؛ فقد ذكروا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣).

(٢) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٤/ ٤٣): طنتثنا: كأنه مركب مضاف طَنتَ إلى ثَنَا، من قرى مصر على النيل المفضي إلى المحلة.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٤٣) وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٢٦٠٠) عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادنُ مني أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا، فيقول: «استودعك الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك».

أن المشاورة تزيد في صفاء المودة، وفي الحديث: «**من أراد أمراً فشاور فيه امرأً مسلماً وفقه الله لأرشد أموره**»(١).

وكان سيدي علي الخواص يقول: عليكم بمشاورة إخوانكم في كل أمر مهم؛ فإن في الحديث: «**ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار**»(٢).

وأنشدوا:

شاورْ أخاكَ في الخفيِّ المشكلِ ... واقبلْ نصيحةَ فاضلٍ متفضلِ

وأنشدوا:

شاورْ أخاكَ إذا نابتْكَ نائبةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ

فالعينُ تلقى كفاحاً ما نأى ودنا ... ولا ترى نفسَها إلا بمرآةِ

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يتفقد عياله وأولاده إذا غاب عنهم.

ومن كلامهم: من لم يتفقد عيال أخيه في غيبته فقد خان الصحبة.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يشاطره في ماله وغيره.

قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: يجب على الفقير إذا آخى في الله أن يشاطر أخاه في ماله؛ كما فعلت الأنصار مع المهاجرين حين قدموا عليهم المدينة، وهم فقراء، فكل من ادعى الأخوة في الله فامتحنْه بهذه الميزان.

وقال سيدي [١٤/ب] أبو مدين التلمساني نفعنا الله به: من ميّز بين ثيابه وثياب أخيه في الملك فما وفَّى الصحبة بحق.

وقال أيضاً: لا تكتمل صحبتك إلا بانشراح صدرك لكل ما أخذه أخوك من مالك وثيابك وطعامك، ومتى ما وجدت في قلبك انقباضاً من ذلك فأنت منافق في صحبتك.

وقال بعضهم: ما تصح الصحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر «يا أنا»، وليس بأخ من يقول: قصعتي أو ثوبي.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٣٢٩)، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٦٢٣)، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير».

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن لا يتكدر منه إذا قال له: أنا أبغضك، ويفتشُ على الصفات التي أبغضه لأجلها، فيزيلها، فإن زال بغضه، وإلاَّ كَرَّر التفتيش ثانياً وثالثاً.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يكتم سرَّه؛ إذ السرُّ كالعورة، وقد حُرِّم كشفها، والنظر إليها، والتحدث بها.

وفي الحديث: «**من ستر عورة أخيه ستر الله عورته، ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته**»(١).

وفي وصية الشيخ أبي المواهب الشاذلي: احذر أن تفشي سرَّ أخيك إلى غيره؛ فإن الله ربما مقتك بذلك، فخسرت الدنيا والآخرة.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يُصَدِّقَ مَنْ نمَّ له فيه أبداً.

وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي: أنه يجب على كلِّ من حملت إليه نميمة ستة أمور:

الأول: ألاّ يصدِّقه، أي النمام [١٥/أ].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك.

الثالث: أن يبغضه في الله.

الرابع: ألاَّ يظن بالمنقول عنه السوء.

الخامس: ألاَّ يتجسس على تحقق ذلك.

السادس: ألاَّ يحكي ما نمَّ له به.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: إذا نقل إليك أحد كلاماً عن صاحب لك فقل: يا هذا! أنا من صحبة أخي ووده على يقين، ومن كلامك على ظنٍّ، ولا يُترك يقينٌ بظنٍّ(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦).

(٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُبلِّغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ =

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: إذا نَقَلَ إليكم أحدٌ كلاماً في عِرضكم عن أحد فازجروه ولو كان من أعزِّ إخوانكم، وقولوا له: إن كنت تعتقد فينا هذا الأمر فأنت ومن نقلتَ عنه سواء، بل أنت أسوأ حالاً منه؛ لأنه لم يُسمعنا ذلك، وأنت أسمعته لنا، وإن كنت تعتقد أن هذا الأمر باطل في حقنا، وبعيد منّا أن نقع في مثله فما فائدة نقله لنا؟(١). انتهى.

وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة أنَّ من أراد أن يدوم له ودُّ أصحابه فليردَّ كلام النمام ببادئ الرأي.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يذبَّ عن عرضه، لكن مع النية الصالحة، والسياسة الحسنة، وفي الحديث: «**مَنْ ردَّ على عرضِ أخيهِ ردَّ اللهُ عن وجههِ النارَ يومَ القيامةِ**»(٢).

ومن كلام الإمام الشافعي [١٥/ب]: من علامة الصادق في أخوّة أخيه أن يقبل علله، ويسد خلله، ويغفر زلَلَه.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يوقظه قبل الوقت ليدخل الوقتُ وهو على أهبة، فلا تفوته السنة الراتبة قبل الفريضة، ولا تكبيرة الإحرام.

وكذلك من حقِّه: أن يوقظه في السَّحر؛ إذ الشفقة في أمر الدين أولى وأفضل من الشفقة في أمر الدنيا، وينبغي أن يكون ذلك بلطف، فإن النفس ربما تحركت مع الإيقاظ بغلظة.

= شيئاً، فإني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦) وقال: هذا حديث غريب.

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شرَّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٤٩٣)، ومسلم (٢٥٢٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٧٤١٤)، والترمذي (١٩٣١) وقال: حديث حسن.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يداهنه؛ ففي الحديث: «**الدين النصيحة**»[١].

وقال القوم: الإخوان بخيرٍ ما تناقشوا، فإذا اصطلحوا أهلكوا.

ومن الفرق بين المداهنة والمداراة أن المداراة ما أردتَ به صلاح أخيك، والمداهنة: ما قصدتَ به شيئاً من الحظوظ النفسانية.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يتهم نفسه بالكبر والنفاق، إذا وجد عنده ثقلاً منه، ويسعى في إزالة ذلك من باطنه.

وقد صحب شخص أبا بكر الكتاني - وكان على قلبه ثقيلاً - قال: فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله عني، فلم يَزُل، فخلوت به يوماً وقلت له: ضع رجلك على خدي فأبى، فقلت له: لا بدَّ من ذلك، ففعل، فزال ما كنت أجده في باطني [١٦/أ].

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يقبل نصحه[٢]؛ فقد قالوا: من أرشدك إلى ما به تَخْلُص من غضب الحقِّ تعالى فقد شفع فيك، فإن أطعته وقبلت نصحه فقد قبلت فيك شفاعته، فنفعتك، وإلاَّ فتعوذ بالله من قوم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، حيث كانوا عن التذكرة معرضين.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يعزم على أنه: إن أدخله الله الجنة لا يدخلها إلا إن دخل أخوه وإن طال الزمان في الحساب، وأن يسمح بمقاسمته في حسناته يوم القيامة.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يأكل ولا يشرب إذا وقع أخوه في معصية أو محنة حتى يتوب الله عليه، أو يخلصه من تلك المحنة.

وقد طوى ابن أدهم حين نزل بأخٍ له بلاءٌ أربعين يوماً، ولم يزل طاوياً حتى ارتفع عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». أخرجه مسلم (٥٥).

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يرشده إلى تعظيم حرمات الله، والتباعد عن تعدي حدوده، بحيث يصير إذا وقع في أصغر الذنوب رأى ذلك الصغير من الكبائر بجامع المخالفة، فلا يزال كذلك حتى يرى الغفلة عن الله لحظة أشد من الزنا وقتل النفس.

ثم إذا كمل السالك رجع إلى أكمل من ذلك، وهو تعظيم [١٦/ب] تعدي حدود الله على حسب ما وردت في الشرع؛ فإن العبد تابع ما هو مشرع، فيعظِّم الكبيرة على الصغيرة، والصغيرة على المكروه، والمكروه على خلاف الأولى، وما بيَّن الشارع ﷺ مراتب الحدود إلا ليعلمنا بتفاوتها، فنعظمها بحسب مراتبها.

وكذلك القول في قسم المأمورات، فنعظم الواجب أكثر من المندوب، والمندوب أكثر من الأدب، ونندم على كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه، فرجع السالك في حال نهايته إلى صورة بدايته، والقصد مختلف من حيث تفاوت المأمورات والمنهيات في الدرجة، وكانت مساواة الأوامر والنواهي في البداية للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى، فاستعظم مأموراته ومنهياته خوفاً وسدّاً لباب المخالفة، بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتهما، كما ورد في الشرع، فثمَّ مقام رفيع، ومقام أرفع.

وعلى ما تقرر يحمل قول الجنيد: ليس عندي ذنب أعظم من الغفلة عن الله تعالى فإن الغيبة أعظم من الغفلة، أو أنه رأى أن سبب وقوع العبد في الذنوب الغفلة عن الله تعالى.

ومن حقّ الأخ على الأخ [١٧/أ]: أن يأمره بستر المقام، إذا تلمَّحَ منه الميلَ إلى الظهور، ومن أحبَّ الخفاء فهو عبد الخفاء، وكل من خرج إلى الخلق قبل وجود الإذن الخاص له فهو مفتون، ومَسْخَرة للناس، وما خرج الأولياء للخلق إلا بعد أن هُدِّدوا بالسلب إن لم يفعلوا.

فالعاقل من ستر مقامه حتى يتولى الله إظهاره بغير مراد منه.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يتظاهر بعداوة من عاداه بغير حقّ، أما معاداته بالباطن: فلا تجوز، حتى عدوُّ شيخِ الإنسان لا يجوز له معاداته بالباطن، بل يجب عليه مظاهرته بعداوته فقط، كما يجب عليه أن يجتنب مَنْ غضب عليه شيخُه.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يقوم له إذا ورد عليه، ولو كره هو ذلك لا سيما في المحافل؛ فقد قالوا: إياك أن تترك القيام لأخيك في المحافل، فربما تولَّد من ذلك الحقدُ والضغائن، فتعجز بعد ذلك عن إزالته.

ومن حقّ الأخ على الأخ: ألاَّ يحدثه بحديث كاذب[١]؛ لأن فيه استهانة به، وفي الحديث: «**كبرت خيانةً أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدِّق وأنت له به كاذب**»[٢].

ومن حقّ الأخ على الأخ: ألاَّ ينساه من الدعاء بالعفو والمغفرة والرحمة كلما وجد وقته صافياً [١٧/ب] مع ربِّه، سواءٌ كان ذلك في ليل أو نهار، أو سجودٍ أو غيره[٣].

ومن حقّ الأخ على الأخ: ألاَّ يحقد عليه ففي الحديث: «**ثلاثة من كن فيه فإن الله يغفر له ما سوى ذلك: من مات لا يشرك بالله شيئاً، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة، ولم يحقد على أخيه**»[٤].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا أئتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٧١).

(٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثلٍ». أخرجه مسلم (٢٧٣٢).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٠٠٤).

وقال القوم: كل من كان عنده حقد أو مكر أو خديعة أو غش لأحد من الخلق فهو كذاب في طريق القوم، ولا يجوز أن يكون داعياً إلى الله تعالى.

ومن حقّ الأخ على الأخ: إذا تحدث أن يشخص ببصره إليه حتى يفرغ من حديثه؛ فإن ذلك يزيد في صفاء المودة، كما أن التلاهي عن حديث الأخ، أو قَطْع كلامه قبل إتمامه يورث الجفاء.

ومن حقّ الأخ على الأخ: ألاَّ يمتحنه؛ فإن الامتحان من جنس كشف العورة.

وقد قالوا: إياكم أن تمتحنوا إخوانكم؛ فإن الله لا يمتحن عباده إلا إن علم وفائهم، كيلا يخجلهم بإظهار ما كان كاسياً عندهم.

وقيل للكُبْري: ألا تمتحن أصحابك؟ فقال: إذاً نخرج كلنا عيوباً.

ومن حقّ الأخ على الأخ: أن يتهيأ للقائه بالحرمة والتعظيم كلَّما فارقه.

قال الشيخ محيي الدين: ولو كان زمن المفارقة يسيراً؛ إحساناً للظن بأن الله نفحه نفحة، أو نظر [١٨/أ] إليه نظرة من نظراته التي في اليوم والليلة إلى قلوب عباده، فصار بها أعلى مقاماً منه، ثم إن كان ذلك الأمر صحيحاً فقد وفَّاه حقه، وإن لم يكن صحيحاً فقد تأدب مع الله تعالى، حيث عامله بما تقتضيه المرتبة الإلهية؛ من إكرام كلِّ واردٍ على حضرتها.

قال: وهذا الأمر قلَّ من يتفقد نفسه فيه؛ لاستحكام الغفلة على القلوب.

ومن حقّ الأخ على الأخ: إذا رآه في ما لا ينبغي أن يعتقد أنه تاب من وقته، وندم في سريرته، وقد كان بعض السلف يقول: إني لأستحي من الله أن أقطع التوبة عن شخص عصى ربه بحضرتي، ثم توارى عني بجدار.

وقالوا: من قطع التوبة عن أحد من العصاة رأى نفسه خيراً منه ضرورةً، وكل من ظنَّ أنه خير من أحد من المسلمين فهو جاهل مخدوع ولو أُعطي من الكرامات ما أُعطي.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: أن يحفظ وُدَّه وإن خان هو وزاغ؛ مراعاة للوُدّ.

قال ابن الخطاب: رأيت ربَّ العزة في النوم، فقلت: يا ربِّ! علمني شيئاً آخذه عنك بلا واسطة، فقال: يا ابن الخطاب! مَنْ أحسن إلى مَنْ أساء إليه فقد أخلص لله شكراً، ومن أساء إلى من أحسن إليه [١٨/ب] فقد بدَّل نعمة الله كفراً، فقلت: يا رب حسبي. فقال: حسبك، انتهى.

وهذا الأمر قد صار عزيزاً في هذا الزمان، وما بقي من أهله سوى الكلاب، كما هو مذكور في كتاب «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب».

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يمنَّ عليه بما فعله معه من المعروف، إذا هو خاصمه، ونسي ذلك المعروف، فإنَّ ذِكْرَ المعروف في المخاصمة عنوانٌ على عدم الإخلاص فيه، ودليلٌ على خسة الأصل، فإنَّ طَيِّبَ الأصل لا يمنُّ أبداً بما فعله مع أخيه من المعروف، بل يرى الفضل لذلك الأخ الذي أكل عنده مثلاً أو قَبِل منه هدية.

وفي الحديث: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المُسْبِلُ، والمنَّانُ، والمنفقُ سلعته بالحلف الكاذب**»(١).

وقال بعضهم: المنُّ بالمعروف في المخاصمة دُمَّلٌ لا يندمل، أي: لا ينسى، بل يصير يكدِّرُ الصحبة كلما تذكَّره.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يخاصمه(٢)؛ فإن المخاصمة تقطع الوُدّ، وقد قالوا: ما وُجِد أذهبُ للدِّين ولا أشغل للقلب من الخصومة. ومن الخصومة يتولد الغضب، والحقد، والخديعة، حتى إنه يكون في الصلاة [١٩/أ] وخاطره معلق بالمحاججة، ولا يخفى ما في ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان حقاً». أخرجه أبو داود (٤٨٠٠).

وفي الحديث: «كفى بك إثماً ألاَّ تزال مخاصماً»(١).

وأنشدوا:

تجنبْ قرينَ السوءِ واصرمْ حبالَهُ فإنْ لَمْ تجدْ عنه محيصاً فدارِهِ

وأحببْ قرينَ الصدقِ واتركْ مراءَهُ تنلْ منه صفوَ الوُدِّ ما لم تمارِهِ

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يبادر إلى هجره؛ فإن المبادرة إلى مثل ذلك ليست بمحمودة، وخطؤها أكثر من صوابها، وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة شروط جواز الهجر(٢).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يؤاخذه إذا قصَّر في حقّه مراعاة للوُدّ.

ومن وصية سيدي علي الخواص: اترك حقك لأخيك ما استطعت، وأَقِلْ عثرة أهل المروءات والهيئات من إخوانك، وإياك أن تعتدي على من اعتدى عليك؛ فإنا الحقَّ تعالى ما أباح الاعتداء إلا بشرط المثلية، والمثلية متعذرة جداً، فربما زدت، وربما أثرت تلك السيئة في الخصم أكثر مما أثرت فيك، فالمجازاة رخصة للضعفاء.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: دوام شفقته على أولاده، والقيام بهم بعد موته(٣).

قال القوم: من لم يشفق على أولاد أخيه في غيبته، ولم يقم بهم بعد موته فليس بصادق [١٩/ب] في أُخوَّته.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٤).

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٣) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يقرَّه على بدعة، فإن لم يرجع عنها تركه خوفاً على نفسه أن يلحقه شؤمها.

وقد كان السلف الصالح يحذرون من مجالسة أهل البدع ويقولون: من كان فيه أدنى بدعة فاحذروا من مجالسته، ومن تساهل في ذلك عاد عليه شؤمها ولو بعد حين.

ومن حقِّ الأخ على الأخ: ألاَّ يتزوج له زوجة طلَّقها أو مات عنها، ولو أوصاه بذلك، وقال: أنت أحق من الغير.

فاعرض - يا أخي - ما في هذا الفصل على نفسك، فإن رأيتها متخلقة به فاشكر الله تعالى، وإلاَّ فعليك بالاستغفار من التقصير في حقوق إخوانك، ليلاً ونهاراً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الفصل الثالث
في ذكر شيء من آداب القوم
رضي الله تعالى عنهم

اعلم - وفقني الله وإيَّاك إلى ما يحبُ - أنَّ آداب القوم لا تنحصر؛ لأنها مجموع ما في الكتب الإلهية، والأخبار النبوية، والآثار الصحابية والسلفية، ولكن نذكر لك شيئاً من آدابهم؛ تبركاً وفتحاً للباب، فنقول وبالله التوفيق:

من آداب القوم: أن يفروا - في جميع الشدائد - إلى الله تعالى قبل جميع الخلق؛ لعلمهم على الكشف والشهود أن بيده تبارك وتعالى ملكوتَ كل شيء، بخلاف غيرهم فإنهم لا يرجعون إلى الله إلا بعد [٢٠/أ] الوقوف على خلقه(١).

ومن آدابهم: جمع الحواس والقلب حال العمل؛ فقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى للملائكة الكرام الكاتبين: اكتبوا عمل عبدي فلان، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل ليأخذ ثوابه ممن كان قلبه حاضراً معه(٢).

ومن كلام سيدي علي الخواص: كل عمل لم يحضر العبد فيه مع ربه تعالى فهو كالميتة، وهو بالنفاق أشبه، وذلك لأنه يوهم الناس أنه مع الله حال مناجاته، وهو مع الخلق، وقد طالت الطريق على الناس لغفلتهم عن ذلك،

(١) قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٢٩].

فحجبوا بالأعمال عن المعمول له، ولو أنهم لا حظوا المعمول له لاشتغلوا به عن الأعمال.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يطلبون بعبادتهم مقاماً أو حالاً أو تقريباً من الحضرة الإلهية، فقد قالوا: من خدم الله تعالى لطلب مقام فقد طلب قطيعته، ومن خدمه لطلب ثواب أو خوفاً من عقاب فقد أبدى طمعه وأظهر خسته.

وقالوا: مِن أبغضِ الخلق إلى الله تعالى مَنْ تملّق إليه في الأسحار بالطاعات؛ يطلب قربه تعالى بذلك.

وقالوا: افعلوا ما أمركم به الشرع إن استطعم، ولكن من حيث مشروعيتُهُ، والأمرُ به، لا من حيث [٢٠/ب] علّة أخرى، واتركوا العلل كلها في جميع أعمالكم وأحوالكم، ولا تنظروا إلى ثواب، فمن نظر إلى ثواب في أعماله عاجلاً أو آجلاً فقد خرج عن أوصاف العبودية التي لا ثواب لها إلا وجه الحقّ عز وجل.

ومن آدابهم: تفتيش أعضائهم الظاهرة والباطنة صباحاً ومساءً: هل حفظتْ حدودَ الله التي حدها لها أو تعدت؟ أو هل قامت بما أُمرت به، من غضّ البصر، وحفظ اللسان، والأُذُن والقلب، وغير ذلك على وجه الإخلاص أو لم تقم؟.

فإن رأوا جارحة من جوارحهم أطاعت شكروا الله تعالى، ولم يروا نفوسهم أهلاً لذلك، وإن رأوها تلطخت بشيء من المعاصي أخذوا في الاستغفار والندم، ثم يشكرون الله تعالى، إذ لم يقدّر عليهم أكثر من تلك المعصية، ولم يبتلِ جوارحهم التي عصت حال عصيانها، فإن كل عضو عصى استحقّ نزول البلاء به حال عصيانه[١].

---

(١) عن شداد بن أوس رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه؛ وعمل لما بعد =

ومن آدابهم: [أنهم] لا يغفلون عن تفتيش باطنهم؛ فإن الأخلاق الرديّة كامنة في العبد، ومعلوم أن الفقراء إذا ترقوا في المقامات كان وقوعهم في المعاصي الظاهرة معدوماً غالباً، فيقع أحدهم بذلك، وينسى تفتيش باطنه، وهو قصور عن درجة [٢١/أ] أهل العرفان، ومن ظن أن الأخلاق الردية زالت عنه فقد وهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١] فلم يقل: ومن يزل شحَّ نفسه، بل أبقى الشحَّ فيها؛ إلا أن العبد يوافي العمل بذلك بعناية الله.

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: أن الله تعالى قد جعل من طينة الآدميين سائر الأضداد في جميع الأخلاق الحميدة والذميمة، تُشَرِّقُ وتُغَرِّبُ في ذواتهم، ولكن ما دامت العناية الربانية تحفُّ العبد فجميع الأخلاق الذميمة خامدة متعطلة، فإذا تخلفت عنه العناية تحركت الأخلاق الذميمة للاستعمال، وخمدت أخلاقه الحسنة.

ثم لا يخفى أن طينة الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام قد طهَّرها الله من سائر الرذائل بسابق العناية، فافهم وإياك والغلط.

ومن آدابهم: عدم مؤالفتهم للوعد، فلا يعدون أحداً بوعد إلا في النادر؛ لعلمهم أن صدق الوعد لا يكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم، وأما غيرهم: فربما وعد وأخلف، فيصير فيه خصلة من النفاق[٢].

= الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها؛ وتمنى على الله». أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن.

(١) سورة الحشر، الآية (٩).

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٤)، ومسلم (٥٨).

ومن آدابهم: إذا سئل أحدهم عن شيخه أن يقول: كنت خادمه، أو من المترددين إليه، ولا يقول [٢١/ب]: كنت صاحبه؛ فإن مقام الصحبة عزيز؛ إذ صاحب الإنسان هو من يشرب من بحره، كما تقدم في أول الرسالة.

ومن آدابهم: إذا ذُكِر أحد من أصحابهم في غيبته بحضرتهم لا يقولون: هو من أصحابنا، أو من أكابر أصحابنا إلا إن كان دونهم بدرجات، فإن كان مساوياً لهم أو فوقهم فيقولون: نحن من أتباعه أو خدّامه.

ومن آدابهم: لا يقولون: ذهب الأكابر والصادقون؛ فإنهم ما ذهبوا حقيقة، وإنما هم ككنز صاحب الجدار.

وقد يعطي الله من جاء في آخر الزمان ما حجبه عن أهل العصر الأول؛ فإن الله قد أعطى نبيَّنا ﷺ ما لم يعطه الأنبياء قبله، ثم قدّمه عليهم في المدح.

ومن كلام صاحب «الحكم»: بدل ما تقول: أين الأولياء؟ أين الصالحون؟ قل: أين البصيرة؟ هل يصلح للمتلطخ بالعذرة أن يرى بنت السلطان. انتهى.

ومثل هذا اللفظ لا يقع إلا ممن لم يكن عنده اعتقاد في أولياء عصره وعلمائه، ولا يخفى ما في ذلك.

ومن آدابهم: لا يطلبون ألاً يكون لهم حاسد؛ فإن الحكم الوجودي اقتضى مقابلة النعم بالحسد، فمن طلب ألاً يكون له حاسد فقد طلب أن لا تكون له نعمة [٢٢/أ].

ومن آدابهم: إذا ذكروا ذنوبهم لا يقولون عليها: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ لما في ذلك من رائحة الحجة على الله تعالى[١]، بل يقولون: ﴿رَبَّنَا

---

(١) قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[1]. ومع الأوراد: ربِّ ظلمت نفسي فاغفر لي؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

ومن آدابهم: لا يقولون: نأنس بالله تعالى؛ فإن الإنسان لا يأنس إلا بجنسه، والحقّ تعالى ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجهٍ من الوجوه، فإن رأيت في كلام أحد من القوم أن العبد يأنس بالله تعالى فاعلم أنه غير محقّق، ولو حقق لوجد أُنسه بما مِن الله تعالى، لا بالله تعالى؛ لانتفاء المجانسة.

وكذلك كان الجن لا يأنس أحدنا بهم، بل تقوم كل شعرة من الإنسي إذا رأى الجني.

وكما لا يصحُّ الأُنس بالله تعالى كذلك لا يصحُّ الالتذاذ به تعالى.

قال القوم: وهذا الحكم لنا في الدارين، فإن الشارع ﷺ لم يفصح لنا عن سبب اللذة إذا وقعت لنا الرؤية، بل قال: فما أعطوا لذَّةً مثل لذة نظرهم إلى ربهم، وهذه اللذة لا نتعقلها الآن[2].

ومن آدابهم: لا يقولون: نطلب الله؛ إذ الطلب لا يكون [٢٢/ ب] إلا لمفقود، والله تعالى موجود ولا يطلب دركه؛ لأنه لا غاية له، وإنما نطلب الطريق إلى معرفة الله تعالى.

ومن آدابهم: لا يستعيذون بالله من شيء، وإنما يستعيذون من شره، وكذلك لا يقولون: اللهم أغننا عن جميع خلقك، وإنما يقولون: أغننا عن أشرار خلقك.

ومن آدابهم: عدم زخرفتهم الكتب التي يرسلونها إلى إخوانهم؛ خوفاً من الكذب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٣).

(٢) عن صهيب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم». أخرجه مسلم (١٨١).

ومن وصية أبي نصر بشرٍ الحافي: إذا كتب أحدكم كتاباً إلى أحد فلا يزخرفه بحسن الألفاظ، فإني كتبت مرة كتاباً، فعرض لي كلام إن كتبته حَسُنَ الكتاب وكان كذباً، وإن تركته سَمُجَ الكتاب وكان صدقاً، فعزمت على ذكر الكلام الصدق، فنادى هاتف من جانب البيت: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(١).

ومن آدابهم: كثرة استغفارهم إذا اعتقدوا فيهم الخلق، وهم في السر على خلاف ذلك.

وفي الحديث: «**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً**»(٢).

وقد حثُّوا على الاعتناء بالاستغفار ليلاً ونهاراً، سواء تذكر العبد ذنوباً معينة، أو لم يتذكر(٣).

ومن آدابهم: إذا مدحوا أن يكثروا من الشكر والاستغفار، وأن يقولوا: اللهم أنت أعلم بنا منهم، اللهم اجعلنا [٢٣/أ] خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون.

ومن آدابهم: لا يعتمدون على كسبهم؛ فإن الاعتماد على الكسب شرك بالله عز وجل، وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة معرفة طريق الخلاص من هذا الشرك، وأنَّ من خَلُص منه فهو المؤمن الذي يأتيه رزقه من حيث لا يحتسب.

ومن آدابهم: عدم نسبة شيء من الأعمال الصالحة إلى نفوسهم إلا بقدر نسبة التكليف فقط.

قال القوم: كل عمل اتصل بالعبد شهوده فهو غير متقبل، فمن شهد له

---

(١) سورة إبراهيم، الآية (٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٣).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٣٠٧).

عملاً فعمله عند نفسه؛ لا عند ربه، ومن حقَّق النظر علم أنه لا أثر لمخلوق في فعل شيء من حيث التكوين، وإنما له الحكم فيه فقط، وغالب الناس لا يفرق بين الحكم والأثر.

ومن كلام سيدي علي الخواص: ما دام العبد ينسب الأمور لنفسه ذوقاً وإلى الله علماً فهو محجوب، فإذا رفع الحجاب رأى أفعاله كلها خلقاً لله تعالى ذوقاً به دون نفسه، فلا يكمل حال المريد حتى يشهد أفعاله كلها خلقاً لله تعالى ذوقاً، وأما علمه أنها خلق الله: فلا يكفيه؛ إذ ليس العلم كالذوق.

قال: وأكثر المريدين لم يثبت لهم قدم في توحيد أفعالهم لله تعالى، وكذلك يطلبون الجزاء من الله تعالى على ما أجرى على أيديهم من الأعمال الصالحة [٢٣/ب]، وكذلك يطلبون الجزاء من الخلق إذا أجرى الله على يدِهِم إحساناً لهم، فلولا نسبتهم ذلك إلى أنفسهم ما طلبوا الجزاء من الله تعالى، ولا من الخلق، وما قال عارف قط: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾[1] إلا على وجه التلاوة فقط، لا على وجه كونه له شركة في الفعل، تعالى فعل الله عن الشرك، فافهم.

ومن آدابهم: التجرد عن العزة والغنى، والتحقيق بالذل والفقر، إذا توجهوا إلى الله في أمر دنيوي أو أخروي؛ كيلا يمنعوا عن الإجابة.

ومن كلامهم: إذا توجهت إلى الله فتوجَّه إليه وأنت فقير ذليل، فإن غناك وعزتك - وإن كانا بالله تعالى - يمنعانك الإجابة؛ لأنَّ الغنى والعزَّ صفتان لا يصحُّ لعبدٍ الدخول بهما على الله تعالى أبداً؛ لأن حضرته تعالى لها العزة ذاتية، فلا تقبل عزيزاً ولا غنياً[2].

---

(١) سورة الفاتحة، الآية (٥).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العزُّ إزارُهُ، والكبرياء رداؤهُ، فمن يُنازِعُني عذبته». أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

ومن آدابهم: لا يسألون الله شيئاً من أمور الدارين إلا مع التفويض وردّ العلم إليه سبحانه؛ عملاً بعموم قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

فيقول أحدهم في سؤاله: اللهم أعطني كذا وكذا إن كان فيه خير لي، واصرف عني كذا وكذا إن كان فيه شرٌّ لي.

ومن وصية سيدي عبد القادر الجيلي: احذر أن تسأل الله شيئاً إلا مع التفويض، وأمّا إذا أعطاك تعالى شيئاً من غير [٢٤/أ] سؤال فذلك مبارك، وعاقبته حميدة، وليس عليك فيه حساب إن شاء الله تعالى؛ لكونه جاء من غير استشراف نفس.

ومن آدابهم: عدم الاشتغال بالنعمة عن المنعم؛ إذ يقبح بالعبد أن يألف النعمة دون المنعم أو يميل إليها، فإن الميل إلى كل شيءٍ دون الله مذموم، إلا في حقوق الله ومأموراته.

وفي وصية سيدي عبد القادر الجيلي: إياك أن تشتغل بما أعطاك الحقُّ سبحانه من المال فيحجبك بذلك عنه، دنيا وأخرى، وربما سلبك ذلك المال عقوبة لك، وإذا اشتغلت بطاعته عن ذلك المال كان من المال المحمود لا المذموم.

ومن آدابهم: محبة العزلة في البداية دون النهاية؛ وذلك لأن المبتدي لضعفه أدنى شيء يشغله عن الله تعالى، ولا هكذا المنتهي؛ لأنه من حين عرف الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم صار لا يشغله عن الله شاغل، ولا تخلو الخلق عنده من حالين: إما أن يكون أحدهم أعوجَ فيجب عليه القرب منه حتى يقوّم عوجه، وإما مستقيماً فيستفيد منه العلم والأدب.

وإنما لم نقل: لا تخلو الخلق عنده من ثلاثة أحوال، ونعد منها المساوي

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٦).

له من الأقران؛ لقولهم: ليس في الوجود شيئان متساويان من كل الوجوه، فما ثَمَّ إلا الزائد أو الناقص، وكذلك القول في الجوع المفرط أوائل [٢٤/ب] دخولهم الطريق مع وجودهم الطعام؛ مجاهدة لنفوسهم، أما حال كمالهم: فلا يجوعون إلا إذا فقدوا الطعام؛ لأنهم مطالبون بإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه من جوارحهم، ويؤاخذون بظلمهم لنفوسهم في مرضات الله بعد الكمال، عكس ما كانوا عليه في بداية أمرهم.

ومن هنا قيل: جوع الأكابر اضطرار لا اختيار، بخلافهم في بدايتهم، فإنهم يجوعون اختياراً مع وجود الطعام؛ تعذيباً لنفوسهم لتنقاد لهم إذا دعوها لمرضاة الله تعالى؛ لأنها قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون.

ومن آدابهم: لزوم الرحمة للمسلمين.

وفي الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى»(١).

ومن كلام سيدي علي الخواص: عليك بالرحمة للمسلمين إن أردت أن تُرْحَم، ومن الرحمة لهم أن تحمل همومهم(٢).

قال: واعلم أنَّ حملنا لهموم إخواننا المسلمين لا ينافي التسليم كما توهمه بعضهم؛ فالعبد يحمل همَّ إخوانه من حيث كسبهم للذنوب التي استحقوا بها البلاء النازل عليهم، ويسلِّمُ من حيث التقدير الإلهي الذي سبق به العلم، إذ لا يمكن رد مثل ذلك، فافهم؛ فإنه قد غلط في ذلك جماعة من مشايخ الجهل زاعمون أنهم مسلِّمون لله تعالى، ويخرجون على من يرونه يحمل همْ إخوانه، ويقولون: ما لفلان ومعارضةَ الأقدار، ويتوهمون أنَّ [٢٥/أ] ما هم عليه أكمل، وهو جهل؛ ففي الحديث: «من لم يحملْ همَّ المسلمين فليس منهم» وفي لفظ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٣٢١٠)، والترمذي (١٩٢٤).

(٢) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: مثل المؤمنين في دوادهم وتراحمهم وتعاطفهم =

وقد كان الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذا نزل بالمسلمين بلاءٌ لا يضحك قط، وكذلك عمر بن عبد العزيز، وسفيان الثوري، وعطاء السلمي، حتى يرتفع ذلك البلاء.

قال: ومن مقام القطب: أن يتحمل من البلاء ما لا تطيقه الجبال، فكل بلاء أهل الأرض ينزل عليه أولاً، ثم ينتقل منه إلى الإمامين، ثم إلى الأبدال، فلا يزال ينتقل حتى يعمَّ أصحاب الدوائر والمقامات، فإذا فاض بعد ذلك شيء وزِّعَ على عامة المسلمين، فربما وجد أحد ضيقاً وقبضاً حتى يكاد يهلك، ولا يعرف سبب ذلك؛ فهذا سببه.

ومن هنا قالوا: الرحمة خاصة والبلاء عام، وذلك من جملة رحمة الله تعالى بالعصاة، فإنه لو نزل بهم بلاؤهم كله الذي استحقوه بالمعصية لمحق الله أثرهم، وإنما يوزع على الناس، فيصيب كل واحد قدراً يسيرا لا يكاد يحسُّ به.

ومن آدابهم: تحويط المسلمين في المساء والصباح بما ورد من الآيات والأخبار، وتحويط زرعهم من الدودة وجسورِهم من العصاة، وبحر النيل حتى تتم زيادته في العادة، والفاكهة إذا حصل حر أو برد شديد يرمي [٢٥/ب] الزهرَ.

ومن آدابهم: عدم شكواهم إلى الخلق ما يصيبهم [من] بلاء ومحنة وغير ذلك.

ومن وصية سيدي عبد القادر الجيلي: احذر أن تشكو ربك وأنت معافى في بدنك، أو لك قدرة على تحمّل ذلك البلاء بالقدرة التي قوّاك تعالى بها، فتقول: ليس عندي قوة ولا قدرة، أو تشكوه إلى خلقه وعندك نعمة ما، أنعم

= مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

بها عليك، وتقصد بتلك الشكوى الزيادة من خلقه، وأنت متنعم عما له عندك من العافية والنعم، فاحذر من الشكوى لمخلوق جهدَك، ولو تقطّع لحمك، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم البلاء من جهة شكواه، وكيف يشكو العبد من هو أرحم به من والدته الشفيقة؟!

ومن آدابهم: كثرة شكرهم على النعمة امتثالاً للأمر لا طلباً للزيادة.

ومن كلامهم: عليك بشكر النعمة؛ فإنَّ مَنْ لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، واحذر أن يكون شكرك لأجلك، بل اجعل شكرك امتثالاً لأمر ربك بالشكر، ولهذا قال تعالى ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾(١) فافهم.

ومن آدابهم: شدَّة سترهم لمقامهم، فقد قالوا: الكامل من يهضم نفسه حتى يزكِّيه ربه.

وقالوا: أحسن بذر الحرَّاث ما بَذَره ثم ستره بعد ما بذره، حتى نبت في بطن الأرض، وأقبحه ما نبت فوقها؛ لأنه لا ثبات له.

وقالوا: على صاحب الحقِّ ألاَّ [٢٦/أ] يهتم بإظهار شأنه اهتماماً يحمله على الاستعانة بالخلق، فإنه إن كان على نور حقٍّ فهو يظهر بالله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾(٢) وإن كان على ظلمة باطل، وتسبب في إظهار شأنه وإشاعته فإنه لا يتمتع بذلك - إنْ مُتِّع به - إلا قليلاً، ثم: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾(٣).

ومن آدابهم: ترك التدبير، وهو على قسمين: تدبير محمود، وتدبير مذموم.

فالمحمود: ما كان فيما يقربك إلى الله تعالى، كالتدبير في براءة الذمم

---

(١) سورة لقمان، الآية (١٤).

(٢) سورة النساء، الآية (٤٥).

(٣) سورة النساء، الآية (٨٤).

من حقوق العباد، إما وفاءً، وإما استحلالاً، وفي تصحيح التوبة، وفيما يؤدي إلى قمع الهوى والشيطان.

والتدبير المذموم: تدبير الدنيا للدنيا، وهو أن يدبِّر في أسباب جمعها افتخاراً بها واستكثاراً، وكلما ازداد منها شيئاً ازداد غفلة واغتراراً، وأمارة ذلك: أن تشغله عن الموافقة، وتؤديه إلى المخالفة.

أما تدبير الدنيا للآخرة: فلا بأس به، كمن يدبِّر المتاجر؛ ليأكل منها حلالاً طيباً ويُنْعِم منها على ذوي الفاقة اتصالاً، ويصون بها وجهه عن السؤال إجمالاً، وأمارات ذلك: عدم الاستكثار والادخار، والإسعاف منها والإيثار.

ومن آدابهم: ترك الاختيار مع الله تعالى، فقد ذكروا [٢٦/ب] أن بني إسرائيل لما جعلوا لهم مع الله اختياراً ضربت عليهم الذِّلة والمسكنة.

وقالوا: إياك والفرار من حالٍ أقامك الله فيها؛ فإن الخير ما اختاره الله لك، وتأمل السيد عيسى عليه الصلاة والسلام لما فرّ من بني إسرائيل حين عظَّموه كيف عُبِدَ من دون الله تعالى فوقع في حالٍ أشد مما فرَّ منه.

وقالوا: أصل اختيار العبد إنما هو لظن العبد أنه مخلوق لنفسه، والحقُّ تعالى ما خلق العبد إلا له سبحانه، فلا يعطي عبده إلا ما يصلح أن يكون له تعالى.

وقالوا: لا تركن إلى شيء، ولا تأمن مكر الله لشيء، ولا لغير شيء، ولا تختر شيئاً؛ فإنك لا تدري أتصل إلى ما اخترته أم لا؟ ثم إن وصلت إليه فلا تدري ألك فيه خير أم لا؟ وإن لم تصل إليه فاشكر الذي منعك؛ فإنه لم يمنعك عن بخل، وإذا خيَّرك الله تعالى في أمر فاختر عدم الاختيار، ولا تقف مع شيء، ولا تحزن على شيء خرج عنك؛ فإنه لو كان لك ما خرج منك، ولا تفرح بما يحصل لك من أمور الدارين سوى الله تعالى؛ فإنَّ ما سواه تعالى عدم.

وقالوا: لا تختر جلب نعماء، ولا دفع بلوى؛ فإنَّ النعماء واصلة إليك بالقسمة [٢٧/أ]، استجلبتها أو دفعتها، والبلوى حالَّة بك ولو دفعتها أو كرهتها، فسلِّمْ لله في الكل يفعلُ ما يشاء، فإن جاءتك النعماء فاشتغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوى فالزم الصبر والموافقة، أو الرضا، والتنعم بها على قدر ما تعطى من الحالات حتى تصل إلى الرفيق الأعلى وتقام في مقام من تقدم من المتقدمين.

ومن آدابهم: أن يرضوا بالدون من كل شيء تحبه النفس من شهوات الدنيا، وأن يثبتوا إذا ضيّق الله عليهم في المعيشة.

ثم لا يخفى أن من رضي بالدون من كل شيء تحبه النفس من شهوات الدنيا، لم يقع بينه وبين أحد منازعة ولا خصومة، واستراح قلبه ودمه من التعب في تحصيل الزائد عن الحاجة، فإن رُزق كسرة من الشعير قنع بها، وشكر الله عليها، وإن رزق حبَّة قنع بها، وشكر الله عليها، ثم بعد ذلك إن جاءه أمر زائد أكثر من الشكر عليه باللسان والبدن.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يضيفون إليهم شيئاً إلا مع الحضور أن ذلك من نعم الله عليهم دون أن يضيفوا ذلك إليهم مع الغفلة وادعاء الملك.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يقولون لمن قصدهم في حاجة: ارجع وتعالى إلينا وقتاً آخر، ولا يمنعون سائلاً إلا لحكمة، لا لشح وبخل.

ومن آدابهم: كل موضع عظَّمهم الناس فيه وخافوا منه الفتنة لا يألفونه.

ومن آدابهم: قلَّة التحدث على الأكل؛ لأنهم جالسون حقيقة على مائدة الله، والله ناظر إليهم وإلى آدابهم وإيثارهم لبعضهم بعضاً، وشكرهم له عز وجل.

وكذلك من آدابهم: [أنهم] لا يأكلون من وسط الإناء؛ عملاً بخبر: «**إن البركة لتبرز في وسط الإناء فكلوا من حافّاته، ولا تأكلوا من وسطه**»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٩٤١٧)، والترمذي (١٨٠٥) وقال: حديث حسن صحيح.

ومن آدابهم: إجابة أخيهم التقي إذا دعاهم إلى طعامه.

ومن كلام سيدي علي الخواص: إذا دعاك أخوك المؤمن التقي إلى طعامه فأجبه تسره، ولا تُجِبْ ظالماً ولا فاجراً، ولا من يعامل بالربا، ولا من يخصُّ الأغنياء بدعوته دون الفقراء، وإذا أكلت فلا تتحول حتى ترتفع المائدة؛ فإن ذلك من سنة السلف الصالح، وإذا غسلت يدك فادع بالبركة، واستأذن في الخروج.

ومن آدابهم: لا يأكلون وحدهم؛ لما ورد أن شرَّ الناس من أكل وحده(١).

وفي وصية سيدي علي الخواص: لا تأكل وحدك، ولا في ظلمة، ولا تضيع من الطعام شيئاً؛ فإنه ما قدِّم إليك إلا لتأكله، لا لترميه في الأرض، وبادر إلى ما سقط فكلْه؛ فإنه ورد في الخبر: «**أن من أكل ما سقط صرف الله عنه الجنون والجذام والبرص، وعن ولده وولد ولده [٢٨/أ] إلى رابع أهل بيته**»(٢).

وليس من آدابهم: صرف وجوههم عن الحاضرين عند الشرب.

وقال الشيخ نجم الدين الكبري: إذا شرب أحدكم فليشرب ووجهه إلى القوم، ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعله العوام بقصد الاحترام، وإذا فرغ أحدكم من غسل يده فليدعُ لمن يصبّ عليه بنحو: طهَّرك الله من الذنوب.

ومن آدابهم: إذا استبرؤوا يجعلون يدهم من داخل الثوب، ويخافون من وقوع يدهم اليمنى على فرجهم؛ إكراماً للقرآن العظيم وكتب العلم وللسُبْحَةِ التي يسبحون عليها.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام الإثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة». أخرجه البخاري في «صحيحه» (٥٣٩٢)، ومسلم (٢٠٥٨).

(٢) قال السخاوي في «المقاصد» (١٠٧٢): أخرجه أبو الشيخ في «الثواب» عن جابر به مرفوعاً، وعن الحجاج بن علاط مرفوعاً أيضاً، والديلمي والخطيب، ثم قال: وكلها مناكير.

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: إني لأستحي أن أدخل الخلاء بثوب وقعت فيه الصلاة، أو أقرأ القرآن وقد تكلمت كلمة قبيحة، وربما أترك القراءة إذا تكلمت كلمة قبيحة زمناً طويلاً، حتى أنسى تلك الكلمة، وكذلك أستحي أن أمسك فرجي بيدي اليمنى.

قال: وقد بلغنا عن بعض الصحابة أنه لم يمس فرجه بيده اليمنى مذ بايع رسول الله ﷺ إلى أن مات، وبلغني أيضاً أن مريداً من مريدي الشيخ نجم الدين الكبري وقعت يده على فرجه في الخلوة، فتعسّر عليه الفتح، فلما خرج بعد الفتح قال له الشيخ: قد علمت بوقوع يدك على فرجك وأنت في الخلوة [٢٨/ب]، وتوقف الفتح عليك بسبب ذلك يا ولدي، كيف يجلس أحدكم بين يدي الله ويضع يده على فرجه؟! أما علمت أن من كان في الخلوة في حضرة الله تعالى.

ومن آدابهم: تقصير ثيابهم. قال الشيخ البصري في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾[١] أي: فقصّر.

ومن آدابهم: إذا لبسوا ثوباً جديداً لا يغفلون عن قول: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ لما روى أبو داود، عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٢].

ومن آدابهم: إكرام أهل الحِرَفِ المشروعة، وتعظيمهم بطريقة الشرع؛ لأنهم متخلقون بالأدب مع الله تعالى، ومع الكون، وإن كانوا لا يشعرون بذلك.

---

(١) سورة المدثر، الآية (٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٤٥٨).

ومن آدابهم: تعظيم العلماء، وحملة القرآن الكريم؛ محبة في رسول الله ﷺ، لأنهم حملة الشريعة المطهرة(١).

ومن آدابهم: لا يمرون راكبين على من علَّمهم شيئاً من القرآن العظيم، ولو صاروا من مشايخ العصر، ولا يمشون أمامه، ولا [٢٩/أ] ينسونه من الهدية والشكر والدعاء، ولا يتزوجون له مطلَّقة أو امرأة مات عنها، ولا يتولون له وظيفة عزل عنها، ولو سئلوا فيها؛ لأنه أبو الروح.

وقد كان الشيخ شمس الدين الديروطي - صاحب البرج بدمياط - إذا مرَّ عاى فقيه ينزل عن دابته، ويسوقها أمامه، ويقبل يده، ثم لا يركب حتى يبعد عنه جداً، أو يتوارى عنه بجدار أو نحوه، مع أنه بلغ في العلم الغاية، وشرح «المنهاج» وغيره، وفقيهه على حكم فقهاء المكاتب، لم يزد على حفظ القرآن الكريم إلا ما لا بدَّ منه، وقلَّ من يفعل ذلك في هذا الزمان.

ومن آدابهم: لا يجلسون للمشيخة، ولو اجتمعت فيهم شروطها إلا بإذن من الله تعالى، أو من بابه الأعظم ﷺ، أو من شيخ عارف ناصح؛ فإنَّ في الإذن البركة والسلامة من الآفات في مستقبل الزمان، والمراد بالإذن من الله تعالى الإلهام الصحيح.

ومن آدابهم: لا يزهدون في الدنيا إلا لكونها مبغوضة لله تعالى، لا لعلة أخرى من راحة بدن، أو تخفيف حساب، وكذلك لا يزهدون فيما في أيدي الناس إلا امتثالاً للأمر، وليحبهم الناسُ فيشفعوا فيهم عند ربهم إذا [٢٩/ب] وقعت المؤاخذة على الذنوب، لا لعلة أخرى من إقامة جاه، وانتشار صيت عندهم.

ومن آدابهم: لا يشهدون لهم ملكاً في الدارين، ومن هنا صحَّ لهم مقام

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم. أخرجه مسلم (١/٦) معلقاً، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص ٤٩).

التجريد في الباطن، فليس لهم علاقة في الدنيا يطلبونها، أو يتأسفون على فواتها، ولو خلع أحدهم ثيابه الظاهرة المعتادة، وجعل على رأسه عرقية فقط، وفي وسطه خرقة تستر عورته فقط، أو خيشة تدفع عنه ألم الحر والبرد فقط، لم يكن عليه في ذلك لوم؛ لمشاكلة ظاهره لباطنه، بخلاف ما إذا لبس هذه اللبسة قبل حصول التجريد بالباطن؛ فإن ظاهره لم يشاكل باطنه، فوقع في صورة المنافق؛ إذ المنافق هو من أظهر خلاف ما أبطن.

ومن آدابهم: التباعد عن كل مَنْ يرونه من العلماء لا يعمل بعلمه، مع إحسان الظن به.

ومن كلام سيدي علي وفا: علماء السوء أضر على الناس من إبليس؛ لأن إبليس إذا وسوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو مضلٌّ مبين، فإن أطاع وسواسه عرف أنه قد عصى؛ فيسرع في التوبة من ذنبه، والاستغفار لربه، وعلماء السوء يُلْبِسون الحقَّ بالباطل، ويورُّونَ الأحكام على وفق غرضهم وأهويتهم، فمن أطاعهم ضل سعيه، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، فاجتنبهم، وكن [٣٠/أ] مع الصَّادقين؛ فإنك تستفيد منهم العمل بأحكام الدين، بخلاف المتفيهقين؛ فإنك لن تستفيد منهم إلا دعوى العلم، والتكبر على المسلمين.

ومن آدابهم: كثرة انقباضهم في نفوسهم إذا رأوا أمراً مخالفاً للشرع؛ إيثاراً للجناب الإلهي، وشفقة على الفاعل.

وليس من آدابهم: أن يقولوا: هذا فِعْلُ الله فلا يُنْقَبَض منه؛ لأنه جهل، فقد كان ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل(١).

وقد قالوا: ينبغي للمؤمن عينان أو أعين: عين ينظر بها إلى ما في الفعل

---

(١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل من شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى. أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

الإلهي من الحكم البالغة؛ ليَسْلَمَ من الوقوع في الاعتراض على حكيم عليم، وعين ينظر بها إلى مخالفة العبيد لأوامر ربهم، فيغار لله تعالى.

فعلم أن إنكار المنكر لا يقدح في مقام التسليم؛ لأنَّ كلاً منهما مأمور بها شرعاً، فافهم.

ومن آدابهم: غضُّ البصر عن فضول النظر، والإسراع في المشي مع السكينة، وإصلاح ذات البين، والتعامي عن عيوب الناس، وسترها ونشر محاسنهم، إلا المبتدعة؛ فإنَّ في نشر مساوئهم والتحذير منهم رحمةً للمسلمين، فلا يزيد عذاب المبتدع باتباع الناس له في بدعته، ولا يأثم أحد بسببه.

ومن آدابهم: عدم سَبِّ [٣٠/ب] الولاة وإن جاروا؛ لأنهم مسلطون غالباً على الرعية بحسب أعمالهم ونياتهم.

ومن آدابهم: عدم الاستنصار لنفوسهم؛ فإن الانتصار للنفس من الأمور التي كلها تعب، ومن سلَّم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة ولا أهل.

ومن كلامهم: إذا انتصر الصوفي لنفسه وأجاب عنها فهو والتراب سواء.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يَدْعُون على مَنْ ظلمهم، ولا يطلبون النصر عليه؛ لعلمهم بأن الله تعالى يكره منهم ذلك، وأن طلب النصر على الظالم من الشهوة الخفية.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يدخلون المساجد بنية النوم والاستراحة، ولا يُخْرِجون فيها ريحاً إلا لعذر، ولا يتحدثون فيها بشيء من أمر الدنيا، ولا يمدُّون فيها أرجلهم، ولا يرفعون فيها أصواتهم.

ومن آدابهم: لا يقولون ليد النبي ﷺ يساراً وإنما يقولون: اليمين الأول واليمين الثاني، أو يمين وجهه ويمين خلفه، ولا يذكرون اسمه الشريف إلا مع مصاحبة لفظ السيادة في جميع المواطن، غير تلاوة وأذان، ومعلوم أن

تعظيم النبي ﷺ مفروض على الأمة، وذكر اسمه الشريف بغير لفظ السيادة منافٍ للتعظيم، وفيه من إساءة الأدب، وقلّة [٣١/أ] الحياء، ما لا يخفى على كل ذي نور.

ومن آدابهم: لا يقولون مثلاً الفاتحة للنبي ﷺ، واجعل اللهم ثواب كذا وكذا في صحائف رسول الله ﷺ؛ فإن أعمال الأمة له أصالة.

ومن آدابهم: محبَّة إخوانهم المسلمين محبَّة أخوة وإيمان، لا محبَّة طبع وإحسان.

ومن وصية سيدي عبد القادر الجيلي: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبَّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت مكروهة فيهما فاكرهه، وإن كانت محبوبة فيهما فأحببه؛ لئلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١). وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة أن حقيقة الحبِّ في الله ألاَّ يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

ومن آدابهم: حفظ الود لمن أكلوا عنده خبزاً، أو ذاقوا عنده ملحاً.

وذكر سيدي علي الخواص رحمه الله أن ذلك كان من أخلاق اللصوص أيام السلطان قايتباي، وحكى من وقائع الشاطر حمور - كبير اللصوص -: أنه دخل مرة على تاجر بجوار جامع الغمري بمصر هو وجماعته، حتى وقفوا على رأسه، وأخذوا يفتشون في البيت، فاستيقظ التاجر، فرأى اللصوص واقفين على رأسه، فقال له حمور: لا تخف على نفسك يا خواجا [٣١/ب]، الصبيان إنما يطلبون منك الغداء فقط، فقال: كم أنتم؟ فقال: عشرة، فقام وأتى لهم بألف دينار، وزاده من ورائهم أربعمئة دينار، فقال له حمور: شكر الله فضلك يا خواجا، ما كان أملنا فيك هذا كله، فوضع كل واحد نصيبه في جيبه، ورأى واحد منهم حِقّا أبيض يضيء على رفٍّ بالبيت،

---

(١) سورة ص، الآية (٢٦).

فأخذه، وحدثته نفسه - وهو خارج في دهليز البيت - أن يفتحه، وينظر ما فيه، ففتحه، فرأى فيه شيئاً ناعماً فذاقه فقال: ملح! فسمعه حمور؛ فقال: ردوا ما معكم؛ فإن صاحبكم ذاق ملح هذا الخواجا، ما بقي يرى منا سوءاً مدة حياتنا، فردوا المال كله، فأقسم عليهم الخواجا أن يأخذوا مئة دينار فأبوا.

ومن آدابهم: هجر السارق والخائن، وإخراجهما من بينهم، والفرق بين السارق والخائن، أن الخائن: هو من يسرق ما اؤتمن عليه، والسارق: هو من يسرق ما لا يؤتمن عليه، وقد قالوا: إن الخيانة تذهب البركة من مال الإنسان وعمره، وكذلك القول في السرقة، فما وجدنا قط سارقاً إلا والبركة ممحوقة من ماله وعمره.

وكذلك من آدابهم: هجر الكذاب. قالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذاب، كان يهجر الرجل على الكلمة من الكذب الشهرين والثلاثة.

ومن آدابهم: تقديم مَنْ مروءته من حيث نفسه، وميزان ذلك النظر في [٣٢/أ] أمر العبد، فمَنْ كان إقدامه على الأهوال في دين الله وفي غير دين الله على حد سواء فذلك من المروءة النفسانية، ومن كان إقدامه على الأهوال في دين الله فقط فذلك من المروءة الإيمانية.

وكذلك من آدابهم: تقديم الفقيه الصِّرف على الفقيه المتفعل في الطريق؛ لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذي يقع فيه المتفعل، مع زيادته عليه بالعلوم الشرعية، بل العامي الذي يعبد الله تعالى، ويسأل العلماء عمَّا أشكل عليه في دينه أحسن حالاً من المتفعل في طريق القوم.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يخرجون لزيارة أحد حتى يتخلقوا بآداب الزيارة،

وهي: الشوق إلى المزور، والجزم بفضله وطهارته عن المعاصي المعنوية والحسية، وهم بعكس ذلك، والتماس بركة دعائه ولحظه، وتحرير النية بأن يكون الباعث على الزيارة امتثال الأمر لا غير ذلك، وحفظ اللسان من الوقوع في أعراض الناس، وترك ذكر المحاسن، وهذا يشترك فيهما الزائر والمزور، فإن خلت الزيارة من هذه الآداب فلا نفع بها ولا ثواب، بل هي تكلُّف ونفاق، ثم لا يخفى أنه يجب على الزائر إذا ذكر المزور شيئاً من محاسنه أن يعتقد أنه ما ذكر ذلك إلا لغرض شرعي.

ومن آدابهم: إعطاء الخبز حقَّه من الإكرام والتعظيم والتقبيل، ووضعه [٣٢/ب] على العين.

ومن كلام سيدي علي الخواص: إياكم أن تضعوا الخبز على الأرض من غير حائل؛ فإن فيه احتقاراً لنعمة الله عز وجل.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ مرة، فرأى كسرة يابسة في جدار وقد علاها الغبار، فأخذها رسول الله ﷺ، وقبَّلها، ووضعها على عينه، ثم قال: **«يا عائشة! أحسني مجاورة نعم الله؛ فإن النعمة قلَّما نفرت من أهل بيت فكادت ترجع إليهم»**(١).

ومن كلام سيدي أحمد بن الرفاعي: قلة إكرام الخبز كفر بنعمة المنعم، فاجتهدوا في إكرامه ما استطعتم، والتقطوا ما يسقط عند سقوطه، ولا تتركوه إلى آخر الطعام؛ فإن تعظيم نعمة الله من تعظيم الله، وما ابتلي قوم بالغلاء حتى أهانوا الحبَّ لرخصه.

وفي بعض الآثار: أن القرص لا يؤكل حتى يتداوله ثلاث مئة وستون مخلوقاً أولهم ميكائيل، وآخرهم الفرّان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥٣).

قال: ويكفينا في تعظيم الخبز أن رسول الله ﷺ جعله عديلاً لرؤية الله في حديث: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»(١).

ومن آدابهم: إذا فرغوا من أكل ما قُدِّم لهم يقولون: الحمد لله ربِّ العالمين على كل حال، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتعم البركات، ويقرؤون سورة قريش، وسورة الإخلاص.

ومن آدابهم: إذا أكلوا عند أحد لم يخرجوا من [٣٣/أ] عنده حتى يشربوا، وقد قالوا: مِنْ بخل الصوفي أن يأكل ولا يشرب.

ومن آدابهم: - إذا أكلوا - مواساةُ مَنْ حَضَر من ذلك المأكول.

ومن كلام سيدي علي الخواص: إذا أكلت طعاماً فأطعم منه مَنْ حضر إن أردت دوام النعمة عليك، ومَنْ أكل وعين تنظر إليه ولم يُطْعِمْها ابتلاه الله بداءٍ يسمى النفس.

ومن آدابهم: تعظيم حقوق الوالدين خوفاً من الوقوع في إساءة الأدب معهما، أو في العقوق لهما، وليس للعقوق ضابط في الشرع، إنما هو عام في سائر ما يخالف غرض الوالدين من جميع المباحات، وليس بعد حقّ الله تعالى وحقّ رسوله ﷺ أعظم من حقّ الوالدين.

ومن كلام سيدي علي الخواص: من حقّ والديك عليك: أن تسمع كلامهما، وتقوم لقيامهما، وتمتثل أمرهما، ولا تمشي أمامهما، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، وتخفض جناحك لهما، ولا تمنّ عليهما بالبر لهما، ولا بالقيام بأمرهما، ولا تنظر إليهما شزراً، ولا تغضب في وجههما، ولا تسبقهما إلى أطيب الطعام إذا أكلت معهما، بل آثرهما على نفسك، واحرص على تحصيل مرضاتهما.

وحق الوالدة ضعفي حقّ الوالد العرفي، أما والد الدين: فربما كان أجلّ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٩٤)، ومسلم (١١٥١).

مقاماً وحقاً من الوالدة، ومن حقهما ألا تدعوهما باسمهما؛ فمن دعا أحداً من والديه باسمه صار عاقاً له.

ومن آدابهم: محبتهم لعيالهم محبة شرعية، لا محبة الزوجات الطبعية؛ فإن المحبة الطبعية [٣٣/ب] شهوة نفس، ما دام العبد فيها فهو في حجب عن الله تعالى.

واعلم أنَّ الله تعالى حبَّب إلينا النساء بحكم الطبع، ثم أمرنا بمجاهدة النفس حتى تخرج من محبتها الطبعية إلى محبتها الشرعية، وقلَّ من يصبر على مجاهدة نفسه حتى تخرج من ذلك، ومن هنا حذر الأشياخ من تزويج المرأة الحسناء؛ لأن ضررها أكثر من ضرر الشوهاء.

ومن كلام سيدي أفضل الدين: من أكثر من مجالسة النساء فسد عقله، وفاتته الفضائل، وامتنع الحق تعالى من دخول قلبه، وباض الشيطان فيه وفرّخ.

ومن آدابهم: تعظيم كل فقير خامل الذكر مع الاستقامة، أكثر من الفقير المشهور بالكرامات؛ لأن الدنيا ليست بدار نتائج، وإنما هي دار تكليف.

ومن آدابهم: لا يصرُّون على ذنب؛ فإن الإصرار من المهلكات، وتصير الصغيرة به كبيرة، وقد حدَّ بعض الأشياخ الإصرار بأن يؤخِّر الشخص التوبة حتى يدخل عليه وقت صلاة أخرى من الخمس.

ومن آدابهم: في سوء ظن بأحد أو غيبة ولم يعلم بها صاحبها، أن يقرأ أمَّ القرآن وسورة الإخلاص، والمعوذتين، ويهدون ثواب ذلك في صحائف من أساؤوا به الظن، أو اغتابوه.

وكيفية الإهداء أن تقول: اللهم صلِّ وسلم على نبيك وحبيبك سيدنا محمد وآله، وأثبني على ما قرأته واجعله في صحائف عبدك فلان.

تنبيه:

ينبغي لمن يعلم من نفسه أن عليه للناس حقوقاً في المال والعرض، وتعذر رضاهم أن يقرأ [٣٤/أ] مع حضور: سورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة، والمعوذتين، كل ليلة، ويهدي ثوابهنَّ في صحائف أولئك الناس، وكيفية الإهداء أن يقول: اللهم صلِّ وسلم على نبيك وحبيبك سيدنا محمد وآله، وأثبني على ما قرأته، واجعله في صحائف من له عليَّ تبعة من عبادك، من مال وعِرْض.

ومن آدابهم: إذا أراد أحدهم [أن] يتداين أن يتوجه بقلبه إلى الله تعالى ويقولَ بلسانه: اللهم عليك التداين، فخذ بيدي صدقة من صدقاتك عليّ.

ومن آدابهم: محبتهم لعترة رسول الله ﷺ ولو كانوا على غير قدم الاستقامة؛ لأنهم جزء منه ﷺ، وللجزء في المودة والإجلال والتوقير نحو ما للكل.

وقد قال بعض العلماء: من حقوق الشرفاء علينا - وإن بَعُدوا في النسب - أن نؤثر رضاهم على أهوائنا وشهواتنا، ونعظِّمهم ونوقرهم، ولا نجلس على سرير وهم على الأرض، لسريان لحم رسول الله ﷺ ودمه فيهم.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من حقِّ الشرفاء علينا أن نفديهم بأرواحنا، وأن نصطنع الأيدي معهم؛ لمكانهم من رسول الله ﷺ، ومن الأدب ألاَّ يتزوج أحدنا شريفة إلا إن عرف من نفسه أنه يكون تحت حكمها وإشارتها، ويقدم لها نعلها، ويقوم لها إذا وردت عليه، ولا يقتِّر عليها في المعيشة إلا إن [٣٤/ب] اختارت ذلك.

ومن آدابهم: لا يغفلون عن زيارة أهل البيت.

وقد صحح أهل الكشف أن السيدة زينب رضي الله عنها ابنة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هي المدفونة بقناطر السباع بلا شك، وأن

أختها السيدة رقية رضي الله عنها في المشهد القريب من دار الخليفة أمير المؤمنين، بالقرب من جامع ابن طولون، ومعها جماعة من أهل البيت، وأن السيدة سكينة رضي الله عنها ابنة السيد الحسين رضي الله عنه في الزاوية التي عند الدرب، قريباً من مشهد عمتها ومن دار الخليفة، وأن السيدة نفيسة رضي الله عنها في هذا المكان بلا شك، وأن السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق رضي الله عنهما في المسجد الذي له المنارة القصيرة، على يسار من يريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة، وأن رأس السيد الحسين رضي الله عنه في القبر المعروف بالمشهد، قريباً من خان الخليلي بلا شك، وضعها طلاع بن ذرية نائب مصر في هذا الموضع في كيس أخضر من حرير أخضر على كرسي من خشب الأبنوس، وفرش تحتها المسك والطيب، ومشى معها هو وعسكره لما جاءت من بلاد العجم حفاةً، من ناحية قطية إلى مصر، وأن السيد محمداً الأنور عم السيدة نفيسة رضي الله عنه في المشهد القريب من جامع ابن طولون، مما يلي دار الخليفة [٣٥/أ] في الزاوية التي هناك، ينزل إليها بدرج، وأن أخاه السيد الحسن والد السيدة نفيسة في التربة المشهورة القريبة من جامع عمرو.

وأن رأس الإمام زين العابدين، وأن رأس السيد زيد في القبة التي بين الأثر قريباً من مجراة القلعة، وأن رأس السيد إبراهيم بن السيد زيد في المسجد الخارج من ناحية المطرية، مما يلي الخانقة، وهو الذي اختفى من أجله الإمام مالك.

هذا ما حضرني في هذا الوقت من المدفونين في مصر من أهل البيت، فعليك - يا أخي - بزيارتهم وقدِّمها على زيارة كل ولي في مصر، عكس ما عليه العامة، فقلَّ أن ترى أحداً منهم يعتني بزيارة أحد ممن ذُكِر كاعتنائه بزيارة بعض المجاذيب، وهذا من جملة الجهل.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يميلون إلى شيء من أحوالهم.

ومن كلام سيدي إبراهيم المتبولي: أكثر ما يخاف المؤمن ميل نفسه إلى أعماله الصالحة على وجه اعتقاد الإخلاص فيها، ولو كشفاً وذوقاً.

ومن كلام سيدي علي الخواص: لا تفرحوا بما تُعْطَونه من الكرامات والأحوال والعلوم والمعارف حتى يكشف لكم الغطاء، هل هي بطريق الاستحقاق لكم أو بطريق الوعد؟ فإن العطايا التي بطريق الوعد لا ينبغي لعاقل أن يفرح بها، إلا إن كانت قطعية، وما معكم شيء إلا بطريق الوعد وحسن الظن فقط.

ومن آدابهم: [أنهم] يشهدون الكمال في صاحبهم، والنقص في أنفسهم، ومن شهد ذلك كره العزلة عن الناس إلا لغرض شرعي آخر، كأن يخشى أن يحصل لهم منه شيء يتضرَّرون به.

ومن آدابهم: [أنهم] يشهدون على الدوام أن الله تعالى أرحم بهم منهم، وكذلك لا يقع منهم قنوط من رحمة الله تعالى في وقت من الأوقات.

ومن آدابهم: يتحفظون من التعصب [٣٥/ب] في محبتهم لأحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو لأولادهم إذ الواجب على كل أحد أن يحب أصحاب رسول الله ﷺ تبعاً لحب رسول الله ﷺ، ويحب أولادهم كذلك، ويقدم أولاد السيدة فاطمة رضي الله عنها على أولاد سائر الصحابة.

وذكر الشيخ عبد الغفار القوصي أنه كان له صاحب من أكابر العلماء، فمات فرآه بعد موته، فسأله عن دين الإسلام، فتلجلج في الجواب، قال: فقلت له: أما هو حق؟ فقال: نعم؛ هو حق، فنظرت إلى وجهه فإذا هو أسود كالزفت، وكان رجلاً أبيض، فقلت له: إن كان دين الإسلام حقاً فما سواد وجهك؟ فقال بخفض صوت: كنت أقدم بعض الصحابة على بعض بالهوى والعصبية.

ومن آدابهم: [أنهم] يعتنون بإفادة كل جليس معهم وإن لم يكن معتنياً بالفائدة، وكان بعضهم لا يُجلس أحد معه إلا ذكر هو وإياه مجلس ذكر، ثم يصرفه بعد ذلك، ويقول: من لم يصلح لإفادة العلوم يصلح لذكر الله.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يزورون أحداً، ولا يأكلون من طعامه إلا إن علموا أنه كثير التوقيف عما بأيدي أهل زمانه، ذو حرص على خميرة العجين.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يبادرون إلى إجابة من طلب أن يكون مريداً تحت إشارتهم وتربيتهم، وقد قالوا في الزمن السابق: إنْ صحَّ للشيخ في عمره كله مريد واحد صادق فهو أعز من الكبريت الأحمر.

وصفات المريد الصادق على وجه الاختصار أربعة:

الأولى: صدقه في محبة الشيخ.

الثانية: امتثال أمره.

الثالثة: ترك الاعتراض عليه.

الرابعة: سلب الاختيار معه.

فكل مريد جمع هذه الأربع فقد صحت قاسميته، وصار كالحرَّاق [٣٦/أ] الناشف إلى الزناد، ومن طلب من المريدين أخذ العهد عليه، وحرَّاقه مبلول، فلا تعلق فيه شرارة الزناد، بل كل شرارة وقعت عليه طفئت.

ومن آدابهم: [أنهم] يتهمون نفوسهم في المواظبة على الخير، ومجالس الذكر، فقلَّ من يواظب على خير ويجده الناس عليه، ويسلم من الآفات.

ومن شأن النفس إذا ألفت التعظيم لأجل عبادتها أن يشق عليها تركها؛ لا لأجل مجالسة الحقّ تعالى فيها، فليمتحن السالك نفسه إن رأى عندها استحياء إذا ترك إظهار تلك العبادة، فليعلم أنها كلها رياء، ويجب عليه التوبة والاستغفار، وإن رآها ليس عندها استحياء فليشكر الله الذي نجاه، ثم لا يأمن.

وقد وقع لبعض السلف أنه صلى الصلوات الخمس في الصف الأول، فتخلف يوماً، فوجد في نفسه خجلاً، فأعاد تلك الصلوات كلها، وقال: إنما كانت مواظبتي رياء وسمعة.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمة الله عليه: كل من وجد في نفسه خجلاً إذا ترك إظهار ورده في القرآن الكريم أو الصوم أو الزهد أو الصمت فأعماله كلها رياء وسمعة، لا يجد في صحيفته منها شيئاً يوم القيامة.

ومن كلام سيدي علي المرصفي: لا يليق بفقير أن يجمع الناس على مجلس ذكر إلا إن كان قد خرج عن حبِّ الرئاسة، وإلا أهلك نفسَهُ، وقد أدركت الفقراء وما يتجرأ أحد أن يجلس مع جماعة في مجلس ذكر إلا بعد موت شيخه، أو إذنِهِ له، بعد أن شهد له الكمال.

ومن آدابهم: [أن] لا يستلذ أحدهم بما يحصل له من صورة الخشوع والرعدة، وضم الأكتاف، وإطراق الرأس إلى الأرض، ولا يسامح نفسه في ذلك إلا إن كان مغلوباً.

وقد [٣٦/ ب] رأى الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يصلي وقد ضم كتفيه، فضربه، وقال له: ليس الخشوع هكذا، إنما الخشوع في القلب. انتهى.

فَفِرَّ - يا أخي - من الوقوع في مثل ذلك، وإن رأيت أحداً فعل ذلك، فاحمله على أنه مغلوب.

ومن آدابهم: [أنهم] يغضبون باطناً على كل من ادعى عندهم دعاوى كاذبة، ويباسطونه ظاهراً ثم يُعْلِمونه سراً بكذبه إن رأوا نفسه تحتمل مثل ذلك، وفي هذا الأدب جمع بين الغيرة لله والنصح لذلك العبد، وقلَّ من يجمع بين هذين الشيئين.

ومن آدابهم: طلب كل ما يحتاجون إليه من باب الله تعالى، دون باب

أحد من عبيده، ولا ينظرون إلى باب غيره، إلا من حيث كونُ الخلق كالقناة التي يجري فيها الماء لا غير، فالفضل لمن أجرى الماء في القناة، لا للقناة.

ومن كلام سيدي عبد القادر الجيلي: تعامَ - يا أخي - عن الجهات حال طلبك حاجة من ربك يفتحْ لك باب فضله، وإلا فلا يفتح لك باب فضله؛ لأنه تعالى غيور.

ومن لم يصل إلى ذلك فمن لازمه الاعتماد على الأسباب والوقوف معها، وعدم شكر الوسائط امتثالاً للأمر، وذلك شرك.

وإياك أن تحذف واسطة رسول الله ﷺ في كل حاجة طلبتها؛ فإن ذلك من سوء الأدب معه ﷺ، وتكون إذ ذاك مبتدعاً لا متبعاً، فافهم.

ومن آدابهم: إذا كانوا يقرؤون القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، وأرادوا أن يكلموا إنساناً في حاجة فلا يكلمونه حتى يستأذنوا الله تعالى ورسوله ﷺ بقلبهم ولسانهم أن يكلموا ذلك الإنسان، ثم إن غفلوا عن الاستئذان، وكلَّموا أحداً استغفروا [٣٧/أ] الله تعالى حتى يلقي الله تعالى في قلبهم أنه قبِل استغفارهم.

وقد وقع للشيخ أفضل الدين أنه كلَّم إنساناً وهو يقرأ في الحديث قبل أن يستأذن النبي ﷺ، فاستغفر الله تعالى سبعين مرة.

ومن آدابهم: لا يشتغلون حال الأذان بشيء أدباً مع الله تعالى.

وقد حكى بعضهم عن امرأة من الباغيات، أنها رئيت في هيئة حسنة لما توفيت، فقيل لها: كيف ذلك؟ فقالت: أذن المؤذن مرة وكنا فيما لا ينبغي من رفع الصوت، فأمرت رفقتي بالسكوت حتى فرغ المؤذن، فغفر الله لنا بذلك.

ومن آدابهم: إذا وجعتهم أرجلهم من القرفصة، لا يمدونها حتى يستأذنوا الله تعالى، وكذلك الحكم في مدِّها نحو المدينة الشريفة، أو نحو ولي من الأولياء، لا يمدونها حتى يستأذنوا النبي ﷺ أو ذلك الولي، كل ذلك

لشهودهم أنهم بين يدي الله تعالى، وبين يدي رسوله ﷺ على الدوام، شعروا بذلك أو لم يشعروا، وإن لم يكن ذلك كشفاً كان إيماناً.

وقد وقع لأبي إسحاق إبراهيم بن أدهم أنه مدَّ رجله حين وجعته من القرفصة قبل أن يستأذن؛ فعوتب في ذلك، فلم يمدَّ رجله بعد ذلك إلى أن مات.

وكذلك وقع لأبي محمد الجريري أنه مدَّ رجله قبل أن يستأذن، فعوتب في ذلك فلم يمدَّ رجله إلى أن مات.

ومن آدابهم: مواظبتهم على الاستغفار ثلاثاً، وعلى قراءة القرآن، وآية الكرسي، وآخر سورة الكهف، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾[١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[٢]، والمعوذتين عند النوم، وعلى التسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد ثلاثاً وثلاثين، والتكبير أربعاً وثلاثين، لخبر أبي داود والترمذي: **«خصلتان لا يحصيهما عبد إلا دخل الجنة وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل، يسبح الله دبر كل [٣٧/ب] صلاة عشراً، ويحمده عشراً، ويكبره عشراً، فتلك مئة وخمسون باللسان، وألف وخمس مئة في الميزان، وإذا أوى إلى فراشه يسبح ثلاثاً وثلاثين، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويكبر أربعاً وثلاثين، فتلك مئة باللسان، وألف في الميزان، وأيكم يعمل في يومه وليلته ألفين وخمس مئة سيئة؟ قيل: يا رسول الله كيف لا يحصيهما؟ فقال: يأتي أحدكم الشيطان، وهو في صلاته فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، أو يأتيه عند منامه فينوّمه»**[٣].

ومن آدابهم: شدة كراهتهم النوم على حدث أكبر أو حدث أصغر.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: إياك أن تنام على حدث ظاهر

---

(١) سورة الكافرون، الآية (١).

(٢) سورة الإخلاص، الآية (١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٠١)، والترمذي (٣٤١٠).

أو باطن من محبة الدنيا وشهواتها؛ فربما أخذ الله تعالى روحك تلك الليلة، فتلقى الله تعالى وهو عليك غضبان، بحسب قبح ذلك الذنب الذي نمت عليه.

وفي الحديث: «**يحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»(١) وفي الحديث أيضاً: «**أن الله منذ خلق الدنيا لم ينظر إليها**»(٢) أي نظر رضا عنها، وعن محبتها وإلا فهو تعالى ينظر إليها نظر تدبير، ولولا ذلك لذهبت في علم الله تعالى، ولم يبقَ لها وجود، فافهم.

فمن نام على محبة الدنيا، ومات في تلك الليلة حشر مع مبغوض لله تعالى، لم ينظر إليه منذ خلقه، فهذا الأمر قلَّ من ينتبه له في هذا الزمان حتى يتوب منه، بل غالب الناس لا يعد محبة الدنيا ذنباً.

وقد كان مالك بن دينار يجمع أصحابه ويقول لهم: تعالوا نستغفر من الذنب الذي أغفله الناس، وهو حب الدنيا.

ومن آدابهم: العمل على تصفية صدورهم من الغشِّ؛ ليصلحوا لدخول الحضرة الإلهية التي هي أشرف وأفضل من الجنة، فإن دخولها محرَّم على مَنْ في قلبه غشٌ لأحد من الخلق.

وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله [٣٨/أ] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا بني! إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال: يا بني! وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة**»(٣).

وقال الشيوخ: مقاساة الجوع والصبرُ عليه سهل، ومعالجة الأخلاق والتنقي من سفسافها صعب شديد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨٢٠١).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٦٧٨).

والمراد بالغش: الغل والحقد والبغض والحسد وسوء الظن، ولا يقدر على تصفية صدره من هذه المذمومات إلا من زهد في الدنيا وفي الرئاسة؛ فإن منبع ذلك من حبِّ الدنيا، ومن حبِّ الرئاسة، ومن هنا ظهر فضل الصوفية وكمال شرفهم على غيرهم، لزهدهم في الدنيا، وفي محبة الرفعة عند أهلها، ولاستمساكهم من التقوى بأوثق العرى، فعلم أن من زهد في الدنيا، واستمسك بالتقوى صارت نفسه مأمونة الغائلة من الغل والحقد والبغض والحسد، وسائر المذمومات، فهذا حال الصوفي.

وقال بعضهم: مجمع حال الصوفية أمران، هما وصف الصوفية، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1]. فقوم من الصوفية خُصُّوا بالاجتباء الصِّرف، وقوم منهم خُصُّوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة، فالاجتباء المحض غير معلَّل بكسب العبد، وهذا حال المحجوب المراد، يناديه الحقّ سبحانه بمِنَحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه، يسبق كشفُه اجتهادَه.

وأما أهل الهداية الذين شرط الحقُّ سبحانه وتعالى لهم الإنابة فقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2] فقد طُولِبوا بالاجتهاد، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[3] يُدَرِّجهم الله في مدارج الكسب [٣٨/ ب] بأنواع الرياضات والمجاهدات، وسهر الدياجر وظمأ الهواجر، يتقلبون في رمضاء الإرادة، ويخرجون عن كل مألوف وعادة، وهي الإنابة التي شرطها الحقُّ سبحانه لهم، وجعل الهداية معروفة بها، وهذه الهداية أيضاً هداية خاصة؛ لأنها هداية إليه سبحانه غير الهداية العامة، التي هي التهدِّي إلى أمره ونهيه،

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٣).
(٢) سورة الشورى، الآية (١٣).
(٣) سورة العنكبوت، الآية (٦٩).

بمقتضى المعرفة الأولية، وهذا حال المحب السالك الذي سبق اجتهاده كشفه، وهذا أثمر وأكمل من الأول.

ومن آدابهم: [أنهم] يفتتحون قيام الليل بركعتين خفيفتين، يقرؤون في الأولى بعد الفاتحة بآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١).

وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾(٢).

وقد حُبِّب لي أن أقول بقلبي ولساني بعد السلام: يا سيدي! يا رسول الله! استَغْفِر لي ربَّك، صلى الله عليك وسلم - ثلاث مرات أو أكثر - اللهم عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي صدقة من صدقاتك عليَّ يا أرحم الراحمين ثلاث مرات أو أكثر.

واعلم أن الفقراء يكرهون النوم في الثلث الأخير من الليل أشد من كراهتهم للمعاصي الظاهرة، وقد مكث ابن المؤذن بناحية منية أبي عبد الله أربعين سنة، لا يضع جنبه [على] الأرضَ بالليل، فكان سيدي محمد السروي يقول: هنيئاً لابن المؤذن، لم يدع مدداً ينزل من السماء في الليل إلا وله فيه نصيب.

ومن آدابهم: كثرة ثنائهم على الله تعالى إذا نزل بهم ما يسوؤهم عادة؛ لعلمهم بأن تقديراته تعالى على عباده عين الحكمة لا بالحكمة، لأنها لو كانت بالحكمة لكانت أفعاله تعالى معلولة تحت حكم الحكمة، ومن هنا كان لا يجوز السخط على شيء من أفعاله أبداً، ومن سخط فهو [٣٩/أ] جاهل، ولو كشف للعبد عن ما أعد الله له في نظير صبره على البلايا في الجسد أو المال

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٤).

(٢) سورة النساء، الآية (١١٠).

أو الولد لكان هو يسأل الله تعالى في نزول ذلك به، وأيضاً: فإن كل واقع في الوجود بالإرادة الإلهية، وسبقُ علمٍ لا يصحُّ تغييره، والرضا به واجب.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يتداوون من مرض إلا إن اشتدَّ، بحيث يشغلهم بالالتفات إليه عن كمال الحضور مع الله تعالى، وما دام أحدهم يتيسر له الحضور النسبي في عبادته فلا يتداوى.

ثم لا بدَّ مع التداوي بشرطه من مراعاة نية التداوي، وذلك بأنْ تداوى قياماً بواجب حقِّ أَمَةِ الله تعالى؛ إذ الحقّ تعالى هو المالك للجسم، والعارف إنما يتداوى لأجل كون ذاته أَمَةَ الله تعالى لا لنفسه هو، ففرقٌ بين مَنْ تداوى قياماً بواجب حقِّ ربِّه وبين من تداوى قياماً بحقِّ واجب نفسه، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾(١)، ونظير ذلك محبتهم العفو من قبل الحقِّ سبحانه وتعالى فلولا علمهم بمحبته تعالى له ما طلبوه منه، فافهم.

ومن آدابهم: شدة كراهتهم لمناجاة الحقِّ تعالى إذا تلطخ ثوب [أحدهم] أو بدنه بنجاسة ولو من حصول مرض؛ تعظيماً لمناجاة الحقِّ تعالى، لا سيما إنْ حصل لأحدهم إدرار بول ومشي بطن، فمَنْ ناجى الله تعالى في حال تقذّر بدنه أو ثوبه فهو خارج عن أدب الأكابر.

ومن هنا اتخذ الأكابر السجادات النفيسة في الصلاة؛ تعظيماً لحضرة خطاب الله تعالى، وخوفاً أن يدوس أحد برجله في محل تخيلوا فيه وجود قرب الحقِّ تعالى [٣٩/ب]، لا لعلة أخرى من علل النفوس.

ومن آدابهم: إذا استشارهم أحد في الأخذ عن أحد من مشايخ الزمان أن ينصحوه ولا يغشوه، فيقولون له: إن أردت الطريق فعليك بفلان، وإياك والاجتماع بفلان، لكن يكون ذلك القول سرّاً؛ لئلا يتولد من ذلك مفسدة، ويكون بحق، وإلا كان غشاً لعباد الله، وطريق الحقّ في ذلك أن يكون ذلك

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٤٣).

الشيخ ناقصاً، لا قَدم له في الطريق، وأن ذلك المريد لا نصيب له عند ذلك الشيخ.

وكان سيدي علي الخواص لا يذكر أحداً بسوء، ومع ذلك فكان يقول لأصحابه كثيراً: إياكم والاجتماع بالشيخ الفلاني؛ فإنه جلس بنفسه من غير إذن شيخ، فيصرح باسمه ولا يكني عنه؛ نصحاً للمسلمين، وكان يقول: من لم يجد في عصره شيخاً صادقاً ناصحاً يربيه فحسبه محبة الله تعالى، ومحبة رسول الله ﷺ، وحسن الاعتقاد، والرضا بالإقامة في الأسباب بنية نفع العباد، ونفع نفسه.

وإذا اجتمعتم بأحد من مشايخ هذا العصر الذين جلسوا بأنفسهم، وزلَّ بكم القدم فإياكم ونسبته إلى القطبية، ولا تزيدوا على وصفه بسيدي فلان، وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا آنافكم، وتطأطئوا رقابكم، بل كونوا كما كنتم من قبل اجتماعكم عليه، ومن فعل ذلك مع إخوانه حصل بينه وبينهم ما لا خير فيه من التقاطع والتدابر والتباغض، ويصيرون كأنهم في دين وهو في دين، وما نهى الأشياخ المريد أول توبته عن مخالطة [٤٠/أ] إخوان السوء إلا خوفاً عليه أن يرجع إلى فعل ما كان تاب منه بمخالطتهم.

ومن آدابهم: [أنهم] يندمون إذا أتوا شيئاً من المنهيات، أكثر ما يندمون إذا فاتهم شيءٌ من المأمورات.

وقد قالوا: مقام الصدِّيقيَّة أكمل وأرفع من مقام الشهادة.

والصديقية في اصطلاحهم: اسم لترك المناهي، والشهادة: اسم لالتزام الأوامر.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يشتغلون بالرياضة والخلوة طلباً لحصول الولاية.

وكان سيدي علي الخواص يقول: حكم هؤلاء الأشياخ الذين يأخذون

العهد على المريدين بالجوع والرياضة ليصيروا أولياء، حكم من أراد أن يجعل شجرة أم غيلان تطرح عنباً، أو شجر الجميز يصير تفاحاً، وذلك لا يصح له أبداً.

واختلى شخص، وأَكْثَرَ من الذكر، وبالغ في الجوع طلباً للولاية، فذهب إليه وقال له: يا مبارك الحال! اخرج من الخلوة، وما قُسِم لك لا بدَّ من حصوله، والولاية الخاصة لا تنال بعمل، وليس لها طريق ظاهر تطلب منه، إنما هي أخذة تأخذ العبد على أي حالة كان، فتقلب عينه ولياً خالصاً في أسرع من لمح البصر، وهي مرتبة مخصوصة لأقوام مخصوصين، على عدد مخصوص، لكن العدد بالمراتب لا بالأشخاص؛ فقد يكون في المرتبة الواحدة شخصان أو أربعة أو أكثر، وقد يكون في المرتبتين واحد، وقد يكون الرجلان بمنزلة الرجل الواحد، وأما الولاية العامة: فقد تنال بعمل كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»(١).

فما حصلت محبة الحقِّ تعالى لهذا العبد إلا بعد تَفَعُّل، وذلك معلول عند الخواص، محمود عند غيرهم؛ لعدم من يرشدهم إلى تحقيق الأمر في طريق الخواص.

فاخرج - يا أخي - من الخلوة، وتب إلى الله تعالى، واطلب بأعمالك تحصيل [٤٠/ب] مقام الصديقية والشهادة لا تَحَصُّل مقام الولاية، فأبى، فمات بعد يومين.

ومن كلام سيدي أفضل الدين: المتأهلون في أيام الفترات أحسن حالاً من هؤلاء الذين يدخلون الخلوة في هذا الزمان؛ فإن هؤلاء اشترطوا في التخلي شروطاً لم يشترطها المتأهلون من الجوع المفرط، وعدم الكلام، وعدم النوم، وغير ذلك، مما أضعفت أبدانهم، وكثرت به تخيلاتهم، وفسدت

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢).

به عقائدهم، حين ظهر لهم ما ظهر من النور والظلمة، ومن الصور الحسنة والمهولة، من كلاب وحيّات وغيرها، مما هو كامن في طبع الإنسان؛ فإن جسده هو النسخة الجامعة لما في العالم العلوي والسفلي.

ثم لا يخفى أن ما ذكرناه من ذمّ الخلوة إنما هو في حقّ من يطلب بخلوته أمراً دنيوياً، أما من يطلب بها صفاء المعاملة مع الله تعالى في المأمورات الشرعية فهذا لا بأس به.

ومن آدابهم: رؤية نفوسهم في كل مجلس جلسوا فيه مع المسلمين - لا سيما الفقراء - أنهم أكثرهم ذنوباً.

وقد حُبّبَ إليَّ أن أقول في كل مجلس جلست فيه مع المسلمين: اللهم إني اعترفت بين يديك بأني أكثر هؤلاء ذنوباً، وأقلهم حياء، وأسوؤهم أدباً، فبحقِّ أسمائهم الظاهرة اغفر لي.

ومن آدابهم: إذا أرادوا [أن] يأمروا أحداً بخير أن يُحَرِّروا نيتهم؛ فربما كان في ذلك علة تقدح في الإخلاص، فليمتحن مدعي الإخلاص نفسه، بما لو تفرقت جماعته إلى شخص من أقرانه، فإن حصل عنده تأثير فأمره ودعاؤه لحظّ نفسه، لا امتثالاً لأمر الله تعالى.

ولذلك كان لا يتصدر للدعاء إلى الله تعالى في كل عصر سبق إلا [٤١/أ] أكابر الأولياء الذين خرجوا من حظوظ النفوس، وأما أمثالنا فإنْ تَصَدَّر ربما أهلك نفسه وأتباعه.

ومن آدابهم: ردُّ كل ما يأتيهم من مال الولاة؛ لأنه مخلوط بالحرام والشبهات.

ومن آدابهم: [أنهم] لا يأكلون للمفتقد طعاماً.

ومن كلام سيدي إبراهيم المتبولي: لا ينبغي لفقير أن يأكل من طعام أحد إلا إن كان بحيث لو أخبره بجميع زلاته السابقة التي عملها بينه وبين الله تعالى لم يتغير اعتقاده عليه، وإلا حَرُم عليه الأكل.

ومن آدابهم: إذا أكلوا عند أحد أو شربوا أن يقولوا: اللهم إن كان ما أكلناه عند عبدك أو شربناه حلالاً فوسِّع عليه، واجزه خيراً، وإن كان حراماً أو شبهة فاغفر لنا وله، وأرضِ عنا أصحاب التبعات يوم القيامة، صدقة من صدقاتك علينا يا أرحم الراحمين.

ومن آدابهم: إذا أرادوا الدخول في عمل من الأعمال الصالحة يقولون بقلبهم أو لسانهم: نعمل ذلك أو نقول ذلك امتثالاً لأمرك يا مولانا ومولى كل موجود وأنت خالقه، ولهذه الكلمة تأثير عظيم، فإذا فرغوا منه حمدوا الله إذْ أهَّلَهم لذلك، واستغفروا الله من تقصيرهم فيه ثلاث مرات.

وقد حُبِّب لي أن أقول: أستغفر الله العظيم من تقصيري في كل عبادة عدد أنفاسي.

وآداب القوم كثيرة كما تقدم، وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

خاتمة في آداب الذكر المتفق عليها

اعلم - وفقني الله وإياك إلى دوام ذكره - أن آداب الذكر إذا كان باللسان ستة وعشرون أدباً، منها ما هو سابق على [٤١/ب] الذكر، ومنها ما هو حال الذكر، ومنها ما هو بعد الفراغ منه.

فالسابق خمسة:

الأول: التوبة النصوح؛ وهي أن يتوب من كل ما لا يعنيه من قول أو فعل أو إرادة. وفي كلامهم: مَن ادعى التوبة، ومال إلى شيء من شهوات الدنيا المباحة فهو كاذب.

الثاني: الغسل أو الوضوء.

الثالث: تطييب ثيابه وفمه.

الرابع: تحرير النية، وهو أن يكون الباعث له على الذكر امتثال الأمر، لا غير ذلك.

الخامس: مصاحبة التعظيم للمذكور.

وأما التي حال الذكر فستة عشر:

الأول: الجلوس على مكان طاهر، كالجلوس في تشهد الصلاة.

الثاني: وضع الراحتين على الفخذين.

الثالث: استقبال القبلة، إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلَّقوا.

الرابع: تطييب مجلس الذكر.

الخامس والسادس: دوام الإخلاص والصدق.

السابع: أن يكون المأكل والملبس حلالاً.

الثامن: أن يكون الموضع مظلماً.

التاسع: تغميض العينين من الذكر.

العاشر: استحضار معنى الذكر.

الحادي عشر: ألاَّ يشرك معه غيره.

الثاني عشر: نفي كل موجود من القلب سوى المذكور.

الثالث عشر: أن يكون جهراً.

الرابع عشر: أن يكون بقوة تامة.

الخامس عشر: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه.

السادس عشر: اجتناب اللحن.

وأما التي بعد الفراغ من الذكر فخمسة:

الأول: ذم النفس لحظة.

الثاني: ألاَّ يشرب حتى يمضي عليه درجتان أو ثلاث.

الثالث: أن يسكت سكتة طويلة.

الرابع: ترقب وارد الذكر.

الخامس: الشكر على التيسير، والاستغفار من التقصير [٤٢/أ].

فهذه آداب الذكر المتفق عليها.

وأما غير المتفق عليها فكثيرة، أوصلوها إلى مئة أدب، ولم أرَ في مشايخ هذا الزمان شيخاً يعرف للذكر عشرة آداب.

تنبيه:

أفضل صيغ الذكر هو إدارة كلمة الإخلاص؛ فإن لها أثراً عظيماً لا يوجد في غيرها من سائر الأذكار.

تنبيه آخر:

جعل بعضهم للسكتة المتقدمة ثلاثة آداب:

أحدها: استحضار العبد أنه بين يدي الله، وأنه مُطَّلِع عليه.

ثانيها: جمع الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة، كحال الهرة عند اصطياد الفأر.

ثالثها: نفي الخواطر كلها، وإجراء معنى الذكر على القلب.

تنبيه آخر:

قد عُلِمَ أن الصواب في حقِّ الذاكر إذا سكت وسمع قوّالاً ينشد كلام القوم ألاّ يتحرك، ولا يتلفظ أو يمدح النبي ﷺ، وأن يصلي سرّاً لا جهراً.

وهذا آخر الرسالة التي اقتضتها البطالة، ولعمري - مع صغر حجمها - إنها لكثيرة الفوائد، لا يرغب عنها إلا عدو أو حاسد، احتوت على ما لم تحتوه الكتب الكبار، تستحقّ أن تسمى برسالة الأنوار، أخبارها وجيزة، آدابها غريبة عزيزة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها من كتبها أو قرأها أو سمعها، وأن يجزي خيراً مِن اطَّلع على هفوةٍ فأصلحها، وأن يصلي ويسلم على مولانا وسيدنا محمد الكريم الأمين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، عدد ذكر الذاكرين، وسهو الغافلين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين [٤٢/ب].

[تمّ الكتاب بعون الله تعالى]

فهرس المحتويات

الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية

الأنوار القدسية في بيان آداب الصحبة